ستيفاني باتلاند
رواية
مكتبة الكلمات المفقودة
سر من قرأ
ترجمة
إيناس التركي

لا توقف رحلة القراءة عند هذا
الكتاب سجل في مكتبة الآن
وانضم إلى أكبر موفر للجديد من الكتب

امسح الكود أو اضغط الصفحة اتبع الرابط!

مكتبة
الكلمات
المفقودة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
العنوان الأصلي: The Lost For Words Bookshop
Copyright © 2017 by Stephanie Butland

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © إيناس التركي

مكتبة
t.me/soramnqraa

باتلاند، ستيفاني.
مكتبة الكلمات المفقودة: رواية / ستيفاني باتلاند؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٣٨٤ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789779603315
١- القصص الإنجليزية.
أ- التركي، إيناس (مترجمة).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧١٩ / ٢٠٢٥

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

ستيفاني باتلاند

مكتبة الكلمات المفقودة

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمتها عن الإنجليزية
إيناس التركي

الكرمة

قالوا عن هذه الرواية

لافداي شخصية آسرة، تحبها كما تحب قطة تخدشك دائمًا، لكنك تحبها على أي حال... هذا الكتاب **غير تقليدي، ويتسم بالبراعة، ولا يمكن تنحيته جانبًا**. لقد استمتعت به حقًّا.

- كاتي فورد

لافداي شخصية رائعة، وقد **أسرت قلبي منذ الصفحة الأولى**... ومكتبتها هي مكتبة أحلام القراء.

- جولي كوهين، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «عزيزي الشيء»

تتمتع لافداي بطبيعة **ساخرة ومحبوبة للغاية**، وقد أحببت آرتشي وناثان والمكتبة، والغموض الذي يتكشَّف.

- كاريس براي، مؤلفة كتابَي «أغنية لإيسي برادلي» و«متحف ذاتك»

إنه كتاب **ملتهب بالحب والألم**: رواية غريبة وفريدة **وجميلة**، ستسعد باكتشافها في أي مكتبة. كما أن لافداي كاردو شخصية **تثب** من بين الصفحات **إلى داخل قلوبنا**.

- ليندا جرين، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «بينما كانت عيناي مغمضتين»

إنها قراءة جميلة للغاية، وصوت لافداي آسر جدًّا... **حكاية رائعة** لم أتمكن من تنحيتها جانبًا.

- ليز فينويك

مكتوبة بشكل جميل وعاطفي، كما أن لافداي بطلة محببة ممتلئة **بالتفرد والهشاشة**، تتكشف قصة ماضيها المؤلم ببراعة.

- تريسي ريس، مؤلفة كتاب «إيمي سنو»، من قائمة العشرة الأكثر مبيعًا بصحيفة «صنداي تايمز»

يا له من **كتاب مذهل تمامًا!** لقد أحببته، وبكيت بشدة. إذا كنت تهتم بالكتب (أو بالبشر)، فعليكَ أن تقرأه!

- شيلي هاريس، مؤلفة كتاب «اليوبيل»

هذا الكتاب سوف يثلج صدرك، ويحطم قلبك بالقدر نفسه! لافداي كاردو مضحكة وجريئة، وغاضبة ومُحبة، كما أن الخوف يملأها، وتخفي ندوبها بعمق داخلها، لكنها تظهر عليها من الخارج أيضًا. بين يدَيْ باتلاند البارعتين، تُسرد حكاية ماضي لافداي وحاضرها بشجاعة، وهي حكاية قادرة على تغييرك. **هذه رواية تجب قراءتها.**

- كلير داير، شاعرة حائزة على جوائز، ومؤلفة كتاب «العلاقة المثالية»

كتاب **جميل، ومؤثر، يحرك المشاعر**، بمنزلة متعة عذبة. وهي قراءة محزنة، مثيرة للاهتمام، محبوكة ببراعة، **صادمة في بعض الأحيان، وآسرة**. كنت مع لافداي على طول الخط، وأحببت الكتاب تمامًا.

- جين وينهام جونز، مؤلفة كتاب «وقت الذروة»

لقد أحببته! قضيتُ النهار بأكمله اليوم منغمسة مع لافداي... **شخصية مرسومة على نحو رائع.**

- أليكس جراي، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «أصعب وداع»

لافداي شخصية رائعة.
آه، والكتابة...
فُجِّرت بالحياة، ومفعمة بالحيوية، وتمس الأعماق في بعض الأحيان.
داهمتني بمتعتها، ومضحكة، ولاذعة.
اجترأت على المزج بين النثر والشعر بسلاسة.
يجعلني آرتشي أقع في الحب رأسًا على عقب.
ولا يسعك سوى الشعور بالألم عند نهاية الكتاب.

- هيلينا شيفيلد، مؤلفة كتاب «فن ارتداء القبعات»

لقد انتهيت من الكتاب للتو، ويمكنني أن أرى تمامًا لماذا وقعت في حبه. يا لها من رواية فريدة وجميلة! تتصاعد بذكاء إلى **ذروة تُوقف القلب**. سيكون أي محب للكتب مجنونًا إذا لم **يعشق شخصية لافداي المرسومة على نحو غير تقليدي**، فهي **تجذبك** منذ البداية بصوتها المميز!
- تريسي بوكانان، مؤلفة الكتاب الذي احتل المرتبة الأولى في قائمة الأكثر مبيعًا، «سر شقيقتي»

رائع! وهناك كثير من العبارات **الجميلة** أيضًا!
- عائشة مالك، مؤلفة كتاب «صوفيا خان ليست ملزَمة»

يا لَلافداي المسكينة الرائعة**!** كتاب **بديع**، رائع عن المكتبات... **جميل جدًّا جدًّا!**
- سارة فرانكلين، مؤلفة كتاب «المأوى»، ومُحكِّمة جوائز كوستا للكتاب

إلى آلان.

الشعر

٢٠١٦

غير مُتوقَّع

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب هو عود الثقاب في اللحظة الخاطفة التي يتصاعد فيها الدخان بين الاحتكاك واشتعال اللهب.

يقول آرتشي إن الكتب هي أفضل عشاقنا، وأكثر أصدقائنا إثارة. وهو على حق، لكنني محقة أيضًا، إذ يمكن للكتب أن تؤذيك حقًّا.

اعتقدتُ أنني أعرف هذا، في اليوم الذي التقطت فيه ذلك الكتاب من تأليف براين باتن، لكن اتضح أنه لا يزال هناك الكثير لأتعلمه.

عادة ما أترجل عن دراجتي، وأدفعها إلى جانبي في الجزء الأخير من رحلتي إلى العمل. فبمجرد تجاوز محطة الحافلات، يضيق الطريق المرصوف بالأحجار، وكذلك يضيق الرصيف في هذا الجزء من يورك، لذا يصير الأمر أسهل كثيرًا بهذه الطريقة. وفي صباح ذلك اليوم من شهر فبراير، كنت أحاول أن أدور حول امرأة ما معها عربة أطفال، أوقفتها وعجلاتها الأمامية على الطريق بينما العجلات الخلفية على الرصيف، عندما رأيت الكتاب. كان ملقى على الأرض بجوار سلة المهملات، كما لو أن أحدهم حاول أن يرميه، لكنه لم يكترث بما يكفي حتى كي يتوقف ويصوِّب على نحو صحيح. على أي حال، توقفتُ بالطبع، فمن عساه لا ينقذ كتابًا؟ طقطقت المرأة صاحبة العربة بلسانها على سبيل الاستنكار، على الرغم من أنني لم أسبِّب لها أي ضرر. بدت من ذلك النوع الذي يقضي أيامه في الطقطقة باللسان، مثل آلة استنكار تعمل بضغط الهواء. لقد قابلت كثيرًا من

هؤلاء، وهو أمر ملازم لكوني أرتدي حلقًا في الأنف. سيكون يومًا مشهودًا إذا تمكنوا من رؤية وشومي.

تجاهلتها والتقطت الكتاب، الذي كان بعنوان «جاك الباسم». كان سليمًا، وإن كان غلافه الخلفي رطبًا بعض الشيء نظرًا إلى وجوده على الرصيف، لكن بخلاف ذلك، كانت حالته جيدة. وكانت به زاويتا صفحتين مطويتان إلى الأسفل بعناية على هيئة مثلث قائم الزاوية على سبيل العلامة. لن أقدِم على ذلك بنفسي، فأنا أكنُّ الاحترام للكتب، وعلى أي حال، ما مدى صعوبة العثور على مؤشر للكتب؟ دائمًا ما يوجد شيء في متناول اليد: تذكرة الحافلة، أو غلاف البسكويت، أو زاوية مقطوعة من إحدى الفواتير. ومع ذلك، يعجبني أن ثمة كلمات على الصفحة مهمة بما يكفي كي يسمها أحدهم بعلامة (كلمة الوسم بمعناها المجازي موجودة منذ سبعينيات القرن السادس عشر، في حال ما إذا كنت مهتمًّا. فعندما تعمل على بُعْد خمسة أمتار من أربعة رفوف من المعاجم والموسوعات وقواميس المرادفات، يُعد من محض الوقاحة ألا تعرف شيئًا كهذا).

على أي حال، كما يقول آرتشي، لقد استطردت في الحديث. قالت المرأة صاحبة العربة:

- معذرة، لا أستطيع أن أرى ما وراءك.

لكنها قالت ذلك بأدب، لذا حركت العجلة الخلفية لدراجتي على الرصيف حتى تتمكن من إلقاء نظرة أفضل على حركة المرور. وحينها تذكرت عدم وضع أي افتراضات أو إصدار أي أحكام سابقة، فمن المسموح للجميع أن يحبوا الشعر، حتى أولئك الذين يطقطقون بألسنتهم لراكبي الدراجات.

قلت:

- أهذا كتابك؟ كان على الأرض.

نظرتْ إليَّ، ورأيتها تلاحظ الحلق، وحقيقة أن شعري أسود اللون لكن جذوره بُنية، ثم ترددتْ، لكن لا بد أن أمنحها الفضل في أنها قررت على ما

يبدو ألا تصدر أحكامًا سابقة، أو ربما رجَّحت أظفاري وأسناني النظيفة الكفة في صالحي. تهدلت كتفاها بعض الشيء.

قالت:

- لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة التقطت فيها كتابًا لم يكن يحتوي على طيات قابلة للفتح من أجل الأطفال.

كدت أناولها الكتاب حينها، لكن قبل أن أتمكن من أن أمد إليها يدي به، حدثت انفراجة في حركة المرور، وانطلقتْ عبر الطريق، وهي تردد لطفلها شيئًا ما بشأن الذهاب إلى السباحة.

نظرت حولي لأرى ما إذا كان هناك شخص قريب ربما يكون قد أسقط للتو كتابًا لشاعر من ليفربول، أو يعود أدراجه وعيناه على الأرض. كانت هناك امرأة تقف خارج متجر الخمور تفتش في حقيبتها بتعجل، وكنت على وشك الاقتراب منها عندما أخرجت هاتفها الذي يرن وأجابته. ليست هي إذن. لا أثر لأي شخص يبحث عن كتاب مفقود. فكرت في تركه على حافة نافذة متجر الخمور، كما يفعل المرء مع قفاز سقط من أحدهم، لكن الأمر لا يستغرق كثيرًا من الوقت حتى يتسبب الطقس السيئ في إتلاف كتاب، لذا وضعته في السلة. نعم، لديَّ دراجة بها سلة في مقدمتها، ماذا في ذلك؟ وواصلت طريقي إلى متجر بيع الكتب المستعمَلة، حيث أعمل منذ عشر سنوات، منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري.

أبدأ العمل متأخرًا يوم الأربعاء، لأنني أبقى بعد ساعات العمل يوم الثلاثاء من أجل نادي الكتاب، الذي عادة ما يتدهور ليصير شيئًا أقل إثارة للاهتمام بكثير بعد ثاني كأس من النبيذ. تخوض إحدى عضوات النادي إجراءات الطلاق، بينما تشعر بقيتهن إما بالحسد وإما بالاستنكار، على الرغم من اختفاء كل ذلك تحت مشاعر التعاطف. والأمر مسلٍّ لفترة وجيزة، لكنه غير مستساغ في النهاية، مثل سويفت[(١)].

(١) جوناثان سويفت: كاتب أيرلندي، اشتُهر بالجمع بين الفكاهة والجدية في أعماله. (المترجمة).

أحد الأشياء التي أحبها في نادي الكتاب هو أننا نستضيفه، بدلًا من إدارته، لذا أشرب الشاي، وأرتب المكان، وأستمع إلى جزء من مناقشة الكتاب، ثم أشرد باقي الوقت. ويمنحني ذلك الفرصة للقيام بالأشياء التي لا أستطيع القيام بها عندما يكون المتجر مفتوحًا، فمن المدهش مقدار ما ينجزه المرء عندما لا يتعرض للمقاطعة. يقول آرتشي إنه لو كان الأمر بيدي، فسوف تُنشأ المكتبات مثل محال البقالة عتيقة الطراز، وبها طاولة خلفها رفوف، كي لا يكون هناك أي أشخاص مزعجين يُفسِدون نظامي المرتَّب على نحو جميل. أقول إنه غير منصف، لكنني لا أعتقد أن اختبارًا في كفاءة التعامل مع المكتبات سيكون أمرًا خاطئًا. بعض القواعد الأساسية فحسب: أعِد الكتاب حيث وجدته، وتعامل معه باحترام، ولا تتصرف بحماقة مع العاملين هناك. ليس الأمر بهذه الصعوبة، أو على الأقل هذا ما قد يظنه المرء.

كان المكان هادئًا عندما دلفت، وقد تأخرت بعض الشيء، ويعود هذا جزئيًّا إلى كتاب براين باتن، لكنني ما زلت في الوقت المحدَّد لبدء العمل في الحادية عشرة على أي حال. كثيرًا ما أبقى بعد موعد إغلاق المكتبة بما يكفي كي يطلق لي آرتشي العنان بعض الشيء، عندما يكون لديَّ فصل من كتاب أتعجل الانتهاء منه، لذا لا يُمثِّل الأمر مشكلة أبدًا. بعد أن أحكمت قفل دراجتي، توجهت إلى المقهى المجاور لأجلب لنفسي الشاي، والقهوة لآرتشي قبل بدء العمل. وإذا تجاهلت الزهور المصنوعة من الحرير، واللافتات المكتوب عليها أشياء من قبيل: «تصل كغريب، وتغادر كصديق»، فيمكن اعتبار مقهى آمي جيرة طيبة للغاية.

أحب المرور عبر أبواب مكتبة الكلمات المفقودة، حيث تعبق المكتبة برائحة الورق ودخان الغليون. لم يعُد آرتشي يدخن في المتجر، بصورة رسمية على الأقل. لكنني أشك في أنه لا يزال يفعل ذلك عندما يكون وحده. كل السنوات التي قضاها وهو ينفث الدخان من دون توقف طوال النهار تغلغلت في الجدران والخشب وفي صفحات الكتب. ثمة شيء ما في الوقوف وأنا محاطة بالأرفف يدفعني إلى الشعور بأنني في غابة، على الرغم من أنني عندما أفكر في الأمر،

أدرك أنني لم يسبق أن كنت في غابة قَطُّ. لكني أعتقد أنني لو كنت في غابة بالفعل، فربما لا تكون رائحة الدخان شيئًا جيدًا. على أي حال، أعطيت آرتشي قهوته.

قال:

- شكرًا لك، يا يدي اليمنى المفيدة دومًا.

فهو أعسر، ويعتقد أن مثل ذلك النوع من التعليقات مضحك. منحته ابتسامة ساخرة، ووكزته في صداره. توجد وفرة كبيرة من آرتشي تحت ذلك الصدار، وإذا أراد المرء طعنه، فسوف يحتاج إلى سكين طويل للغاية للوصول إلى أي من أعضائه الحيوية. التقط غليونه وقال:

- سأذهب لاستنشاق بعض الهواء. فلتلتزمي بحسن السلوك في غيابي، يا لافداي.

قلت:

- كعهدي دومًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

توجد نوافذ كبيرة على جانبَي باب المتجر، وتحتوي إحداها على مكتب ضخم من خشب البلوط. يقول آرتشي إنه فاز به من بيرت رينولدز في لعبة بوكر في أواخر السبعينيات، لكنه غامض جدًّا بشأن التفاصيل. وإذا كانت كل القصص التي يرويها آرتشي صحيحة، فهذا يعني أن عمره ثلاثمائة عام تقريبًا، ووفقًا له، فهو يمتلك المكتبة منذ خمسة وعشرين عامًا، وقبل ذلك كان في البحرية، وعاش في أستراليا، وأدار حانة في كندا «مع المرأة الوحيدة التي فهمته حقًّا»، وعمل مشرفًا على طاولة قمار في لاس فيجاس، وقضى بعض الوقت في السجن في هونج كونج. وأنا أصدق الحكاية المتعلقة بالمكتبة، و(ربما) الحكاية المتعلقة بالحانة.

المكتب جميل، إذا تمكنت من العثور عليه أسفل كل الأوراق التي تغطيه. يوجد صندوق البريد على يسار باب المكتبة، ويقع طرف المكتب أسفله، وفي بعض الأحيان تتراكم فوقه رسائل البريد والصحف المجانية لمدة ثلاثة أيام قبل أن أزيلها، وكل ما يفعله آرتشي هو مراكمة الأشياء فوقها.

تحتوي النافذة الأخرى على مقعد صغير، وهو مريح بقدر كما يبدو، أي أنه

غير مريح على الإطلاق، لكن الأشخاص الذين نشأوا على قراءة «آن الجملونات الخضراء» لا يمكنهم مقاومة الجلوس عليه، إلا أنهم لا يتمكنون من المكوث طويلًا. أعتقد أن المقاعد بجوار النوافذ هي واحدة من تلك الأشياء التي دائمًا ما تبدو أفضل في الكتب، مثل المعارض الزراعية التي تقام في الحقول في عطلة البنوك أيام الاثنين، والجنس، والسفر، وأي شيء يخطر ببالك.

كان هناك كثير مما يتعين عليَّ القيام به. أعلم أنه من المفترض أن أقدِّر حقيقة أنني نمت أكثر قليلًا، لكنني دائمًا ما أشعر كما لو أنني تركت اليوم يفلت مني، وأنني لن أتمكن من تعويض الوقت الضائع أبدًا. إلا أن الميزة الوحيدة هي أنني لست مضطرة إلى إدخال أكياس الكتب التي يتركها الناس عند المدخل لأنهم لا يستطيعون التمييز بين مكتبة الكتب المستعمَلة والمتجر الخيري.

اعتادت جدتي لوالدي الاستيقاظ دائمًا مع شروق الشمس. ما زال في وسعي سماعها وهي تقول بصوتها المختلج وعينيها الباسمتين: «إنه أفضل جزء من اليوم، يا صغيرتي». كان جداي لوالدي هما أول من ماتا من الأشخاص الذين عرفتهم. ذهبنا إلى كورنوال مرتين في ذلك العام؛ مرة في الربيع عندما ماتت جدتي بسرطان المعدة، ثم مرة أخرى في الخريف عندما لحق بها جدي، وهز الجميع رؤوسهم قائلين «قلب كسير». أعتقد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري. وأتذكر أنني فكرت أنه من الغريب أن جدَّي لوالدي هما من توفيا، ومع ذلك كانت والدتي هي التي تبكي. كان الشاطئ الذي اعتدنا الذهاب إليه بالقرب من فالماوث - مسقط رأس والدي - أشبه بشاطئ من كتاب حكايات؛ في ذاكرتي، تبدو الرمال صفراء، والبحر كأنه مرسوم بقلم تحديد أزرق. كنا نعيش بالقرب من البحر في منزلنا في ويتبي، لكن شاطئ كورنوال بدا مختلفًا؛ كان ساحرًا. وبعد وفاة جدي، لم نعُد إلى هناك. لطالما قال والدي إنه هو وعمتي جاني لا يكنَّان الود لبعضهما، لذا أعتقد أنه لم يعُد هناك سبب يدعونا إلى العودة.

بدأت ترتيب المكان بعض الشيء، ثم انتقلت إلى استفسارات العملاء.

لا يمكن الاعتماد على آرتشي فيما يتعلق باستخدام الكمبيوتر - يمكنه أن يفعل ذلك، لكنه غير منظم - لذا تفقدت رسائل البريد الإلكتروني أولًا وأنا جالسة إلى المكتب، فيما أخذ هو ينفث دخان غليونه على الرصيف بالخارج. لم يكن هناك شيء ذو أهمية: استفسار عن كتاب لم يكن لدينا، وطلب لشراء كتاب آخر لدينا عبر الإنترنت. انتهيت منهما في خمس دقائق، ثم تفحصت صندوق قسائم الاستفسارات. بدأت أتركها للعملاء كي يملأوها بأنفسهم، لأن آرتشي لا يبلغني إلا بالاستفسارات التي يعتقد أنها مثيرة للاهتمام.

لم يكن هناك سوى طلب واحد جديد، لكتاب لدينا نسخة منه في المخزن بالطابق العلوي، لذا بحثت عنه ووضعته في كيس ورقي بني وكتبت عليه اسم العميل، ثم اتصلت به لأخبره أن الكتاب في انتظاره، ووضعته على الرف خلف المكتب. كان كتابًا من تأليف جاين م. أويل، وهو ما كان من المؤكد أن آرتشي سيعدُّه غير جدير باهتمامه. ربما كان ثمنه مجرد خمسة جنيهات فحسب، لكنني أراهن أن مجموع كل مبيعاتي من الكتب الرخيصة يزيد على مبيعات آرتشي من الطبعات الأولى الثمينة. وفي الواقع، لست في حاجة إلى الرهان، فأنا أرى الأرقام. يصطحبني آرتشي إلى اجتماعاته مع المحاسب كي أستمع إلى الأجزاء التي تفوته. فهو يبدأ بالإيماء برأسه، ثم ينتهي به المطاف وهو نائم ولغده ملتصق بصدره، ومن المضحك أنه يبدو أصغر حجمًا وهو مستغرق في النوم. لكن عندما يكون مستيقظًا ومستغرقًا في الحديث، فهو يبدو كبيرًا جدًّا بالنسبة إلى المكتبة، وكبيرًا جدًّا بالنسبة إلى يورك، على الرغم من أنه يقول إنها المدينة المثالية بالنسبة إليه. سألته ذات مرة كيف انتهى به الأمر مالكًا للمكتبة، فقال: «حان الوقت كي يحتويني مكان ما»، وهي إجابة سخيفة. وفي مرة أخرى أخبرني أنه أتى إلى يورك لزيارة صديق، و«كان سعيدًا للغاية»، واشترى المكتبة على سبيل النزوة. وهو جواب سخيف أيضًا، لكنه صحيح على الأرجح.

كان بن، الذي يعمل في إخلاء المنازل ويحضِر لنا الكتب، قد جلب صندوقين، واستنادًا إلى كعوب الكتب التي تمكنت من رؤيتها، ستمثِّل إضافة مُرحَّبًا بها في

قسم السيَر الذاتية للموسيقيين (الكلاسيكيين). ستكون تلك هي مهمتي لهذا اليوم. يعجبني وصول صناديق كهذه، تحتوي على كتب في موضوع محدد، بدلًا من خليط جمعه المرء خلال حياته. يجعلني ذلك أشعر كما لو أني أقضي وقتًا مع شخص لديه جوهر. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك دائمًا احتمال لوجود ما يطلِق عليه آرتشي «الكنز الدفين». فمن المرجح أن يكون الشخص الشغوف بموضوع ما قد اشترى واحتفظ بالطبعات الأولى، وتتبَّع الأشياء النادرة من أجل محتواها، لكنه لم يفكر في القيمة المادية، لأن القيمة بالنسبة إليه تكمن كلها بين الصفحات. وأنا شخصيًّا أتفق معه، لكن كما يحب آرتشي أن يقول، لست أنا من يدفع الإيجار.

قبل أن أبدأ في العمل على الصندوق، صنعت لافتة صغيرة - عُثر على - مثل تلك المكتوب عليها «مفقود»، التي يصنعها الناس عند اختفاء قططهم، كما لو أن القط لم يحصل على عرض أفضل فخرج من هناك وحسب. كُتب على اللافتة: «عُثر على كتاب «جاك الباسم» بقلم براين باتن. إذا كنت المالك (المهمِل)، تفضَّل بالدخول واطلب لافداي». علَّقت اللافتة على النافذة، ووضعت الكتاب بعيدًا في مؤخرة المكتبة، خلف الباب الذي كُتب عليه «خاص». إذا لم يكن هناك من سيُقدِّر الكتاب، فسوف أفعل أنا.

يستغرق آرتشي نصف ساعة ليدخن غليونه، ويثرثر مع كل وأي شخص يمر، ثم يعود إلى الداخل مرة أخرى، وهو لا يكترث بحالة الطقس. أجدني معجبة نوعًا ما بالتزامه هذا، على الرغم من أنني أدرك جيدًا أنه إذا كان يدخن السجائر، فربما لا أكون متعاطفة معه بالقدر نفسه. تذكِّرني رائحة دخان السجائر بوالدي. جعلته والدتي يقلع عن التدخين عندما صار المال شحيحًا. وحتى الآن، يجعلني دخان السجائر أشعر بعدم الارتياح، وفي الوقت نفسه يحمل شيئًا من رائحة المنزل نوعًا ما.

كان هناك كتاب سيرة ذاتية لـ«ي. س. باخ» في الصندوق، وعندما فتحته وجدت قطعة من ورق الزبدة مطوية بعناية، تحتوي على وردة. أصدرت

الورقة خشخشة عندما فتحتها، لكنها لم تتمزق، وبدت الوردة أكثر هشاشة من الغلاف، وكتمت أنفاسي وأنا أراقبها، حيث لم أرغب في أن يلمسها أي شيء قَطُّ، خوفًا من أن أفتِّتها. ربما كانت البتلات وردية اللون فيما مضى، لكنها تحولت إلى اللون الرمادي المترَّب، بعيدًا عن الهواء والضوء. طويت الورقة فوقها مجددًا، وعلَّقتها على لوحة الإعلانات الموجودة في واجهة المكتبة، والتي كُتب عليها «عُثر عليه داخل كتاب». تساءلت عمَّن احتفظ بتلك الوردة ولماذا، وإذا تم تجفيفها من دون تفكير سابق، ثم راحت طي النسيان، أو ما إذا كانت رمزًا لشيء أكثر أهمية. وأجد حقيقة أنني لن أعرف أبدًا أمرًا مريحًا للغاية. من الجيد أن يكون هناك ما يُذكِّرك بأن العالم مليء بالقصص التي قد تكون مؤلمة مثل قصتك على الأقل.

* * *

مرَّ أسبوع، ولم يسأل أحد عن كتاب براين باتن، ونويت إزالة اللافتة عصر ذلك اليوم. كانت خطتي هي وضع الكتاب خلف الطاولة، ومن ثَمَّ إعطاؤه لشخص يشتري شيئًا يشير إلى أنه ربما يقدِّره. لم أكن أنوي بيعه، حيث لم يبدُ ذلك من الأمانة في شيء. نعم، أحيانًا أفكر في الأمور بدرجة زائدة على الحد، لكن هناك عيوب أسوأ من ذلك.

كنت أتناول غدائي في الجزء الخلفي من المكتبة، الذي يتألف في الأساس من مرحاض صغير وحوض خلف باب خشبي غير مناسب، يحتاج إلى جذبه لإغلاقه، ودفعه بقوة كي ينفتح، وكرسي بذراعين أمام مخرج الطوارئ، ورف تحته سلة مهملات ومكنسة كهربائية. المقعد كبير ومريح، يشغل المساحة كلها تقريبًا، وأستطيع الجلوس فيه متربعة. تناولت رقائق الحبوب والموز للغداء، وهو ما تناولته أيضًا للإفطار، لكني أحب وجبة الإفطار أكثر من غيرها، فلماذا بحق الجحيم لا أستطيع تناولها مرتين يوميًّا؟ انتهيت من تناول نصف وجبتي، عندما سمعت آرتشي يناديني.

عندما يناديني آرتشي، عادة ما يكون ذلك بسبب وصول أحد «عملائي» (أي

أحد العملاء الذين لا يحبهم). لن يكون الأمر بشأن سؤال عن المخزون، لأنني أقسم إنه يعرف كل كتاب في المتجر، ويعرف مكانه.

أنا وآرتشي متشابهان من حيث انخفاض قدرتنا على تحمُّل الأشخاص الذين يزعجوننا - وهي ليست ميزة عندما تعملُ في مجال خدمة العملاء كما يقول - لكن الجيد في الأمر هو أن كلًّا منا ينزعج من فئات مختلفة من الناس عن التي تزعج الآخر. فأنا لا أحب الأشخاص الذين يقهقهون، ويقول هو إنه ليس ثمة خطأ في القليل من متعة الحياة. بينما لا يحب هو الأشخاص ذوي الرائحة الكريهة، وأقول إنه لا ينبغي معاقبة الناس بسبب ظروفهم، وإن الكتب لا تهتم متى كانت آخر مرة اغتسلت فيها. ولا أحب الأشخاص الذين يحاولون المساومة لخفض الأسعار، أو الذين يخبرونك أنه يمكنهم العثور على الكتاب نفسه بسعر أرخص على الإنترنت. فهؤلاء الأشخاص لا يدركون أنهم إذا بحثوا على الإنترنت عن كثير من الكتب النادرة، فسينتهي بهم المطاف إلى شرائها منا على أي حال، لكننا سنحمِّلهم تكاليف الشحن أيضًا. أحب عندما يحدث ذلك، حيث إن بعض الشماتة تساعد حقًّا على التخفيف من وطأة العشرين دقيقة التي يتعين عليَّ وقوفها في الصف بمكتب البريد. أشعر كأنني بيكي شارب في رواية «سوق الأضاليل».

لا يحب آرتشي أولئك الأشخاص الذين يسمِّيهم «المعجبين المهووسين»، لكنني أحب أن يتسم عملائي ببعض التركيز. لا حرج في الرغبة في امتلاك كل طبعة من كل كتاب لكاتب معين، كما أن معظم المؤلفين الذين يُطارَدون عبر رفوفنا قد ماتوا بالفعل، ولهذا إذا لم ينزعجوا من المعجبين المهووسين، فلا أرى سببًا يدفعنا نحن إلى الشعور بذلك.

ظننت أن الزائر ربما يكون مهتمًّا بجمع الكتب، سيمرِّره آرتشي إليَّ تلقائيًا، بصرف النظر عمَّا إذا كنت قد انتهيت من تناول الطعام أم لا. أتجاهل انتهاكاته البسيطة لقانون العمل على أساس أن فضائله تفوق عيوبه بنسبة ثلاثة إلى واحد تقريبًا. هناك سيدة عجوز من محبي الروايات القوطية تتمتع بحاسة سادسة فيما

يتعلق بالوقت الذي يمكنها أن تُفسِد فيه غدائي عن طريق مقاطعتي، لذا توقعت أن تكون هي، لكن عندما درت حول نهاية قسم كتب الطبخ، رأيت آرتشي يتحدث إلى شخص لم أقابله من قبل. كنت سأتذكره.

كان شعره قصيرًا، ويرتدي معطفًا جلديًّا، وحذاء من دوك مارتينز لونه أزرق معدني، ورباط كل حذاء مربوط بشكل مختلف عن الآخر. وكانت ضحكته - بدا أن آرتشي يظهر كل سحره - كموج البحر على حصى الشاطئ. رآني آرتشي قادمة، والتقت نظرته بنظرتي ليلفت انتباهي.

قال:

- استعد، فهي لا تستحسن الأشخاص الذين يسيئون معاملة الكتب.

قال الغريب:

- يبدو هذا منصفًا بما فيه الكفاية، فأنا أيضًا لا أستحسنهم.

قال آرتشي:

- ها هي، متشردتي الضالة.

للحظة مروعة، ظننت أنه سيبدأ في سرد حكايته بخصوص «كيف التقيتُ بلافداي»، لكنه تمكن من مقاومة الأمر.

- هل يمكنني مساعدتك؟

قال الغريب:

- بالتأكيد يمكنك ذلك، بل أعتقد أنك ساعدتني بالفعل.

ابتسم فبدت أسنانه مستقيمة ومتساوية، أسنان شخص من الطبقة المتوسطة، خضعت للتقويم لتصير منتظمة، بتكلفة كبيرة بلا شك.

- حقًّا؟

يمكنه بذل بعض الجهد في التوضيح.

قال آرتشي:

- لافداي، هذا السيد يبحث عن شاعر مفقود.

- اللافتة الموجودة على النافذة. الكتاب.

بدا صوت الغريب واضحًا، ولم أتمكن من العثور على لكنة فيه، لكن ذلك لا يعني أنه كان من الطبقة العليا أيضًا.

قلت:

- وجدته على الرصيف.

بدوت كأنني أوجِّه اتهامًا، لكنني لم أهتم. فالشِّعر يواجه ما فيه الكفاية من الصعوبات، من دون أن يلقي به الناس.

قال:

- أعتقد أنه سقط من جيبي. إنه عميق للغاية، لكنني كنت أقرأ في الحافلة ثم أدركت أنني كدت أفوِّت محطتي، ولا أظن أنني أعدته إلى جيبي بشكل صحيح.

وضع يده في جيب معطفه، فاختفت حتى الرسغ. لاحظت أن يديه كانتا طويلتين، حتى بالنسبة إلى بقية جسمه، وأصابعه دقيقة، وطرف إبهامه يتقوس بعيدًا عن يده، كما لو أنه سيجري هاربًا.

قلت:

- نعم.

اعتقدت أنه يستطيع بذل جهد أكبر بعض الشيء، على الرغم من أنني وجدت أنه من المضحك كونه يظن أن عليه الدفاع عن نفسه، كما لو أنه وصل متأخرًا لإجراء مقابلة عمل.

قال:

- كما أنني أحب شعراء ليفربول. لقد درستهم. لا يدرك الناس أنهم هم الذين اخترعوا الأداء الشعري، إلى حدٍّ بعيد. كما اخترعوا فرقة البيتلز أيضًا في الواقع.

لم أكن في حاجة إلى الاستماع لخطابه ذاك، فقلت:

- سأذهب لإحضاره.

تناولت ملعقة من رقائق الحبوب عندما مررت بالغرفة الخلفية، لكنها كانت قد تحوَّلت إلى عصيدة.

قال آرتشي عندما عدت:

- صديقنا الجديد المهمِل هو أيضًا شاعر.

قلت وأنا أعيد إليه كتاب براين باتن:

- إذن عليه أن يعلم أنه ليس من المقبول أن يطوي زوايا صفحات كتب الشعر.

لن أظهر إعجابي به، فلديَّ في المنزل دفتران يحتويان على قصائد كتبتها، ولا أخبر الناس أنني شاعرة. أقول إنني أعمل في مكتبة، إذا ظننت أن ذلك يهمهم.

قال الشاعر ذو المعطف الجلدي:

- أعرف هذا، إنها عادة فظيعة.

وابتسم فبادلته الابتسام، على الرغم من أنني لم أرغب في ذلك حقًّا. فالابتسامات تشي بالكثير للغاية، أكثر من مجرد شكل أسنانك.

وضع الكتاب في جيبه، وسحب غطاء الجيب فوقه، كما لو أنه يريني أنه تعلَّم الدرس. كان شهر مارس في بدايته، والجو لا يزال باردًا. تساءلت عما يرتديه في الصيف.

- حسنًا، سأكون أكثر حذرًا في المستقبل.

قام بإشارة فسَّرتها على أنه يؤدي التحية، لكن بعدها أدركت أنه تظاهر برفع قبعته، على الرغم من أنه لم يكن يرتدي قبعة، لذلك بدا الأمر أحمق بعض الشيء، أو كان يجب أن يبدو كذلك. ثم مد يده ليصافحني، فصافحته، وقال:

- شكرًا لك، يا لافداي. اسمي ناثان أفبوري.

كان معصماه نحيفين ومستقيمين.

قلت:

- بسيطة.

ولهذا السبب لا أحب التحدث مع الناس، لأنني لا أستطيع التفكير أبدًا في أي شيء مثير للاهتمام لأقوله. أحتاج إلى وقت للعثور على الكلمات، وأجد صعوبة في ذلك عندما ينظر الناس إليَّ. إلى جانب ذلك، فأنا لا أحب الناس كثيرًا. حسنًا، بعضهم لا بأس به، لكن ليس بما يكفي لعدِّ الأمر حقيقة مسلَّمًا بها.

استدار بعيدًا، وأدركت أن هناك شيئًا في يدي: شوكولاتة على شكل عملة معدنية مغلَّفة بورق ذهبي، ذكَّرتني بصباحات عيد الميلاد السعيدة منذ زمن طويل. لو كان ينظر إليَّ في تلك اللحظة منتظرًا رد فعلي لأعددته متباهيًا أحمق. لكن رنين الجرس فوق الباب أعلن رحيله بالفعل، وعندما رفعت نظري، لم يكن هناك أي أثر له بالخارج.

قال آرتشي:

- حسنًا، ناثان أفبوري.

سألته:

- هل تعرفه؟

ليس هناك كثير من الأشخاص الذين لا يعرفهم آرتشي في هذه المنطقة من يورك. وهو صديق لأصحاب الحانات، على الرغم من أنهم بدأوا يتغيرون خلال السنوات القليلة الماضية، بعد أن أصبحت الحانات أشبه بالمطاعم، ويديرها محبُّو الطعام، لا محبو الشراب. وهو حريص على التسوق في جميع الأماكن القريبة، وشراء الوسائد واللوحات الفنية التي تحتوي على مناظر للشاطئ، والشوكولاتة المصنوعة يدويًّا، والكثير والكثير من الجبن. دائمًا ما يتحدث معه طبيبه عن الكوليسترول وفقدان الوزن، لكن آرتشي يقول إن الانسجام مع الناس أهم بكثير من القدرة على رؤية قدميه.

قال آرتشي:

- أعرفه من خلال سمعته فحسب. منذ فترة كان شابًّا واعدًا.

كنت أعلم أنه ينتظر أن أسأله عن التفاصيل، لذلك لم أفعل. عدت إلى الكرسي ذي الذراعين وأكلت بقية الموزة، وعندما عدت إلى المكتبة أزلت لافتة «عُثر على». ثم عاودت العمل مجددًا على الصندوق المليء بالسِّير الذاتية للموسيقيين.

لم أجد أي كنوز أخرى بين الصفحات، أو زهورًا مجففة، ولا بطاقات بريدية استُخدمت كمؤشر للكتب، ولا أسماء مكتوبة على الصفحة الأولى تثير تساؤلي. كان المفضَّل لديَّ على الإطلاق نسخة من رواية «مانسفيلد بارك»،

طبعة عام ١٩١٢، كُتب على غلافها الأمامي من الداخل «إيديث ديلاني، ١٩٤٣» بخط طفولي متأنٍّ، بحروف متشابكة. ثم شُطب اسم «ديلاني»، وكُتب تحته «بيشوب». لكن بعد ذلك شُطب اسم «بيشوب»، وكُتب تحته اسم آخر أطول، اسم مركب، شُطب بشدة إلى درجة أنه صار من المستحيل قراءته. أفضل ما يمكنني تخمينه هو «برومبتون سميث». ثم كُتب تحت ذلك اسم «همفري». وكل ذلك بخط اليد نفسه، لكن كان من الواضح أنها تتقدم في السن. أحتفظ بالكتاب في المنزل. فبالإضافة إلى راتبي، أحصل على بعض الكتب، وكان هذا من أوائل الكتب التي أخذتها. أنظر إليه وأفكر: حسنًا، يا إيديث ديلاني بيشوب برومبتون سميث همفري، أتمنى أن تكوني قد تزوجتهم جميعًا لأنك أحببتهم، حتى لو تبيَّن أن برومبتون سميث وغد، على ما يبدو. من الجيد أنك لا تتقبَّلين الهراء من أي شخص.

* * *

مساء الأربعاء هو الموعد الذي يلعب فيه آرتشي البريدج، لذا رحل مبكرًا، ارتدى معطفه من ماركة كرومبي، ذا الياقة المخملية باللون الأخضر الطحلبي، وصاح بينما كان يغادر:

- وداعًا، يا لافداي!

بقيت حتى وقت متأخر نوعًا ما وأنا أتفحص محتويات الصندوق، ونحيت جانبًا الكتب التي ظننت أنها جديرة باهتمام آرتشي. ودائمًا ما أغلق الباب على نفسي بعد الساعة الخامسة، لأن روب يفضِّل المجيء في وقت متأخر من بعد الظهيرة كي يحاول إقناعي بالخروج معه مرة ثانية، لأننا بدأنا علاقتنا على نحو سيئ. ولا يعني هذا أنه سيحاول فعل أي شيء مؤذٍ - فهو لن يجرؤ على ذلك - لكنني لا أريد التعامل معه. حسنًا، لا أريد التعامل مع الرجال بشكل عام، لذا إذا لم أحصل على أي من الإثارة المزعومة، فمن المؤكد أنني في غنى عن العدوانية.

في الساعة الخامسة والربع، طرق شخص ما الباب، وكان روب هناك بوجهه المبتسم، يشير بإيماءة معناها «اسمحي لي بالدخول». هززت رأسي وأشرت إلى

اللافتة التي كُتب عليها «مغلق»، وواصلت ما كنت أفعله. طرقَ عدة مرات، لكنني تجاهلته. ثم سمعت نوعًا من الخشخشة والقعقعة، وأدركت أنه يحاول دفع وردة عبر صندوق البريد. إنها إحدى حيله المعتادة. كما أنه يحضر لي الشوكولاتة ويعطيها لآرتشي لأنه يعلم أنني لن أقبلها منه. لكنني لا آكلها، بل أضعها على الطاولة الكبيرة مع لافتة كُتب عليها «اخدم نفسك بنفسك»، وتختفي في أقل من ساعة. أود الاعتقاد أن روب سيقرأ اللافتة بعدِّها نصيحة له: «رجاء، اخدم نفسك واحصل على المساعدة»، لكن إذا أتى والشوكولاتة موضوعة على الطاولة، فهو يبدو غاضبًا فحسب.

ظل روب واقفًا هناك بعض الوقت، منتظرًا أن أذهب وأحضر الوردة، لكنني لم أفعل، لذا غادر وهو يهز مقبض الباب بعنف للمرة الأخيرة في أثناء رحيله. التقطت الساق والبتلات المسحوقة من فوق المكتب لآخذها إلى سلة المهملات، عندما اهتز صندوق البريد مرة أخرى فجفلت. استدرت ورأيت ظهر معطف جلدي يتطاير طرفه مبتعدًا، وكان هناك منشور عالق في صندوق البريد.

أمسية شعرية في حانة جورج والتنين
الأربعاء من الساعة الثامنة مساء. رسم الدخول ثلاثة جنيهات. ميكروفون مفتوح.

كانت تفاصيل رابط الفيسبوك بالأسفل. وضعته على لوحة إعلانات المجتمع، المجاوِرة للوحة إعلاناتي عن الأشياء التي عثرنا عليها داخل الكتب، ثم أغلقت المكتبة ورحلت. مررت بحانة جورج والتنين في طريقي إلى المنزل، حيث تقع على الناصية قبل بداية المسار المخصص للدراجات.

لم أدخل.

تساءلت عمَّا إذا كان الجزء الخلفي المتطاير من ذلك المعطف الجلدي هو آخر ما سأراه من ناثان أفبوري. لكن لا، لقد عاد في الأسبوع التالي.

* * *

قال:

- مرحبًا، يا لافداي.

التفتُّ وأومأت برأسي، ثم عدت إلى ما كنت أفعله. لا أتقاضى أجرًا مقابل التسكع مع أي شاعر يتصادف مروره بالمكتبة، هذه هي مهمة آرتشي.

كنت أرتب قسم كتب الخيال العلمي - فهو لا يظل مرتبًا أبدًا لمدة أطول من نصف يوم - بينما أولي ظهري إلى الباب عندما دخل. وعلى الرغم من أنني سمعت آرتشي يرحب بشخص ما، فإنني لم أكلف نفسي عناء النظر لأرى من يكون، حيث إن آرتشي يرحب بمعظم الناس كما لو كانوا من كبار الشخصيات الأجنبية الزائرة، أو العشاق، أو كشخص عاد مؤخرًا من عداد الأموات.

لم يتحرك ناثان، وكان لا يزال هناك عندما وصلت إلى وايلدر وويندال وزيندل. وقفت، وكان هو يتفحص الرفوف بخمول، كأنه يقتل الوقت في انتظار شيء ما. بائعة الكتب، على سبيل المثال.

كان حذاؤه لا يزال مربوطًا بشكل مختلف: أحدهما برباط متقاطع من الأمام، بينما الآخر مربوط على نحو مستقيم. تساءلت عمَّا إذا كان قد لاحظ ذلك، أو إذا كان يهتم. ولاحظني وأنا أنظر إليه.

قال:

- إنها إحدى خدع الساحر. إذا لاحظ الناس رباط الحذاء، فهو يشتت انتباههم. وعلاوة على ذلك، أعرف أنهم من النوع قوي الملاحظة، وأن عليَّ التزام الحذر.

أومأت برأسي، حيث بدا ذلك منطقيًّا. وأعجبني أكثر من كونه بدافع من الإهمال أو التكلف، إذا كنت أهتم بالأمر، لكنني لم أفعل.

سألته:

- ساحر؟

ثم تذكرت، وتابعت قائلة:

- الشوكولاتة التي على شكل عملة معدنية.

قال:

- أمارس ألعاب السحر عن قرب، فهذا هو عملي اليومي تقريبًا، الذي يستغرق كثيرًا من الأمسيات: حفلات الأطفال في فترة ما بعد الظهيرة، والمناسبات التي تقيمها الشركات مساء. فالشعر لا يكفي لدفع الإيجار في الواقع.

ضحكت، من دون أن أكون متأكدة من السبب في ذلك. أعتقد أنني استمتعت بفكرة أن يكون أحدهم ساحرًا كوظيفة يومية. فمعظم الأشخاص الذين يعملون في وظيفة يومية يعملون في متجر أو مركز اتصال، أو يقدمون الشاي بالحليب للسياح وهم يعتمرون القبعات، على الأقل هنا.

قال:

- فكرت في القدوم لإلقاء نظرة على قسم الشعر.

قلت:

- سأريك إياه.

المكتبة ليست ضخمة، لكن ممراتها متعرجة، ومن الأسهل مرافقة العميل بدلًا من شرح مكان العثور على الأشياء. تحتل كتب الشعر الجدار الخلفي، مع المسرحيات والخرائط القديمة. وآرتشي ليس من هواة الشعر والمسرحيات، ويقول إنه لا ينبغي تدوينهما، ولهذا السبب وضعهما في أحلك زاوية يمكنه العثور عليها. تغطي الأرفف جميع الجدران على نحو فوضوي، حيث تقع على ارتفاعات وأعماق مختلفة، في أماكن مختلفة. وتحتل الروايات جميع الجدران حول المكتبة، وفي المنتصف بعض خزائن الكتب القائمة بذاتها وظهورها ملاصقة لبعضها وهي متراصة على شكل زوايا قائمة حول طاولة مركزية. وجميعها مختلفة عن بعضها، لكن القاسم المشترك بينها هو أنها جميعًا من الخشب الصلب القديم الذي يتحمل عبء رفع ثقل كل الكتب غير الخيالية بجميع أشكالها الرائعة، على الرغم من أنني أفضِّل الروايات في أي وقت.

قدتُ ناثان إلى الجدار الخلفي، وأصدر حذاؤه صريرًا ورائي، وفجأة صرت واعية بعمودي الفقري ومؤخرتي، والجزء الخلفي من عنقي حيث ربطت شعري

بشريط مطاطي لإبعاده عن وجهي. وقفت بشكل أكثر استقامة، واستدرت عندما وصلنا إلى هناك.

قلت:

- الشعر.

ابتسم ناثان قائلًا:

- شكرًا لك.

بدا أنه يبتسم كثيرًا.

قلت:

- كل هذا جزء من عملي.

ثم ظهرت ميلودي. عندما نكون غارقين في العمل، يدفع لها آرتشي كي تأتي لمساعدتنا في ترتيب الكتب على الرفوف، وهي تؤدي المهمة على نحو جيد، لكنها تستمر في الثرثرة طوال الوقت كطائر حسون حبيس، مما يدفعني إلى الجنون. وعندما لا تكون منشغلة بعملها الأساسي، وهو إرشاد السياح في جولات المشي، فهي تتعامل مع المكتبة كما لو أنها غرفة معيشتها، وتجلس إلى الطاولة مع القهوة، وتجري مكالمات هاتفية لا يسعك إلا أن تسمعها، وتستخدم الواي فاي. لا يمكنك أبدًا أن تدفع لي ما يكفي كي تصطحبني ميلودي في جولة في أرجاء يورك وهي تثرثر في وجهي، لكنني أعتقد أنها تؤدي عملها جيدًا على الأرجح. ولها عينان كبيرتان، وفم واسع، وهي ضئيلة ومفعمة بالحيوية كالقطة. أعتقد أن والدتها ماليزية، على الرغم من أنه ليست لديَّ أي فكرة لماذا أتذكر هذا. وعندما تكون في المكتبة، تظل تحادث نفسها باستمرار، وهو ما أحاول التخلص منه من خلال التركيز على ثرثرتي العقلية، لكن لا بد أن تتسرب إليَّ بعض الأشياء. وهي لا تتراجع عن التقدم للحديث، كما اعتاد والدي أن يقول.

سألته ميلودي:

- هل تعرض عليك لافداي قسم الشعر؟

قال ناثان:

- هذا صحيح.

قالت ميلودي:

- إنه مرتَّب أبجديًّا. فعلتُ ذلك الأسبوع الماضي. أحب أن يبقى شعرائي منظمين.

كانت تتحدث بلهجة تشبه القراصنة، أعتقد أنها لا بد أن تكون قد استمدتها من أحد الأفلام، لأنني متأكدة أنها نشأت في بيكرينج.

قال ناثان:

- عُلِم. لن أفسد النظام.

- مرحبًا.

مدت إليه يدها الصغيرة، وكفها متجهة إلى الأسفل، كما لو ظنت أن عليه تقبيلها.

صافحها مبتسمًا، وقال:

- أنا ناثان أفبوري.

كررت ميلودي:

- ناثان أفبوري، سررت بلقائك. أنا ميلودي، كما في الموسيقى.

رفعت قطعة الشوكولاتة إلى أعلى في اتجاه الضوء، وأدارتها ببطء ولامبالاة، كما لو أن ظهورها في راحة يدها كان بالضبط ما توقعته.

قلت:

- ميلودي تعمل هنا أحيانًا، عندما نكون مشغولين.

أضافت ميلودي:

- لافداي تعمل هنا طوال الوقت، كل يوم. هذا هو عالمها. أما أنا، فأذهب وآتي كما يحلو لي.

استدارت بعيدًا وفي عينيها نظرة كالقطة، ووجدت نفسي أنظر إلى ناثان لأرى رد فعله حيال كل ذلك. راقبها وهي تبتعد - كانت ترتدي سروالًا قصيرًا

من قماش الجينز فوق جوارب طويلة سوداء، وحذاء رياضيًّا وسترة مخططة – ثم نظر إليَّ وابتسم.

قال:

– إنه عالم رائع لقضاء كل يوم فيه.

كانت زرقة عينيه من ذلك النوع الذي تجده على أغلفة كتب المساعدة الذاتية، لتوحي بالصفاء والهدوء.

قلت:

– أجل.

أعجبني أنه لم ينتقد ميلودي. لا أحبها، لكني لا أحب الأشخاص القساة أيضًا، خاصة فيما يتعلق بمثل هذه الأهداف السهلة. كالنساء الموشومات ذوات الحلق في الأنف، على سبيل المثال. ومع ذلك، عندما أستقل الحافلة، غالبًا ما أفوز بمقعد.

نظرنا إلى بعضنا لمدة دقيقة، وتمنيت لو كنت مثل آرتشي، الذي يمكنه بدء محادثة مع أي شخص حول أي شيء. نصف الأشخاص الذين يأتون إلى المكتبة هم أشخاص التقى بهم في افتتاح معرض فني، أو في أثناء شراء النقانق من سوق المزارعين. إنه يشعر بالارتياح فحسب، في حين أنني لست كذلك. حسنًا، ليس مع الأشخاص الذين لا أعرفهم. يستغرق مني الأمر بعض الوقت حتى أشعر بالارتياح معهم، وخلال الوقت الذي أستغرقه للشعور بالارتياح، لا أتحدث كثيرًا، وما أتفوَّه به بالفعل ممل للغاية. يقول آرتشي إنني أُبقي كل ما هو مثير للاهتمام بشأني مخفيًّا على نحو جيد، وإن التعرف عليَّ بمنزلة تدريب على الإيمان الذي يلقى مكافأته في نهاية المطاف. أعتقد أنه يظن أن هذا لطف منه.

لم أستطع التفكير في أي شيء آخر لأتفوَّه به، فقلت:

– سأتركك لتتابع شؤونك.

قال ناثان:

– رائع.

وصل صندوق آخر، كان مليئًا بروايات عادية متوسطة السعر ذات غلاف ورقي من التسعينيات من سلسلة كلاسيكيات بينجوين ذات الأغلفة السوداء التي تزينها من الأمام لوحات من معرض لندن الوطني، ولم تُمس تقريبًا. لم يكن بها شيء مميز، أو على الأقل لا شيء لافت للنظر: إليوت، وترولوب، وديكنز.

لدينا في الجزء الخلفي من المكتبة ما يسميه آرتشي «بار الإفطار»، وهو في الأساس عبارة عن رف عميق مثبَّت في منتصف الجدار، ومقعد مرتفع للجلوس عليه عند العمل هناك. ويوجد كوبان قديمان ممتلئان بالأقلام وقصاصات الورق لتدوين الملاحظات. هذا هو المكان الذي نجلس فيه لجَرْد الكتب الواردة. أقول «نجلس»، لكن آرتشي ليس من أشد المعجبين بهذا الجزء من العمل. يمكننا (يمكنني) العمل ومراقبة المكتبة، حيث توجد مرآة محدبة مثبتة في الأعلى حتى نتمكن من رؤية الداخل والخارج، إذا كان هناك واحد منا فقط هنا. يدعني آرتشي أقوم بالغربلة الأولية، وإلقاء نظرة على أي شيء مثير للاهتمام يأتي إلينا. كنت في الثامنة عشرة من عمري، وعملت هنا ثلاث سنوات قبل أن يسمح لي بالقيام بذلك وحدي. قال آرتشي يومها:

- هيا يا لافداي، عُدِّي نفسك مؤهلة للقيام بذلك.

أسعدني ذلك أكثر من نتيجة اختباراتي في المرحلة الثانوية، وأكثر من التصفيق في نهاية المسرحية المدرسية التي شاركت فيها عندما كنت طفلة. لم أعُد إلى شقتي مباشرة في تلك الليلة، بل ذهبت إلى النهر وجلست على ضفته وفكرت: «لافداي، ربما تصبح الأمور على ما يرام».

عندما بدأت أخرج كلاسيكيات بينجوين من الصندوق، شعرت ببعض الغرابة. بدا الأمر كأنني أنظر إلى نفسي من خارج جسدي، كما لو أن شيئًا مهمًّا يحدث. كان الأمر مشابهًا للشعور الذي انتابني عندما تفحصت ما يضمُّه الغلاف الورقي الخارجي لكتاب ذي غلاف صلب من الثلاثينيات تسلمناه مؤخرًا وبدا مظهره عاديًّا، واكتشفت أنه كان في الواقع نسخة من رواية «عشيق الليدي تشاترلي»، مموَّهة لتمريرها من الجمارك. كانت مثل هذه النسخ نادرة للغاية، لأنه بمجرد

دخولها إلى البلاد كان يتم التخلص من الأغلفة الورقية الخارجية الزائفة. كنت أعلم أن قيمتها تبلغ مئات الجنيهات، وفي الوقت نفسه لم أصدق أنها بين يدَي. لكن لم يكن هناك أي شيء مميز في هذا الصندوق بالنسبة إلى هواة جمع الكتب، لذا فإن الشعور الذي منحني إياه الأمر، كما لو أنني أنظر إلى البحر من فوق جرف، لم يكن في محله.

ثم أدركت ما الأمر. كانت جميعها كتبًا امتلكتها والدتي. كل واحد منها. كانت والدتي تعرف أهمية الكتب، وأعجبها أنني أحب القراءة، وشجعتني على ذلك. كانت لديها مجموعة صغيرة من أرفف الكتب في غرفة المعيشة أسفل الدرج، حيث كنا نعيش في منزل صغير جديد على مشارف ويتبي، الذي ربما بدا كبيرًا جدًّا قبل وصول الأثاث، لكنه كان صغيرًا للغاية حتى بالنسبة إليَّ عندما كنت طفلة. وكان الرف العلوي مخصصًا لكلاسيكيات بينجوين ذات الغلاف الأسود، بينما احتوى الرف الأوسط على كتب لم أرغب في الاحتفاظ بها في غرفتي - كتب عن المِهار، والجنيات، والكتب المصورة التي لم أرغب في التخلص منها، على الرغم من أنني اعتقدت أنني أكبر من أن أقرأها - أما الرف السفلي فكان مخصصًا لمجلات الألغاز ونسخ من المجلات النسائية التي كانت صديقة والدتي، أماندا، تعطيها إياها، على الرغم من أنني لا أعرف ما إذا كانت تقرأها أم لا. وفوق الجزء العلوي من وحدة الأرفف، كانت هناك صور في إطارات، كل منها تتضمن شخصين: أنا ووالدتي، أنا ووالدي، والدتي ووالدي، لأن والدي كان يهتم للغاية بشأن كاميرته، لذا كنا نلتقط الصور في وجوده فقط، وعند وجوده كان يريدنا أن نقضي الوقت معًا، ثلاثتنا فحسب، ولا أحد غيرنا، حتى نستمتع بالأمور إلى أقصى حدٍّ. كان يهتم بنا نحن أيضًا. أم هل كنا مهمين بالنسبة إليه؟ يا إلهي، أنا لا أحب الكثير، لكنني أحب الكلمات. بدونا جميعًا سعداء في الصور، على ما أعتقد. وبعد أن انكسرت الإطارات، لم يعد هناك أي شيء فوق وحدة الرفوف.

كما قلت، لم تكن تلك الكتب مميزة، وكان يمكنك الحصول عليها من أي

مكتبة في أي مكان. لكن حقيقة أنها الكتب نفسها التي كانت لدينا في المنزل جعلتني أشعر... حسنًا، جعلتني أشعر بشيء ما. وخز في إبهامَي.

أخذت كلاسيكيات بينجوين وصفَّفتها وكعبها مواجه إلى الخارج، قبالة الحائط بالجزء الخلفي من الرف الموجود عند بار الإفطار. أردت أن أرى كيف تبدو. هل يمكن أن تكون حقًّا هي الكتب نفسها التي أتذكرها، أم هل كنت أحاول اختلاق شيء لا وجود له؟

لم أكن متأكدة في البداية.

ثم تذكرت أن والدتي كانت ترتب الكتب أبجديًّا حسب الكلمة الأولى من العنوان. وقد تساءلت أحيانًا عمَّا إذا كان ينبغي لنا اتباع ذلك هنا. يتذكر معظم الناس العناوين أكثر من المؤلفين، لذلك قد يكون الأمر منطقيًّا. في المنزل، أرتبها وفقًا لما هو «مقروء» و«غير مقروء» فحسب، وأنقلها من رف إلى آخر. ما أقوله لنفسي هو: لماذا أضيع وقت القراءة الثمين في تصنيف الكتب؟

لكن كتب والدتي بدأت بـ«آنا كارنينا»، وانتهت بـ«مرتفعات ويذرينج». قالت إن كتبها تبدو أكثر ترتيبًا بهذه الطريقة. كما اعتادت أيضًا تنظيم الملابس حسب اللون، وهو أمر رائع إذا كنت تريد أن تتطابق سترتك وجواربك، لكنه لن يكون مفيدًا إذا أردت العثور على قطعة واحدة من كل شيء. اعتاد والدي مشاكستها بخصوص ذلك، وكان يقول:

- كيف تصفين والدتك يا لافداي؟

وكنت أعرف أن تلك إشارة إليَّ كي أدير عينَي في محجريهما.

عندما أعدت ترتيب الكتب حسب العناوين شعرت بالدوار، كما لو أنني اقتربت كثيرًا من حافة جرف، وبدأ التراب ينزلق تحت باطن قدمي. هذا لأنها بدت تشبهها، كما لو أنها يمكن أن تكون الكتب الفعلية الموجودة على رف الكتب في منزلنا.

كان في إمكاني أن أشم رائحة ذلك المنزل الأول: ملح البحر، والتربة الرطبة لأصص نباتات والدتي التي لا نهاية لها (التي ماتت باستمرار، حيث لم تتعلم

رعايتها قَطُّ). كان منزلًا مستأجرًا، وكانت والدتي تقول إنه عندما يصير لدينا منزل خاص بنا حقًّا، فإنها ستطلي كل شيء باللون الأخضر. فكان والدي يقول:

- هناك جانب إيجابي للعيش على هذا النحو إذن.

أحيانًا كان يقولها بطريقة مضحكة، وأحيانًا أخرى كان يقولها بطريقة تجعل والدتي تمد يدها لتلمس ذراعه أو وجنته وهي تقول:

- أوه، يا باتريك.

كان هناك ستة وعشرون كتابًا على الرف أمامي. أحصيتها، ثم أعدت إحصاءها مجددًا، مثل رجل يحمل جهاز كشف المعادن ولا يصدق أنه يرى العملات المعدنية في راحة يده.

ستة وعشرون كتابًا. تلك التي اشترتها أمي، كتابًا واحدًا كل أسبوعين، طوال عام بأكمله، بدءًا بقرار مشرق مع حلول العام الجديد، وانتهاء بليلة رأس السنة الباردة، في العام الذي بلغتُ فيه الثامنة من عمري.

اعتدنا الذهاب إلى المكتبة القريبة من الجسر وسط ويتبي، جمعة بعد أخرى عقب انتهاء اليوم الدراسي. كان متجرًا صغيرًا، ضيقًا، به رف أو رفَّان فقط لكل شيء، لكن السيدة التي تديره كانت تبتسم دائمًا وتقول إن في إمكانها طلب أي شيء نريده. كان مكانًا يتسم بالدفء، وكان في إمكاني اختيار كتاب لي، بينما تُجري والدتي محادثة طويلة مع صاحبة المكتبة حول ما ستضيفه إلى مجموعتها. لا أعتقد أبدًا أنها أخبرتها بأنها لم تقرأ الكتب، لكن من جهة أخرى، أعرف أنها لم تكن تكذب. أنا متأكدة أنها كانت تنوي قراءتها، لكنها لم تفعل ذلك فحسب. وبعد عام، توقفت عن شرائها. كان هدفها للعام التالي هو تعلم الرقص، لكنها لم تفعل ذلك أيضًا. عثرت على فصل لتعلم الرقص، لكن والدي لم تعجبه فكرة رقصها مع أشخاص آخرين.

سيخبرك أي شخص عمل في مكتبة فترة أطول من عصر يوم واحد أن الناس يشترون الكتب لأسباب مختلفة. هناك بالطبع الحب البسيط للكتب: أن تدرك أنها توفر ملاذًا، وفرصة للتعلم، ومكانًا حيث يمكن لعقلك وروحك أن يلعبا

ويستمتعا. كما أن هناك التوصيات والبرامج التلفزيونية والرغبة في تحسين الذات والحاجة إلى إثارة الإعجاب أو الأمل في تكوين شخصية أفضل، وكلها أسباب وجيهة، على الرغم من أن أيًّا منها لا يضمن أن الكتاب سيُفتح بالفعل. أعتقد أن والدتي أحبت الأغلفة، وكلمة «كلاسيكيات»، وإمكانية وجود عوالم أخرى.

بالطبع، ليس لديَّ من أتحدث معه عن هذه الأمور. فلن يتذكر أحد رف الكتب، وإذا فعل، فلن يتذكر الكتب التي كانت عليه، أو كيفية ترتيبها.

بينما كنت جالسة هناك في الجزء الخلفي من المكتبة، شعرت أيضًا بأن عالمي يتداخل مع منزل طفولتي الحقيقي الوحيد، وشممت رائحة النباتات الجافة المعطَّرة بالفانيليا، التي كان من المفترض أن تخفي رائحة السجائر، وسمعت والدتي وهي تعمل في المطبخ. كنت أخرج الكتب وأطالع الأغلفة، وأتهجى العناوين. بدت رواية «طاحونة على نهر الفلوس» غريبة، لأنني لم أكن أعلم أن الفلوس اسم نهر. قالت والدتي عندما نظرتْ عبر مدخل الباب ورأتني أقلب الصفحات:

- ما زلت صغيرة بعض الشيء، يا ملاكي.

أتذكر أن الكلمات تزاحمت فوق الصفحات مثل الحلوى داخل جرة.

قال ناثان خلفي:

- لا فداي.

وَثَبت من مكاني. أعني أنني وَثَبت جسديًّا بالفعل، وارتفعت مؤخرتي عن المقعد لجزء من الثانية.

قال:

- معذرة.

قلت:

- لا بأس. أنا فقط... كنت مشغولة.

قال ناثان:

- يمتلك والداي كلاسيكيات بينجوين. هناك المئات منها، أليس كذلك؟

- بلى.

كان يمكنني أن أضيف قائلة: «كانت والدتي تمتلك بعضها»، وكانت الكلمات على طرف لساني تقريبًا، لكنني لا أتحدث عن نفسي. لذا اكتفيت بالجلوس هناك وأنا ألعب دور فتاة إيمو(1) قوطية(2) متقلبة المزاج، كما يدل مظهري.

قال ناثان:

- حسنًا، لقد وجدت هذا.

رفع نسخة من كتاب «صالة الألعاب» لأدريان هنري. كان كعب الكتاب الرفيع مشقَّقًا، وكانت هناك حلقة بُنية اللون خلَّفها فنجان قهوة على الغلاف. تابع قائلًا:

- ليس لديَّ هذا الكتاب، ويجب أن أمتلكه، إلا إذا سقط مني في أثناء نزولي من الحافلة.

ابتسمت له. نعم، ابتسمت بالفعل وقلت:

- يحتوي الكتاب على قصيدة «عند نافذتك».

أي شخص يحب هنري، يحب قصيدته «عند نافذتك». أستطيع الحديث عن محتويات الكتب.

قال:

- رأيت ذلك. إنها قصيدة عبقرية.

قلت:

- هذا المصطلح مفرط الاستخدام.

قال:

- أوافقك بشدة.

كان في وسعه أن يبتسم ويتحدث في الوقت نفسه. تابع قائلًا:

---

(1) الإيمو اختصار لكلمة «emotion»، وظهرت الكلمة للإشارة إلى نمط موسيقي خاص، ثم صارت تُطلق على فئة من الشباب الذين يتسمون بالحساسية العاطفية والاكتئاب والتمرد والانعزال عن المجتمع، علاوة على مظهر مميز من ناحية الملابس والشعر يغلب عليهما اللون الأسود. (المترجمة).

(2) الطراز القوطي الذي يغلب عليه اللون الأسود في الملابس والمكياج وطلاء الأظفار. (المترجمة).

- لكن في هذه الحالة، له ما يبرره.

لم أوافقه الرأي، لكنني لم أقل ذلك. تدور قصيدة «عند نافذتك» عن قطة لا تستطيع أن تفهم لماذا لا يريد أحد فأرًا ميتًا. ذكَّرني ذلك بروب ووروداته.

أدَّى ناثان إيماءة رفع القبعة من دون وجود قبعة، وأشاح مبتعدًا، لكنه التفت مجددًا وقال:

- لقد تركت منشورًا الأسبوع الماضي، عن أمسية شعرية، في أيام الأربعاء بحانة جورج والتنين. إنها الليلة.

قلت:

- وجدته، ووضعته على لوحة الإعلانات عند المدخل، بجانب لوحة الأشياء التي نجدها في الكتب.

أشرت بيدي على نحو مفيد، في حال ما إذا لم يكن يعرف مكان واجهة المكتبة، أو كيف تبدو لوحة الإعلانات. أشعر باليأس من نفسي في بعض الأحيان. أود إلقاء اللوم على الصدمة التي شعرت بها عند رؤية تلك الكتب الستة والعشرين. لكن هذا لا يعني أنني في حاجة إلى عذر لعدم قدرتي على التفاعل مع شخص آخر على نحو معقول.

قال:

- أعرف هذا.

وتوقف عن الابتسام وهو يقول:

- شكرًا، لكنني قصدت ذلك كدعوة إليك.

- إليَّ أنا؟

ظننت للحظة رهيبة أنه يعرف أنني أكتب الشعر، وأنني نقلت له حلمي/ كابوسي: أنا على المسرح، ألقي قصائدي، والأضواء ساطعة تضيء الوجوه، وجهَي والدي ووالدتي، يحتل هو نصف القاعة، وتحتل هي النصف الآخر، ولا أعرف إلى أين أوجِّه نظري...

قال:

- حسنًا، من الواضح أنك تحبين الشعر، حيث إنك تنقذين الكتب التي أسقطها شعراء غير مسؤولين مثلي، لذلك اعتقدت أنك قد تستمتعين بالأمر.

قلت:

- شكرًا لك، لكنني لست اجتماعية بدرجة كبيرة.

وجدت أن هذه هي أفضل طريقة لمنع الأشخاص من أن يطلبوا مني القيام بأشياء، لأنه لا يوجد رد في الواقع كما يحدث عندما تقول إنك مشغول (لن يستغرق الأمر سوى ساعتين فحسب!)، أو إنك مفلس (إنها مجرد خمسة جنيهات فحسب! سأدعوك أنا!)، أو إنك لا تعتقد أن الأمر سيعجبك (لا يمكن أن تكون متأكدًا من ذلك! فلتجرب أولًا!).

هز ناثان كتفيه (أرأيت؟) وقال:

- حسنًا، لكن تعالَي إذا غيرتِ رأيك. لدينا صفحة على الفيسبوك. أرسلي إليَّ رسالة أو أرسلي رسالة نصية وسأحتفظ لك بمقعد.

- أنا لا أستخدم الفيسبوك.

لديَّ بالفعل عدد كافٍ من الأشخاص للتعامل معهم في العالم الحقيقي من دون الحاجة إلى إضافة أشخاص افتراضيين، أو أولئك الذين قد يتذكرونك منذ زمن بعيد.

قال:

- حسنًا، أرسلي رسالة نصية إذن.

لم أُشِر إلى أنه ليس لديَّ رقم هاتفه، وفكرت أن ذلك يشير إلى أنه غير جاد في عرضه.

وعندما التفتُّ نحو صف الكتب مجددًا، رأيت بطاقة بارزة من قمة نسخة «جين آير». كُتب عليها: «ناثان أفبوري: ألعاب السحر عن قرب»، وكانت هناك صورة لقبعة عالية ورقم هاتف. أقسم إنه لم يحرك يديه قَطُّ. كانت إحدى يديه تحمل كتاب أدريان هنري، بينما ظلت الأخرى في جيبه طوال الوقت.

كان هناك ثمانمائة عنوان تقريبًا منشورة ضمن سلسلة كلاسيكيات بينجوين

في العام الذي اشترتها فيه والدتي. لكن باعة الكتب في المكتبات الصغيرة لن يبيعوا سوى المائة عنوان الأكثر شعبية، لذا في الواقع فإن أي شخص اشترى ستة وعشرين كتابًا من كلاسيكيات بينجوين في يوركشاير في التسعينيات لم يكن أمامه سوى خيارات محدودة. لم تبتعد والدتي عن الاختيارات التقليدية - حيث كان هناك اقتباس تلفزيوني واحد على الأقل من كل كتاب على الرف أمامي - لذا فمن المحتمل أن أي شخص يشتري الكتب كان سيمتلك المجموعة نفسها تقريبًا. وهذا على افتراض أني تذكرت جميع العناوين التي امتلكتها بشكل صحيح.

جلست هناك فترة من الوقت، أحدق إلى كعوب الكتب السوداء السليمة، وفي البداية أقنعت نفسي أنه من المستحيل أن تكون هذه كتبها، ثم قررت أنه لا يوجد أي احتمال ألَّا تكون كذلك. ولم يعجبني أيٌّ من الجوابين. وضعت الكتب الستة والعشرين في قسم الكلاسيكيات.

ومن البديهي أنني لم أذهب إلى الأمسية الشعرية.

* * *

في الأسبوع التالي، أغلقت المكتبة في وقت متأخر عن المعتاد لأننا تلقينا عددًا كبيرًا من الطلبات عبر الإنترنت. كان البيع عبر الإنترنت هو فكرتي، مما يعني أنه لا يحق لي في الواقع الشكوى من مدى الإزعاج الذي يسببه الأمر. من المثير إلى حدٍّ ما تغليف كتاب عمره مائتا عام وشحنه إلى الجانب الآخر من العالم لمواصلة رحلته. إلا أنك لا تعرف إلى أين سيذهب، وما إذا كان سيُقرأ بعناية ويحظى بالتقدير، أم سيُوضع في صندوق عرض يمكن التحكم في درجة حرارته ورطوبته كجزء من مجموعة كتب، ويُضاف إلى وثائق التأمين، ثم يعاني من التجاهل. ما فائدة الكتاب الذي لا يُقرأ؟ لن تشتري ثمرة كمثرى ثم تكتفي بالنظر إليها من الخارج إلى الأبد، أليس كذلك؟ ومن المفترض أن الشخص الذي يجد كتابًا ظل يبحث عنه عبر الإنترنت فترة طويلة يؤدي رقصة صغيرة بدافع من السعادة، أو يسدد اللكمات إلى الهواء، أو على الأقل يبتسم كالأحمق. أستطيع رؤية ذلك عندما يأتون إلى المكتبة، إلا أنني لا أحظى بذلك من خلال البريد الإلكتروني.

لكنني لا أتذمر. ليس في الواقع. بل أشعر بالملل فحسب، لأن التغليف وكتابة العناوين أمر... ممل، وليست له علاقة بالكتب. يمكن أيضًا أن يكون ما أغلِّفه عبارة عن شموع أو مجموعات من الأدوات أو ملاعق خشبية. شغَّلت الموسيقى بصوت عالٍ (أنا أحب الموسيقى الشعبية، ماذا في ذلك؟) ووقفت عند بار الإفطار وأنا أغلِّف وألصق حتى صارت هناك كومة من الكتب المغلَّفة. سيأخذها آرتشي إلى مكتب البريد في اليوم التالي. فهو يحب تلك المهمة أكثر مني، ولا شك أنه سيعود وفي أعقابه مزيد من العملاء، من السياح الذين سحرهم في أثناء الانتظار في الصف. كثيرًا ما يرتدي ملابس من قماش التويد، وأشعر في بعض الأحيان أنه وُلد بشاربه هذا. أحيانًا يطلب منه الناس الحصول على توقيعه، ودائمًا ما يقدمه بلطف، ويوقِّع اسمه على نحو زخرفي، وأتساءل عمَّن يعتقد الناس أنه يمكن أن يكون.

كان روب قد وضع وردة أخرى عبر الباب. ولم أكلف نفسي عناء رميها في سلة المهملات، فتركتُ ما تبقى منها على المكتب حيث سقطت، وأغلقت الباب من الخارج، ودرت حول المكتبة من الخلف لأحضر دراجتي. تتشارك المحلات التجارية الستة الموجودة في الشارع في سقيفة، أترك فيها الدراجة مع طاولات المقهى التي توضع على الرصيف صيفًا. وعندما عدت إلى الشارع الرئيسي، كان هناك روب نفسه، متكئًا عند الناصية.

- هل أعجبتك الوردة؟

قلت:

- مرحبًا يا روب.

تلقيتُ دروسًا في الدفاع عن النفس عندما كنت في المرحلة الثانوية، وأحد أهم الأشياء التي تعلمتها هو هذا: تجنَّب وضع نفسك في موقف سيتعين عليك فيه الدفاع عن نفسك. وعلى الرغم من استبعاد هذا الاحتمال في حالة روب، فإنني لم أرغب في أن أزيد الأمر سوءًا.

قبل الحادثة، لم أكن أعتقد أنني سأحتاج إلى القلق بشأن روب - فهو طويل

القامة، لكن بِنيته أشبه ببنية دب لعبة مبلل، وهو مخيف بالقدر نفسه تقريبًا - ومع ذلك، فهناك شيء واحد تعلمته من دون مساعدة مدرِّب الدفاع عن النفس، وهو أنك لا تعرف أبدًا مَن الذي قد يشكل تهديدًا ومن لا يفعل. كنت في شارع مظلم مهجور مع رجل يرى أنه من الطبيعي أن يدفع الوردات غير المرغوب فيها بشكل متكرر عبر صناديق البريد، وذلك في أحد أيامه الطيبة. لم يكن الوضع مثاليًّا. كانت النقطة التالية المهمة هي ألا أثير غضبه. لذلك لن أتحدث عن الوردة.

- هل تريدين الخروج معي لتناول شراب في وقت ما يا لافداي؟

- لا، شكرًا لك يا روب. أنا لست اجتماعية بدرجة كبيرة.

- أعتقد أن علينا المحاولة مرة أخرى.

قلت:

- روب، لا أريد ذلك. أنا آسفة. لقد... لقد قلبت الصفحة بالفعل.

نظرت إليه لحظة.

- هل تواعدين شخصًا آخر؟

لديه عينان جميلتان، لكن بدا عليهما الإرهاق. تمنيت لو أنه يحظى بقسط كافٍ من النوم، وأنه يتناول أدويته. أحب الاعتقاد أني لست وحشًا، ولا أعتقد أنه كذلك أيضًا.

ضحكت من فكرة مواعدتي لشخص آخر، وقلت:

- لا، أنا فقط... أنا بخير بمفردي.

أردت تقليد ذلك التعبير الذي يرسمه آرتشي على وجهه عندما يأتي شخص ما ليبيع شيئًا لا يريد شراءه. فهو يستمع إلى كل الثرثرة ثم يقول «لا، شكرًا»، وإذا كرر البائع المحاولة مرة أخرى، يزم شفتَيه ويهز رأسه قليلًا، فيحزم الناس بضاعتهم ويرحلون. لكن الأمر لم يفلح، لذا بدأت أسير وأنا أدفع دراجتي بيننا، إلا أنه أبدل جانبه وانتقل إلى السير بجانبي.

- من فضلك يا لافداي. أنا رجل لطيف.

سألته:

- كيف حال العمل؟

اعتقدت أنه إذا جعلته يتحدث عن نفسه، فقد أتجنب الجدال. روب هو واحد من أولئك الأشخاص الذين يلجأون إلى الأوساط الأكاديمية لأنها أكثر أمانًا من العالم. أعلم، أعلم، على عكس هؤلاء الأشخاص الذين يقضون وقتهم في مكتبات الكتب المستعمَلة لأنها أكثر أمانًا من العالم.

قال:

- أنا مشغول، فالامتحانات على الأبواب، لكن أعتقد أن طلابي سيبلون بلاء حسنًا. إنهم مجموعة ذكية.

قلت:

- هذا جيد.

وكنت أعني ذلك. روب رجل ذكي، عندما لا يتصرف كالأحمق. وعندما يتحدث عن الأشياء التي يعرفها، مثل عصر النهضة وإيطاليا، فإنه يكون جديرًا بالاستماع إليه.

قال:

- لكنني لا أريد أن أتحدث عن العمل. أريد أن أتحدث عنا.

وضع يده على ظهري، وهو لا يلمسني عادة. شعرت بنفسي أضطرب. كان خط الدفاع التالي هو ركوب دراجتي والابتعاد، لكنني كنت على وشك الوصول إلى جزء مزدحم نوعًا ما من الرصيف، لذا لم أحبذ الفكرة. بدأت أشعر بالرغبة في إخباره برأيي فيه، لكن المواجهة تخيفني. بدأت كفَّاي تتعرقان، وقدماي تحتكان بالأرض كما لو أنهما منشغلتان للغاية بالاستعداد للجري، إلى درجة أنهما نسيتا كيفية المشي على نحو صحيح.

حينها رأيت حانة جورج والتنين. تفقدت ساعتي: الثامنة إلا الربع مساء، يوم الأربعاء.

ربطت دراجتي بالسلسلة عند السياج بالخارج.

قلت:

- سأقابل صديقًا.

قال:

- يمكنني الانضمام إليكما.

قلت:

- لا أعتقد ذلك. طاب مساؤك.

مد ذراعه، كما لو كان سيلمسني مرة أخرى، ويمسك بي، لكنني جفلت مبتعدة واستدرت وصعدت الدرج إلى الحانة من دون أن أنظر خلفي لأرى ما إذا كان يتبعني أم لا.

كان مكانًا عصريًا إلى درجة أنني كدت أخرج وأتحمل سخافة روب، معتقدة أنه سيكون أقل إزعاجًا بعض الشيء. كانت الأرضيات من الألواح الخشبية، والكراسي غير متطابقة، والطلاء باللون الرمادي الداكن، والثريات من الزجاج الأسود المتلألئ، وكانت هناك مرايا ذات إطارات مزخرفة بدرجة زائدة على الحد بلا داعٍ. راودني شعور فظيع بأنهم سيقدمون لي الشراب في جرة مربى.

تذكرت من المنشور أن المسابقة الشعرية كانت في الطابق العلوي. كان هناك درجان حلزونيان معدنيان، أحدهما يؤدي إلى الأعلى والآخر يؤدي إلى الأسفل. بدت غرفة الفعاليات صغيرة إلى حدٍّ ما، وبها بار في الزاوية، وست طاولات وأريكتان مكسوتان بجلد أسود متشقق. كما كانت هناك ثريا واحدة أصغر حجمًا، وعدد أقل من المرايا، كما لو أنهم يقولون: «فلتسمح لنفسك بالاسترخاء، أيها المسافر، فنحن أقل استعدادًا بعض الشيء لإصدار الأحكام هنا في الأعلى، مما كنا عليه في الطابق السفلي».

توجهت إلى البار، ولم أعتقد أن روب تبعني. لو أنه فعل بالطبع، لزاد ذلك الأمور سوءًا، لأنه لن يكون هناك سبب يمنعه من شراء مشروب والانضمام إلى الجمهور. أدركت أن النوافذ تطل على المدخل. أستطيع أن أرى ما إذا كان روب قد رحل. لو أنه فعل، يمكنني الخروج مرة أخرى فحسب...

قال ناثان:

- لافداي، تسرني رؤيتك. ظننت أنك سترسلين إليَّ رسالة نصية إذا قررت المجيء.

- أنا فقط...

بدت فكرة توضيح الموقف أمرًا غير واقعي، كما صارت احتمالية رحيلي حينها، لذا قلت الشيء الوحيد الآخر الذي يدور في ذهني:

- أنت لا ترتدي معطفك.

قال:

- لا، أنا في الداخل.

هل ذكرت من قبل أنني أحب الحمقى المغرورين؟ لا؟ حسنًا، هناك سبب لذلك. كان يرتدي بنطالًا كحلي اللون، وحذاءً مدببًا، وقميصًا مقلمًا و - بحق السماء - ربطة عنق. أنا لست ثرثارة، لكن ربطة العنق تركتني عاجزة عن الكلام. كان في الثلاثين من عمره على الأرجح. تحير عقلي بشدة، لكنني لا أعتقد أنه لاحظ ذلك.

قال:

- اسمحي لي أن أحضر لك شرابًا.

قلت:

- سأحضره لنفسي، شكرًا لك.

لا تخلق شعورًا بالالتزام.

قال ناثان:

- حسنًا، هل تمانعين إذا احتفظت لك بمقعد؟

قلت:

- سيكون ذلك جيدًا.

لم يكن هناك أي علامة على وجود روب بعْدُ، لكن إذا ظهر بالفعل، فلن أرغب في أن أكون جالسة إلى طاولة بمفردي.

في المرة الأولى التي اصطحبني فيها آرتشي لتناول شراب بعد العمل - ربما كنت في السابعة عشرة من عمري - شعرت بالاضطراب، وطلبت شراب شيري جاف لأن هذا هو ما كانت تشربه أنابيل، والدتي البديلة، في عيد الميلاد، ولم أستطع التفكير في أي شيء آخر. عاد آرتشي من البار حاملًا كأسًا بها شيء ذو لون أخضر شاحب، وقال:

- جيمليت.

لم أدرك أنه يقول اسم المشروب، لكني أحببت مذاقه. وفي المرة التالية التي ذهبت فيها إلى المكتبة، أعطاني نسخة من رواية «الوداع الطويل» لريموند تشاندلر، لأن البطل يشرب الجيمليت. قرأت فقط حتى الجزء الذي تُقتل فيه المرأة ويُهشم وجهها تمامًا، لكنني كنت سأحب الكتاب من دون العنف. قد أكون مخطئة، أعلم ذلك. لكن على أي حال، فأنا وفيليب مارلو نشرب الجيمليت، على الرغم من أنه يشرب منها عددًا أكثر مما أشربه بكثير. دائمًا ما يكون لدى الحانات جين وليمون.

التفتُّ وبحثت عن ناثان وروب، ولم يكن هناك أثر لروب بعْدُ. تنفست بعمق أكبر بعض الشيء. جلس ناثان على الطاولة الأقرب إلى «المسرح»، وهو منصة صغيرة أُقيمت أمام المدفأة. رفع يده في إشارة تعني «هنا»، فاتجهت نحوه. وقد تحولت الغرفة على ذلك النحو الذي يحدث عندما لا تكون منتبهًا، حيث انتقلت من كونها نصف خالية إلى ممتلئة حد الانفجار في الوقت الذي يستغرقه شراء مشروب. كان ناثان جالسًا وحده، على الرغم من وجود كأسين فارغتين على طاولته، لذا خمنت أن رفاقه عند البار.

لم يكن ناثان أفبوري يشعر بالخوف. كان واحدًا من هؤلاء الأشخاص الذين يشقُّون طريقهم بسهولة في الحياة. يمكنك رؤية ذلك في عينيه، وفي هدوئه، وطريقة لباسه. (الأسماء الوسطى المحتمَلة لناثان: أوليفر، ستانتون، بارثولوميو). الأشخاص الخائفون لا يدعون الغرباء إلى المسابقات الشعرية. بل يكتبون القصائد في دفاتر الملاحظات التي يحتفظون بها تحت الفراش.

أومأ برأسه بينما جلست بجانبه، وقال وهو ينقر على قطعة الورق التي أمامه، وكانت عبارة عن قائمة ببعض الأسماء:

- عليَّ مراجعة هذا فحسب.

تناولت جرعة من مشروبي، الذي كانت به شفاطة غبية قصيرة للغاية، ونظرت إلى المسرح، حيث كان ذلك أفضل من النظر إلى الناس. فالحشود تصيبني بالتوتر، حتى حشود الشعراء. كان هناك ميكروفون واحد فوق حامل على المسرح.

لم يسبق أن حضرت أمسية شعرية حقيقية من قبل، إذا كانت هذه هي ماهية المناسبة، لكنني قضيت كثيرًا من الوقت على موقع يوتيوب، صديق الحالمين، أشاهد أمثال كيت تيمبيست، وليم سيساي، وجويل تايلور، وأتساءل عمَّا إذا كان من الممكن أن أكون واحدة منهم في عالم موازٍ. أعلم ما تفكر فيه، لكن كان هناك وقت عندما كنت أول من يتطوع في أي شيء له علاقة بالتمثيل ولو من بعيد، وكانت والدتي تمزح بشأن البدء في الادخار لمعهد التمثيل.

بدأت أشعر بالإثارة بعض الشيء.

قال ناثان:

- كنت أقرر ترتيب الظهور. أحاول خلط الأسماء بعض الشيء كي يحصل الجميع على فرصة عادلة.

رفع الورقة، ورأيت أن الأسماء صارت بجانبها أرقام، لكن الشخص الموجود على رأس القائمة كان رقم ثلاثة، والثاني رقم ستة، والثالث رقم أربعة، وكان هناك اثنا عشر اسمًا.

قلت:

- لا يوجد رقم واحد.

وكان ذلك شيئًا رائعًا لأفعله، لأنه لا شيء يعجبني أكثر من أن يأتي أحدهم إلى المكتبة ويحاول إخباري أنه وفقًا للترتيب الأبجدي، يجب أن تأتي الأسماء المسبوقة بـ«ماك» قبل الأسماء المسبوقة بـ«مك». يمكنك أن ترى لماذا ليس لديَّ كثير من الأصدقاء.

قال ناثان:

- أنا أبدأ أولًا، فأنا بمنزلة العرض الافتتاحي، حيث لا يعيره أحد كثيرًا من الانتباه. لذا، بما أنني أنا من يتولى تنظيم الأمر، يبدو هذا عادلًا.

أومأت برأسي، ولم أستطع التفكير في أي شيء لأقوله. ذكَّرني بإلسبيث فيبس، التي كانت والدتي البديلة فترة قصيرة، بينما كنا ننتظر لنرى ما إذا كانت والدتي ستعود إلى المنزل. حسنًا، كنت أنا من ينتظر، بينما كان الآخرون جميعًا يعلمون أن السؤال الحقيقي الوحيد هو: كم ستغيب من الوقت؟ ما حدث في الواقع هو أن موظفي الخدمات الاجتماعية كانوا يحاولون العثور على شخص مستعد جيدًا للتعامل مع نوعية الفتاة التي قرروا بالفعل أنني سأصبحها.

لم يكن من الممكن إثارة غضب إلسبيث قَطُّ. ولم أكن لأحاول ذلك، لأنني كنت منغلقة على نفسي للغاية في تلك المرحلة بدرجة أكبر من أن أتمكن من الشجار مع أي شخص، وأشعر بالحنين لحياتي القديمة بقدر أكبر من أن أهتم بالتفاعل مع تلك الحياة الجديدة التي فُرضت عليَّ. لكن بعض الآخرين، الغاضبين المخيفين، نفثوا فيها كل غضبهم. حاول صبي إشعال النار في الأريكة ذات مرة، فلم تشتعل، لكن تخلَّف بها ثقب أسود محترق. كل ما قالته فحسب هو: «حسنًا، هذا مؤسف، سيتعين علينا جميعًا أن نتناوب على الجلوس على الأرض الآن، لأن المقاعد صارت أقل من أن تكفي الجميع». بدا أن ناثان يتمتع بالنوع نفسه من اللطف، تحت كل اختياله ذاك وملابسه المُشتراة من آخر متجر متبقٍّ في يورك من المتاجر التي تبيع الملابس الرجالية الأنيقة.

لذا حاولت تصحيح الأمر، وسألته:

- كيف يسير الأمر؟

ابتسم ناثان، كما لو أنه يعلم أنني أقدم الاعتذار.

- أي نوع من الشعر مقبول، ويحظى كل شخص بثلاث دقائق، ثم نقوم بالتصويت على قصاصات الورق، ويعود الاثنان الحاصلان على أكبر عدد من الأصوات مرة أخرى بقصيدة مختلفة، ونصوت من خلال التصفيق.

والجائزة هي المال الذي تم تحصيله من تذاكر الدخول، مطروحًا منه إيجار الغرفة. ويبدو المبلغ هذه الليلة...

تلفَّت حوله في أرجاء الغرفة، وهو يحسب عدد الأشخاص الموجودين، وتابع:

- ثلاثين جنيهًا، وهو مبلغ رائع.

قلت:

- هذا ليس سيئًا.

فهذا ثمن كتابين جديدين بغلاف صلب، أو ما يكفي من الكهرباء لمدة شهر في الصيف.

وافقني قائلًا:

- هذا أفضل من الإصابة بوخزة في العين بعصا مدببة.

قلت:

- أجل.

اعتاد والدي قول ذلك. كما كان يتحدث أيضًا عن الحصول على طرف العصا «الملوث بالخراء»، لكن إذا كنت في الغرفة وتمكنت والدتي من لفت انتباهه قبل أن يتفوه بذلك، كان يستبدل كلمة «ملوث بالخراء»، ويقول بدلًا من ذلك طرف العصا «المجزوز». سألته ذات مرة عما يعنيه ذلك، فقال إن ذلك يعني أن الشخص الآخر يفوز دائمًا. قصدت أنني لا أعرف معنى كلمة «مجزوز»، حيث لم تكن هذه الكلمة موجودة في قاموس المدرسة، وكانت الآنسة باكلي تشجعنا دائمًا على البحث عن الكلمات التي لم نفهمها. وبعد سنوات، عندما قرأت دافني دو مورييه، صادفت هذه الكلمة مرة أخرى، وأدركت أنه مصطلح مستخدَم في كورنوال. شعرت بوخز غريب طفيف عندما تذكرت ذلك، من ذلك النوع الذي لا يؤلم بدرجة كبيرة.

بدا من غير المرجح أن يظهر روب الآن، وفكرت في الرحيل، لكن كان معي مشروبي، وعلى أي حال قد أكون غير اجتماعية، لكنني لست وقحة. كانت والدتي تتسم بحسن الخلق، وكذلك أنابيل، الوالدة البديلة لأمد طويل، التي

عشت معها ثماني سنوات تقريبًا. تذكرت أنني لم أدفع، ووضعت ثلاثة جنيهات على الطاولة أمامه.

قال:

- لا بأس، لقد دفعتُ تذكرتك.

قلت:

- أكره الأشياء التي من هذا النوع. لم أطلب منك أن تفعل.

قال:

- دائمًا ما أدفع للناس في المرة الأولى. لا يوجد شيء شخصي في الأمر، يا لافداي.

ابتسم، ثم نهض وصعد إلى المسرح، وصفق بيديه خمس مرات، تفصل بينها مسافات متساوية تمامًا، وأطراف أنامله تلامس بعضها بدقة، فجعل كل من في الغرفة يلتفت.

- اجلسوا من فضلكم، أيها السيدات والسادة والشعراء. باقٍ خمس دقائق.

ثم دار حول الغرفة وتحدث، على ما أعتقد، إلى كل من سيقدم عرضًا. لم يعد أحد إلى الطاولة التي كنت أجلس عليها، لكن شخصًا ما أخذ أحد المقاعد الإضافية حتى يتمكن من الانضمام إلى المجموعة الموجودة على الطاولة المجاورة. كدت أنتهي من تناول مشروبي، وكنت جالسة وظهري إلى الحائط. نظرت في أرجاء الغرفة لأرى من يمكنني التعرف عليه، فرأيت ميلودي في المؤخرة مع بعض الأشخاص الذين اعتقدت أنني أعرفهم من مجموعة العاملين في الإرشاد السياحي: أحيانًا ما يتوقفون خارج المكتبة وهم يثرثرون ببعض المعلومات شبه الواقعية بخصوص عمر المباني.

وبعد خمس دقائق - تأكدت من أنها كانت خمس دقائق بالضبط - عاد ناثان إلى المسرح، وصفق هذه المرة ثلاث تصفيقات حادة.

- سيداتي، سادتي، والشعراء، دعوني أبدأ بتذكيركم بالقواعد...

أدركت أنني لا أشعر بالنفور منه، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إليَّ. فأنا لست

من أولئك الذين يعتقدون أن «الشخص لطيف ما لم يثبت خلاف ذلك»، لأنني أدركت أن التصرف على أساس العكس من ذلك يوفر الوقت بطبيعة الحال.

كما أحببت قصيدته كثيرًا أيضًا، على الرغم من أن طريقة إلقائه اتسمت بالغرور نوعًا ما. غمز بعينيه وأشار للناس كثيرًا، وبدا كأنه مفرط الثقة بالنفس، مما جعلني أشعر بالميل إليه بدرجة أقل مرة أخرى، لذا صار في الأساس عند النقطة المحايدة تمامًا ما بين «تميل إليه لافداي» و«لا تميل إليه لافداي»، لكن ليس الأمر كما لو أنه يهتم بذلك، كما لا أهتم أنا.

لم يكن الأمر برمته كما كنت سأتخيله لو أنني قضيت أي وقت أخطط للمجيء إلى هنا، بدلًا من استغلال المكان كوسيلة للهروب من روب. كان ناثان هو الشخص الأكثر «شاعرية» هناك، من حيث اللباس على الأقل. بدا كل الأشخاص الآخرين عاديين نسبيًّا، باستثناء حقيقة أن الشِّعر أحيانًا ما يجذب الأشخاص الذين لديهم أشياء معقدة ليقولوها.

ألقت امرأة كبيرة في السن قصيدة عن الطيور في حديقتها، وهي واقفة بعينيها مغمضتين، كأنها تقرأ من مؤخرة جفنيها. واعتقدت أن الجمهور صفق بحرارة وحماس يفوق جودة القصيدة، لكن ناثان انحنى وهمس لي بأنها صماء، وأنها تقرأ القصيدة نفسها دائمًا. وكان هناك رجل قدَّم شيئًا أقرب إلى الكوميديا منه إلى الشعر، وأخذ يتواثب من قدم إلى أخرى خلال حديثه. كما كانت هناك فتاة لا تبدو كبيرة في السن بما يكفي للوجود في حانة، ألقت شيئًا غريبًا عن السُّحب، وألقى أحدهم شيئًا عن شراء القهوة جعلني أضحك بصوت عالٍ حقًّا، وكان هناك شخص يتناثر رذاذ لعابه في أثناء حديثه، ويفرقع بأصابعه، ويحتاج إلى تعلم كيفية التحرير. بدا الأمر غريبًا، لأنني لم أشعر بعدم الارتياح قَطُّ، وكان ينبغي أن أشعر بذلك، لأنني لا أحب الوجود وسط مجموعات كبيرة من الناس، ولا أميل إلى الاقتراب من الأشخاص الذين يعبِّرون عن مشاعرهم.

صوتُّ لصالح ناثان. وفي أثناء الاستراحة، بينما كانوا يحصون الأصوات، سألني إذا كان في إمكانه أن يشتري لي مشروبًا، لكنني قلت لا شكرًا لك، ودفعت

ثمنه بنفسي. ثم سألني إذا كنت أريد أن يعرِّفني على بعض الناس، فكررت قائلة مرة أخرى: لا، شكرًا لك، فتركني وشأني. فكرت فيما كنت سأفعله بالمنزل خلال ذلك الوقت: القراءة، والكتابة، والتفكير في الترتيب من دون أن أكلف نفسي عناء ذلك. (آمل ألا تشعر بالشفقة حيالي، لأن ما وصفته للتو هو الأمسية المثالية بالنسبة إليَّ). لم يفز ناثان، لكن بدا أنه لا يمانع. رحلت بعد الإعلان عن الفائز، بينما كان الجميع يتوجهون عائدين إلى البار.

لم يكن هناك أي أثر لروب، لكن أحدهم أفرغ الهواء من إطار دراجتي الأمامي. لذا سرت عائدة إلى المنزل وأنا أدفع دراجتي بدلًا من ركوبها، وكنت أشعر بالبرد والغضب الشديد عندما أويت إلى الفراش. يبدو شهر مارس كأنه فصل الربيع، لكنه ليس كذلك في الحقيقة، ليس بعد غروب الشمس.

لكن كلما فكرت في قصيدة ناثان، بدت لي أكثر براعة.

كتاب

كما ألقاها ناثان أفبوري في حانة جورج والتنين، يورك، مارس ٢٠١٦

أعتقد أحيانًا أنني أود تأليف كتاب عن حياتي، بحيث يمكنني عندما
ألتقي بك - أو بأي شخص جديد - أن أمد يدي به، فتستطيع أنت
قراءته
بدلًا من محاولة قراءتي أنا.
ويمكنك أن تأخذه، وتقرر ما إذا كان الأمر يستحق أن تمنحني وقتك.
يمكنك أن تفكر فيما إذا كنت ستبتسم من دون أن تبطئ مشيك،
في المرة القادمة التي نسير فيها مُقبلَيْن تجاه بعضنا
أو إذا كنت ستعبر الطريق وتتظاهر بعدم رؤيتي، أو ما إذا كنت
ستتوقف وتحيط كتفي بذراعك، وتقودني إلى أقرب حانة لتشتري
لي نصف لتر من البيرة.

لأنك ستعرف بعد قراءة الكتاب أن البيرة هي ما أشربه.
أترى مدى براعة اقتراحي.
لكن في كل مرة أجلس لتدوين الكتاب، أواجه عقبة.
يمكنني أن أروي كثيرًا من القصص.
يمكن أن أكون شاعرًا، أو ساحرًا، أو عالم رياضيات فاشلًا.
يمكن أن أكون سعيدًا، أو مُعذَّب الروح، أو وحيدًا.
يمكنني البدء لحظة ولادتي، أو عند بلوغي الثانية عشرة، أو عقب تخرجي في الجامعة.
وسيكون الكتاب مختلفًا مع كل قصة أختارها.
وسيكون الكتاب صحيحًا، وغير صحيح مع كل قصة منها
ماضينا غير ثابت، تمامًا كمستقبلنا، إذا فكرت في الأمر.
وأنا أحب الحرية التي أمتلكها لرواية قصة مختلفة.

التاريخ

٢٠١٣

أنت لا تعرف بعد

لم يبدُ روب كأنه أكاديمي، بل بدا كأنه السيد روتشستر الشاب، الوسيم بما يكفي لجعل بيرثا تترك عالمها وراءها[١]. في المرة الأولى التي التقينا فيها، كان آرتشي يناديني صائحًا من مقدمة المكتبة - «**لافداااي!**» - بصوت عالٍ بما فيه الكفاية حتى يصل إلى الخلف، بينما في الواقع كنت على بُعْد ياردتين فقط، أحاول إضفاء بعض مظاهر النظام على قسم الملاحم، مما جعلني أشعر كأنني دوروثيا في رواية «ميدل مارش»، لكن من دون الشعور بوجود دافع رباني. ففي كل مرة تعتقد فيها أن تلك المجلدات السميكة المهترئة باتت تحت السيطرة، يصل صندوق آخر مليء بها، غطَّى أغلفتها صور شِباك الصيد والأطفال الصغار الفقراء القذرين الذين يمسك بعضهم بأيدي بعض. ولا يرفضها آرتشي لأنه لا يوجد ما يحبه أكثر من مغازلة عجوز لطيفة محبة للملاحم.

قلت:

- أنا هنا، لا داعي للصياح.

ضحك كلاهما عندما شاهداني: كنت جاثية على ركبتَي، ونظرت إليهما من جانب الجزء السفلي لوحدة الأرفف. بدت ضحكة روب في الواقع ضحكة عابثة

(١) الإشارة هنا إلى رواية الكاتبة الإنجليزية شارلوت برونتي، «جين إير»، وبطلها السيد روتشستر وزوجته بيرثا. (المترجمة).

مشاكسة، دفعتني أنا أيضًا إلى الضحك، لأنها لم تكن نوع الصوت الذي تتوقع أن يصدره رجل بالغ، ولا سيما رجل يبدو مثلما يبدو هو. لم تتماشَ الضحكة مع الذقن ذي اللحية الخفيفة. لم أشعر بالإعجاب به أو أي شيء من ذلك القبيل، لكن كان به شيء مميز بكل تأكيد. ربما هو عيناه البنيتان المتألقتان.

كنت في الثانية والعشرين من عمري، وكنت أعمل في مكتبة الكلمات المفقودة بدوامٍ كامل منذ أربع سنوات. كنا في بداية شهر سبتمبر، والمدينة لا تزال حارة ومزدحمة، لكن المكتبة شكَّلت ملاذًا معتمًا وباردًا. أعتقد أنني حينها بدأت أشعر بالأمان للمرة الأولى منذ فترة طويلة، وربما لهذا السبب تخليت عن حذري.

انشغلت بتزيين شقتي، وقد عرض المالك الدفع مقابل ذلك، فأخذت المال لشراء المواد وقمت بذلك بنفسي، لأنني لم أحبذ فكرة وجود غرباء في منزلي. كان آرتشي هو الشخص الوحيد الذي عبر عتبة منزلي بخلافي أنا، وقد فضَّلت الوضع هكذا. ولا يعني هذا أن الشقة كانت مميزة. كانت عبارة عن مربع في الأساس، حيث يوجد حمَّام صغير في إحدى الزوايا، بينما الباقي مساحة مفتوحة بها مطبخ صغير وأريكة فراش لم أكن أكلف نفسي عناء فتحها دائمًا للنوم عليها. وكانت الشقة مزدحمة بالكتب (أصبحت أكثر ازدحامًا الآن)، بعضها موضوع على خزانة كتب قديمة أعطاني إياها آرتشي، لكن معظمها كان مكدسًا قبالة الحائط. قد يبدو الأمر فوضويًّا، لكنني أعرف مكان كل شيء. لديَّ مصباح رائع حقًّا للقراءة، وطاولة صغيرة معها كرسيان نادرًا ما أستخدمهما، لكن كانت هناك نبتة من الفيكس فوق الطاولة. اشتريتها في نوبة من الحنين عندما انتقلت إلى السكن هنا، لأن والدتي كانت تحبها، وتوقعت عن قناعة تامة أنها سوف تموت في غضون أسابيع، لكن لا، لقد صمدت.

طوال الأسبوعين السابقين لظهور روب الأول، انشغلت بالصنفرة والدهانات. وأصبحت الجدران باللون الأزرق المخضر كالزجاج البحري، بينما الخشب باللون الأبيض الناصع.

انتقلت للعيش في الشقة منذ بدأت العمل بدوام كامل. عقب انتهائي من الدراسة بالمرحلة الثانوية، جاهدت للخروج من نظام الرعاية، على الرغم من

أنهم يحاولون إبقاءك حتى تبلغ الخامسة والعشرين من العمر، إذا استطاعوا ذلك. لكنني نلت كفايتي، وصرت بالغة. وقد ادَّعى آرتشي أنه كان يدفع لي أقل مما ينبغي عندما كنت أعمل بدوام جزئي خلال السنوات الثلاث الماضية، وأعطاني مبلغًا من المال دفعة واحدة. لست متأكدة ما إذا صدَّقت ادعاءه ذاك، لكن لطالما كنت متسولة، أفتقد حرية الاختيار منذ كنت في العاشرة من العمر، وعندما عثرت على الشقة سدد ذلك المال ثمن التأمين وإيجار الشهر الأول. وقد ادخرت معظم راتبي وجميع البدلات التي حرصت أنابيل على منحها لي، كما أعطتني السُّلطة المحلية ألفين وخمسمائة جنيه إسترليني أيضًا. لذلك تمكنت من شراء أريكة سرير، ومناشف، ومقالٍ، وتلفزيون، ومكنسة كهربائية مستعملة، ودراجة مستعملة أيضًا، ولا تزال لديَّ أموال في البنك.

كنت سعيدة في الشقة، وكان العمل في مكتبة، على ما أعتقد، هو وظيفة أحلامي، بعد أن ظنت بقية الأحلام أنها تنتظر عبثًا فذهبت للبحث عن شخص آخر يمكنه تحقيقها. اختار روب الوقت المناسب ليدخل حياتي، إذ كنت مستعدة لشيء جديد.

نهضت واقفة على قدمَي، وقلت:

- مرحبًا.

قال:

- أنا روب.

قلت:

- لافداي.

واستعددت للبدء في شرح اسمي.

- آه، اسم جميل من كورنوال.

قلت:

- نعم.

وفكرت أن هذه مفاجأة، حيث إن رد الفعل المعتاد هو نظرة متسائلة أو المزاح

بشأن كون والدَي من الهيبيز، وهو أمر بعيد كل البعد عن الحقيقة، إلى درجة أنه سيكون مضحكًا لو كان الأمر كذلك. ومع ذلك، فإن الاسم غير المألوف مفيد لأنه يمنع الأشخاص من طرح أسئلة أخرى عنك.

- كيف يمكنني مساعدتك؟

ابتسم روب، وعلى وجهه تعبير ينم عن الاعتذار لأن الأمر قد يستغرق بعض الوقت، وقال:

- لقد بدأت العمل في إعداد الدكتوراه، وتعقبت الأبحاث الأكاديمية بشكل أو بآخر تقريبًا، كما أن مكتبات الجامعة جيدة، لكنني لا أمانع في محاولة العثور على نسخي الخاصة من بعض الكتب الأخرى. وأنا أحتاج بالفعل إلى بعض الكتب التي هي أكثر...

ظننت أنه يحاول التزام اللباقة، وسألته:

- أكثر انتماء للتيار السائد؟

أطلق تلك القهقهة المضحكة مرة أخرى، وقال:

- أتمنى ذلك، بل كنت سأقول أكثر... تخصصًا.

عندما يستخدم الناس كلمة «متخصصة»، عادة ما تكون هذه هي طريقتهم لطلب كتب الإثارة الجنسية، فتخيلت نفسي وأنا أقضي أشهرًا في محاولة العثور على كتاب إباحي أو آخر من العصر الفيكتوري، وأعتقد أنني تنهدت بصوت مسموع.

قال:

- أنا أبحث في الهندسة في عصر النهضة.

قلت:

- آه، حسنًا.

وكان على طرف لساني سؤال: «هل هذا موضوع حقيقي بالفعل؟»، لكن خطر لي أنه لا بد أن يكون روب قد سمع تلك النكتة بقدر ما سمعت النكتة عن الآباء الذين هم من الهيبيز، لذلك لم أسأله. بدلًا من ذلك، قلت:

- هذا مثير للاهتمام.

بدت عيناه أكثر إشراقًا، وقال:

- إنه كذلك بالفعل، فالرياضيات مشوقة للغاية، وكذلك السياق السياسي. إنه...

توقف عن الحديث، ثم قال:

- معذرة.

قلت:

- لا، لا، لا تعتذر. هل تعرف ما الذي تبحث عنه؟

قال:

- لقد أحضرت قائمة.

ناولني ورقة موضوعة في ملف بلاستيكي شفاف، وتابع قائلًا:

- عثرت على المكتبة عبر الإنترنت، وظننت أن الأمر يستحق التمشية إلى هنا، لأنني لست بعيدًا عن هنا بدرجة كبيرة.

قلت:

- بالتأكيد، هل يمكنك أن تترك هذه القائمة معي بضعة أيام؟ سأضطر إلى البحث في المخزن بالطابق العلوي.

تلقينا بضعة صناديق من أحد محبي دافنشي منذ عامين، وسرعان ما بيعت المجلدات الكبيرة اللامعة من نوعية «ليوناردو العبقري». نسعِّر كتب طاولة القهوة بخمسة جنيهات نظرًا إلى أنها مستعمَلة، كما أن شراءها يكون بدافع النزوة في أحسن الأحوال، حيث لا توجد فائدة حقيقية بالكتاب تكفي أي شخص مهتم حقًّا بالموضوع، ولا يرغب معظم الناس في تقديم هدية مستعملة، لكنهم قد ينفقون بضعة جنيهات على شيء كبير ولامع. الأمر جنوني، حيث يمكنك شراء الأعمال الكاملة لروبرت بروك مقابل هذا المبلغ من المال. وأنا أفضِّل كتب الشعر على الورق المصقول والصور الفوتوغرافية كبيرة الحجم.

لكنني اعتقدت أن هناك احتمالًا كبيرًا أن تكون بقية الكتب التي جاءت إلينا في تلك الصناديق الخاصة بعصر النهضة لا تزال موجودة.

لمس روب مرفقي وقال:

- شكرًا لك، أقدِّر ذلك.

لا أحب أن يلمسني الناس من دون أن أعطيهم الإذن بذلك. أومأت برأسي، وكان في طريقه للخروج من الباب عندما خطر لي أن أطرح عليه سؤالًا بديهيًّا، فلحقت به في الشارع خارج المقهى.

قلت:

- عذرًا، هل تمانع في إخباري المزيد عن موضوع بحثك؟ أعرف أنك قلت هندسة عصر النهضة، لكنني أعتقد أنه سيكون هناك كثير من الأشياء المتعلقة بهذا الموضوع، لذا...

ابتسم والتفت إليَّ وهو يضيِّق عينيه في مواجهة شمس الخريف المبكرة.

- يدور الموضوع حول العلاقة بين برونليسكي، الذي بنى قبة كاتدرائية فلورنسا، وليوناردو دافنشي. لم تنجُ أي من كتابات برونليسكي، وقد نسيه التاريخ الشعبي نوعًا ما، لكنني أدرس تأثيره. يتعامل الناس مع دافنشي كما لو أنه عبقري منعزل، أو إله من نوع ما. إلا أنني أعتقد أنه كان أشبه بطائر العقعق، يلتقط الأشياء اللامعة من الآخرين.

بينما كان يتحدث، رسمت يداه أشكالًا في الهواء بيننا - أبراج الكنائس، والصلوات، والكتب - ونظر إليَّ ثم رفع نظره إلى الأعلى، وعاود النظر إليَّ مجددًا بينما يشرح الأمر. كان شعره بُنيًّا، بلون الأجزاء الداكنة من عينيه نفسها.

قلت:

- الأمر أشبه بشعراء جيل البِيت[1] إذن نوعًا ما، فمن دونهم، لم يكن لبوب ديلان أن يوجد، لكن لا يعني ذلك أننا في حاجة إلى بوب ديلان.

---

(١) شعراء جيل البِيت: مجموعة من الأدباء الذين ظهروا في الخمسينيات، وشكلوا حركة أدبية تركت أثرًا عميقًا على الثقافة والسياسة الأمريكيتين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. اتسمت هذه الحركة برفض القيم التقليدية والمادية السائدة، والتعبير الصريح عن تعقيدات الحالة الإنسانية. كما انشغل شعراء البيت باستكشاف الروحانيات المتنوعة، بما في ذلك الأديان الأمريكية والأديان الشرقية، وتجريب عقاقير الهلوسة، والدعوة إلى التحرر الجنسي. (المترجمة).

ابتسم روب مجددًا، وقال:

- بالضبط. أنا معجب بك.

كنت حمقاء، فأسعدني إعجابه بي. كان ينبغي أن أكون أذكى من ذلك. عند التفكير فيما سبق، أعتقد أن ما أعجبه بي هو حقيقة أنني كنت أتحدث معه عن نفسه وعن الأشياء التي تهمُّه. لكنني لم أدرك ذلك إلا لاحقًا، وربما كان ذلك أمرًا طبيعيًّا بالنسبة إلى العلاقات، فلم يكن والداي طبيعيين تمامًا بهذا الصدد. وقد ذهبت في عدة مواعيد في المرحلة الثانوية، وشعرت بأن عليَّ التخلص من عذريتي حتى أتمكن من التفكير في أشياء أكثر أهمية. بدا الأمر إلى حدٍّ ما شبيهًا بكونك مضطرًّا إلى قراءة رواية «آمال عظيمة» في وقت ما إذا كنت تحب القراءة، حتى تنتهي منها وتتمكن من المُضي قُدمًا بعد ذلك. لم أهتم بالرجال كثيرًا منذ تخلصت من غشاء بكارتي. وقد قرأت ما يكفي من الروايات لأعرف أن العلاقات:

- تجيد التنكر كما لو أنها أفضل شيء على الإطلاق.
- معقدة.
- محكوم عليها بالفشل في أغلب الأحيان.
- عادة ما تتألف من طرف فائز وطرف خاسر.

لذا قررت أنني أستطيع العيش من دونها إلى حدٍّ بعيد، حتى من قبل إضافة العقدة المتمثلة في: «هل تحبني من أجل شخصي، أم من أجل ما أمثِّله من الطرافة؟». لذا عندما عدت لأجثو على ركبتَي مرة أخرى أمام قسم الملاحم، كان ذهني منشغلًا تمامًا ببرونليسكي، ولم أكن أفكر في السيد روتشستر قَطُّ.

صرت مهووسة بعض الشيء بالكتب الموجودة في القائمة، لأنني أحب التحديات التي تكون خارجة عن المألوف. وعادة ما تندرج الاستفسارات عن الكتب تحت أربع فئات: الفئة الأولى هي التذكر على نحو سيئ أو انعدام الدقة. («أريد نسخة من «أي شيء بلا نتيجة» من تأليف ويليام شكسبير، من فضلك». «هل تقصد «جعجعة بلا طحن؟»». «لا، لا أعتقد ذلك. إنها مسرحية. هل يمكنك

البحث في قسم الدراما؟»). أما الفئة الثانية، فهي من نوعية «لا بد أنك تمازحني». (هناك كتاب قرأته في عام ١٩٧٤ أو ١٩٧٥. كانت قصة حب تدور أحداثها في أمريكا أو أستراليا على ما أعتقد. هل هو لديك؟). الفئة الثالثة هي «التوصية الأسبوعية». («سمعت برنامجًا على راديو ٤، ذكر كتابًا عن فيثاغورس، أو ربما بروميثيوس...»). والرابعة هي من ذلك النوع الذي يمكنك أن تعمل فيه بجدٍّ، وتبذل قصارى جهدك، لأنه يعني البحث عن شيء يصعب العثور عليه. ولا نتلقى كثيرًا من هذا النوع من الاستفسارات، لأن الأشخاص الذين يحتاجون إلى شيء محدد يميلون إلى استخدام الإنترنت، والكثير من المواد المتخصصة لدينا متاحة عبر الإنترنت، لذلك لا يتصل الناس للسؤال، بل يطَّلعون فحسب على الكتالوج الخاص بنا ويدفعون عبر الإنترنت، ودوري في الأساس هو التغليف. لذا كانت قائمة روب بمنزلة هدية نوعًا ما.

أعتقد أنني شعرت بالفراغ في ذلك الوقت. انتهيت من تزيين الشقة، وكانت كما أردتها تمامًا. وكان لديَّ عقد إيجار طويل الأجل لمسكني، ووظيفة مناسبة لي تمامًا. بدت حياتي منظمة، وكنت في الثانية والعشرين من عمري. أحببت كل ما صادفته في طريقي أو حققته لنفسي، وشعرت بالارتياح، لكنني لم أرغب في الاعتقاد أن الأمور ستظل كما هي من دون تغيير لخمسين عامًا أخرى.

كان من الأفضل أن أفكر في فلورنسا. بحثت عن الكاتدرائية عبر الإنترنت وكانت تلك إحدى المرات القليلة التي شعرت فيها بالرغبة في الحصول على جواز سفر والذهاب إلى مكان ما على متن الطائرة.

الجريمة

١٩٩٩

رنين معدني نحاسي

كنت في التاسعة من عمري عندما تغير كل شيء. عدت من المدرسة إلى المنزل متأخرة ساعة ونصفًا عن الموعد المعتاد ذلك الخميس، بسبب «باجزي مالون»، المسرحية المدرسية التي كنا نتدرب عليها. كانت معلمتي لطيفة وتشجعنا معظم الوقت، لكنها بدأت تقول «لا، لا، لا، أيها الصف الرابع»، وهي تهز رأسها، ونظمت بروفة إضافية مع من أسمتهم «الممثلين الأساسيين»، لأنها قالت إنها إذا تمكنت من وضعنا على المسار الصحيح، فسيحذو البقية حذونا بعد ذلك. أحببت التمثيل، وقد حفظت كل سطوري الحوارية، لذا تفاديت معظم غضبها، لكنني تلقيت التأنيب لأنني بدوت متجهمة في حين كان ينبغي أن أبدو غاضبة. خذوا الحكمة من أفواه معلمي المدارس الابتدائية.

سمحت لي والدتي بالذهاب إلى المدرسة والعودة منها سيرًا على الأقدام مع صديقتي إيما، التي كانت أيضًا مشارِكة في المسرحية، لأنه لم يكن علينا عبور أي طريق. وقد بدا الأمر كأنه مغامرة كبرى حينها، على الرغم من أنني أعتقد أن تلك التمشية استغرقت أقل من دقيقتين.

كانت ليلة الخميس تعني أنها ليلة المعكرونة، وكنت أحب السباجيتي بولونيز، بينما تحب والدتي الأشكال الحلزونية مع التونا والبازلاء، لذا كنا نتناوب الدور في أثناء غياب والدي عن المنزل. كنت أحب أيام الخميس لأن المعكرونة سريعة التحضير، ولا يستغرق غسيل الأطباق بعدها كثيرًا من الوقت، لذا كان هناك وقت

إضافي للقراءة، وفي بعض الأحيان كانت والدتي تسمح لي بالنزول إلى الطابق السفلي مرتدية بيجامتي كي أقرأ كتابًا على الأريكة وأنا مندسة تحت البطانية، بينما تشاهد هي مسلسل «إيست إندرز» أو أحد برامج الطبخ. كما كانت ليلة المعكرونة تعني اقتراب عطلة نهاية الأسبوع. أحببت المدرسة، لكني أحببت أكثر البقاء في المنزل، وفي عطلات نهاية الأسبوع كنا نقضي وقتًا ممتعًا، بصرف النظر عمَّا نفعله. كنا سنقضي عطلة نهاية ذلك الأسبوع مع والدي، وكانت تلك العطلات هي الأفضل على الإطلاق.

لهذا فوجئت عندما عدت من المدرسة وشممت رائحة شيء يُطهى بالفعل، وتسربت الرائحة الغنية الكثيفة من المطبخ وعلِقت في الهواء عند الباب: لحم البقر المطهي في البيرة، طبق والدي المفضل. كما كان حذاء والدي على الدرج. كان مشققًا حول أصابع القدم، ومهترئًا ومشوهًا، وأكد لي أن شكوكي صحيحة. (ربما كنت أقرأ كثيرًا من القصص البوليسية حينها). كان والدي في المنزل بالفعل. كان حذاؤه، الذي تفوح منه رائحة الملح والزيت والمطاط والجلد، يبقى في الخارج، لأن والدتي قالت إنه يجعل المنزل بأكمله كريه الرائحة. وإذا بدا أن السماء ستمطر، كانت تضعه تحت قماش مشمع وتثقله بالحجارة، فيضحك عليها ويقول إنها معجزة أن يُسمح له بدخول المنزل لأن رائحته أسوأ من رائحة الحذاء.

دخلت ورأيت القدر الكبيرة المصنوعة من الحديد الزهر على الموقد، ولهبًا صغيرًا مشتعلًا تحتها. علمت أنه يجب عليَّ توخي الحذر مع الموقد، كما علمت أن غطاء القدر كان ثقيلًا، لذلك لم أختلس النظر. لكنني لم أكن في حاجة إلى ذلك، حيث كانت الرائحة لا لبس فيها.

لم يكن والدي يعود إلى المنزل عادة في أيام الخميس، حيث كانت منصات النفط تعمل لمدة ثلاثة أسابيع، يليها أسبوع إجازة، وتتغير الورديات في أيام الجمعة، وللذهاب إلى عمله كان عليه أن يستقل القطار، ثم طائرة، وأخيرًا طائرة مروحية، وهو ما جعلني أشعر بالفخر. لم يكن والدي يستقل الحافلة أو

السيارة، ولم يكن هناك حذاء آخر مثل هذا الحذاء. تأملت الرباط الذي تآكلت أطرافه. أحببت وجود والدي في المنزل. فعلى الرغم من أنني ووالدتي كنا نشعر بالسعادة ونحن معًا، لكن عند عودة والدي كان الأمر يبدو كما لو أن أحدهم أغلق بابًا كان مفتوحًا جزئيًّا ويسمح بدخول الريح. فمع وجود والدي في المنزل، كنا نشعر بالاكتمال والاحتواء. تساءلت عمَّا إذا كان في إمكاني التغيب عن المدرسة غدًا.

سمعت وقع خطوات آتية من الطابق العلوي، ثم نزلت والدتي الدرج. كان شعرها الداكن، وهو لون شعري البني نفسه، منسدلًا، وقد تحرر من شكل ذيل الحصان المعتاد. وكانت ترتدي الثوب الساتان الأخضر بلون اليشم الذي اخترناه لها أنا ووالدي في عيد الميلاد، وبدت عيناها مشرقتين وهي تبتسم.

قالت:

- إل جيه.

ومدَّت إليَّ ذراعيها واحتضنتني. دائمًا ما كانت والدتي تلمسك إذا استطاعت، وتمسك يدك أو تمسد شعرك. كانت ممتلئة وناعمة ومثالية للعناق، وكان والدي يدعوها «كرة الزبدة»، والآن بعد أن كبرتُ وصرت نحيفة وأطول قامة، قال إننا نبدو مثل الطبق والملعقة اللذين هربا معًا. كانت والدتي تضحك، ويمسك هو بها ويقبض على فخذها ومؤخرتها ويقول: «يمكنني أن آكلك».

قالت والدتي:

- ظننت أنني سمعت صوتك. هل سوَّيتم الأمور يا عزيزتي؟

كانت تفوح منها رائحة أبي: خشب الأرز، ودخان السجائر، إلى جانب رائحة الزيت التي بدا أنها لا تزول أبدًا.

فكرت في كم الحكايات التي تبدأ على هذا النحو، بحدوث شيء غير متوقع في يوم عادي. شعرت برعشة من الإثارة وأنا أدفن وجهي في الساتان.

قلت:

- والدي في المنزل! لقد رأيت الحذاء!

ابتعدت عنها ورفعت إليها عينَي وقد تغضن أنفي، لأن هذا هو ما كنا نفعله عندما نتحدث عن الحذاء. غضنت والدتي أنفها في المقابل، وضحكنا.

قالت:

- يا لك من فتاة ذكية. إنه نائم، لذا سنتركه بعض الوقت، وسأذهب أنا للاستحمام.

أشرت قائلة:

- الوقت ليس صباحًا، وهذا يوم الخميس. لا يأتي والدي إلى المنزل عادة يوم الخميس. إنه يوم «مَحيِر».

كنت أحب تحصيل الكلمات الجديدة.

نظرت إليَّ والدتي لحظة بتعجب، ثم قالت:

- أوه! نعم، إنه كذلك بالفعل! لكن الكلمة تُنطق «مُحيِّر»، يا إل جيه، وليس «مَحيِر».

أجبتها وأنا أكرر قائلة:

- مُحيِّر.

(حسنًا، هذه هي مشكلة الكتب. لكنها المشكلة الوحيدة).

ابتسمت والدتي وقالت:

- رائع!

لكن ملامحها تحولت إلى الجدية بعد ذلك، وعرفتُ أنها تتخذ قرارًا ما. قالت:

- لن يعود والدك إلى العمل على منصات النفط مرة أخرى، لذا سيحصل على وظيفة مختلفة. ولهذا السبب عاد إلى المنزل مبكرًا. فكرت أن نتناول يخنة لحم البقر، لإسعاده.

ابتسمتْ مرة أخرى ولمست شعري ثم تابعت:

- عندما أنزل، سنعد كعكة الزنجبيل.

دائمًا ما كنا نعدها أنا ووالدتي عصر الأيام التي نعلم فيها أن والدي سيعود إلى المنزل، وكنا نأكلها دافئة عند وصوله، مع أكواب الشاي لهما وكوب من الحليب

لي. وكان يقول إنه حتى لو عاد إلى المنزل معصوب العينين، فإنه سيجدنا من خلال رائحة تلك الكعكة.

ثم ذهبتْ، وصعدَت الدرج، وسمعتُ صوت الدش.

جلست على الدرج وانتظرتها. في البداية تحمست لعودة والدي إلى المنزل مبكرًا، كما كان احتمال الخَبز دائمًا أمرًا جيدًا. لكنني شعرت بالانزعاج أيضًا، حيث كنت أعرف معنى البطالة، لأن والد صديقتي لارا كان عاطلًا عن العمل، وصارت تحصل الآن على وجبات مدرسية مجانية، كما أنها ستحتفل بعيد ميلادها في المنزل، بدلًا من مقهى الخزف حيث قالت إنه سيُقام.

لم يكن لديَّ أي فكرة حقيقية عمَّا سيحدث، وأعتقد أنني بكيت بسبب الارتباك البسيط الناتج عن التغيير المفاجئ لقاعدة لم أكن أعلم في الواقع أنها قابلة للتغيير. إذا سألني أحد عن والدي، كنت أقول: «إنه يعمل في منصات النفط»، لأن هذا كان أسهل ما يمكن قوله عنه. تميزت أسابيعي بمجيئه وذهابه، وكانت أيام الجمعة بمنزلة واحات في حياتي الصغيرة. وكان حضور والدي أو غيابه يملي علينا كل شيء: ما الذي نشاهده على التلفاز، وما نأكله (كنا نأكل المزيد من اللحوم عند وجوده في المنزل)، ومتى نأكل (كنا نأكل مبكرًا في أثناء غيابه)، وكيف نقضي وقتنا. جعل والدي المنزل يبدو أصغر حجمًا ورائحته مختلفة، وقد أحببت وجوده هناك، وأحببت مشاهدته وهو يدخل ويغلق الباب. لكن عند رحيله ليركب القطار إلى مطار ليدز، حيث سيستقل طائرة إلى أبردين ليصعد على متن المروحية التي تعيده إلى مقر عمله، كنت أستمتع بوجودي مع والدتي فقط مرة أخرى.

دفع كل هذا بالدموع إلى عينَي، وكنت أبكي بهدوء، عندما نزلت والدتي إلى الطابق السفلي مرة أخرى، تفوح منها رائحة الشامبو وجل الاستحمام بالليمون، وترتدي فستانًا طويلًا ورديًّا داكنًا يحبه، وهي حافية القدمين. اعتادت طلاء أظفار قدميها حينها، وكانت بلون التوت الأحمر في ذلك اليوم. كان هذا هو اللون المفضل لديَّ من بين ألوانها، وأحيانًا كانت تطلي

أظفار قدمَيَّ باللون نفسه في عطلات نهاية الأسبوع، وتقول إننا توأمان في أصابع القدمين. قالت:

- لا تقلقي يا عزيزتي، سوف يجد عملًا آخر. سيصبح كل شيء على ما يرام.

كانت مخطئة في كلا الأمرين، كما تبيَّن.

* * *

اعتدنا الذهاب إلى الشاطئ عندما نصير وحدنا أنا ووالدتي في عطلات نهاية الأسبوع، إذا كان الجو مشمسًا (أو إذا لم يكن ممطرًا فحسب)، وكنا نشق طريقنا وسط الحشود المتجمعة في ويتبي خلال عطلة نهاية الأسبوع، ويدها تقبض على يدي بشدة دائمًا. وكنا نضحك لأننا نعرف أن هذا المكان هو مكاننا، حيث يتعين على الجميع العودة إلى داخل البلاد بعيدًا عن البحر، في حين أنه في وسعنا نحن العيش بالقرب من صوت أمواجه المتكسرة وهدير مياهه طوال الوقت. وكانت والدتي تبقي عينيها على الماء كما لو أنه قد يختفي إذا لم تراقبه، ولم أفهم ذلك حينها. يكاد يكون من المغري العودة بذاكرتي إلى الوراء، ورؤيتها وهي تكنز تلك المناظر البحرية للأيام القادمة. مُغريًا بالكاد.

كانت والدتي تقول:

- انظري إلى البحر، يا إل جيه!

فأقول أنا:

- نعم!

على الرغم من أنني لم يسبق أن عشت في أي مكان آخر، ولم أعرف بعدُ طبيعة العيش في أي مكان لا يمكنك فيه الذهاب بسهولة ورؤية السماء التي تلامس أفقًا مسطحًا باللون الأزرق الرمادي.

نشأت والدتي في نوتنجهام، ودرست هناك أيضًا، وكانت تعمل في سوبر ماركت بعد تخرجها عندما التقت ووالدي. وقد أتت إلى ويتبي لحضور حفل زفاف إحدى صديقاتها في الجامعة، وكان والدي صديقًا للعريس. لم يمضِ وقت طويل منذ ترك الجيش، وكان ينام في الغرفة الاحتياطية لرفيقه الموشِك على

الزواج. لذا اعتادت والدتي الذهاب إلى ويتبي لرؤية والدي في أيام إجازتها، وكانا يسيران بجوار البحر حيث وقعا في الحب. كان البحر جزءًا من حكايتهما، وهذا، بالإضافة إلى حقيقة أنها نشأت بعيدًا عن البحر، يعني أنها دائمًا ما كانت تمتلئ بالسعادة عندما نذهب إلى الشاطئ، وتشعر بالحماس لمدى اتساع السماء وامتداد الماء.

وعند الذهاب إلى الشاطئ، كانت كل منا تضيف إلى مجموعتها الخاصة: كنت أجمع الأصداف، لكنني كنت صعبة الإرضاء للغاية، وآخذ السليمة فقط إلى المنزل، وأرفض أي شيء له حواف مكسورة، وكان الشيء المفضل بالنسبة إليَّ هو العثور على زوج من الأصداف التي لا تزال متصلة. وبين الحين والآخر، بعد ارتفاع المد، كانت ترقد كفراشات صغيرة صامتة على الشاطئ. كان هناك المئات منها، بلونها الأبيض، ولها خطوط منحنية باللون الأزرق الرمادي على طول أجنحتها الصدفية. وكنت أسير بينها باحثة عن الأفضل، وأمشي على رؤوس أصابعي أحيانًا كي أتأكد من أنني لن أطأ ذلك الكمال بطريق الخطأ وأحطمه.

اهتمت والدتي بجمع الأحجار، وقد اختلفت معاييرها عن معاييري. لم تكن تهتم بالكمال، بل كانت تحب الأشياء الخارجة عن المألوف، لكن لم يكن ما يثير اهتمامها متوقعًا. في بعض الأحيان كان اللون: وميض من اللون الوردي على حصاة سوداء، وفي بعض الأحيان كان الملمس، وأحيانًا الشكل، نقاط ونتوءات كانت ترى فيها وجوهًا لم أتمكن من تمييزها. قالت والدتي إنه يجب علينا أن نأخذ شيئين فقط معنا إلى المنزل، وقالت إن علينا أن نترك ما يكفي للأشخاص الآخرين الذين لديهم مجموعات، ولم أنظر قَطُّ إلى ما هو أبعد من قولها ذاك، لأرى صغر حجم منزلنا، وشكوى والدي من أنه لا يستطيع التحرك بسبب الفوضى. وقد احتفظت بمجموعتي في صندوق مجوهرات خشبي كان مملوكًا لجدتي ووكر، أم والدتي. كان به كثير من الصواني والأدراج، وكان مثاليًّا لتخزين كنوزي البحرية. واحتفظت والدتي بأحجارها على جلسة نافذة الحمَّام،

في صف كانت تعيد ترتيبه كلما أضافت أحجارًا أخرى. ولا يزال لديَّ صندوق المجوهرات هذا، لكنني لا أنظر إليه أبدًا.

وبعد اختيار كل منا لقطعتَي الكنز الخاصتين بها، كنا نشتري البطاطس المقلية من الكافتيريا بجوار الدرج الحجري، ونجلس على الرصيف أو على الشاطئ لنأكلها، حسب مدى ازدحام المكان أو حسب شدة الريح. وكنت أستخدم شوكة الطعام، لكن والدتي كانت تأكلها بأصابعها. قالت إنها قوية الاحتمال، لكن في بعض الأحيان كانت البطاطس ساخنة جدًّا إلى درجة أنها تسقطها مرة أخرى في الصينية المصنوعة من البوليسترين وتنفخ في أطراف أصابعها. وقد جعلت رائحة الخل الساخن نوارس البحر تحلق فوقنا، لكننا تجاهلناها. وفي آخر عام جيد لنا، كنت أتدرب على دوري في المسرحية في أثناء تناولنا الطعام، وأشرح الأحداث بينما أتابع التدرب على سطوري، وعلى الرغم من أنني متأكدة من أن والدتي قد رأت «باجزي مالون»، فإنها لم تُظهِر ذلك قَطُّ، وكانت منتبهة وتطرح الأسئلة وتكرر لي سطوري كما لو أنها سمعت للتو أذكى شيء قاله أي شخص على الإطلاق.

في عطلات نهاية الأسبوع عند وجود والدي في المنزل، كنا نركب سيارتنا القديمة من طراز فورد ونذهب مسافة أبعد من ذلك. وفي خليج روبين هود، طاردني والدي عبر الكثبان الرملية، بينما والدتي تقف في الأسفل، تراقبنا وتضحك. في تلك الأيام، كنا نتناول الغداء في الحانة، ونلعب الألعاب التي يلجأ والدي إلى الغش فيها. ظننته يمزح، لكن في بعض الأحيان وأنا نصف نائمة في المقعد الخلفي في طريق العودة إلى المنزل، كنت أسمعهما يتحدثان ووالدتي تقول:

– بات، لن تقتلك الخسارة بين حين وآخر، كما تعلم، فهي مجرد طفلة.

وفي بعض الأحيان لم يكن والدي يقول أي شيء، لكن في أحيان أخرى كان يقول بحزم:

– سارة جين، لم أكن أغش.

فكانت والدتي تقول بسخرية:

- دع عنك هذا، فحتى ابنتك لاحظت ذلك، وهي في التاسعة من عمرها فحسب. ولو أنك تتمتع بلياقة بدنية أفضل، لأصررت على التغلب عليها في الوصول إلى قمة الكثبان الرملية أيضًا. مكتبة سُر مَن قرأ

لم أمانع لجوءه إلى الغش، حيث كان ذلك جزءًا من المتعة، وكان والدي كريمًا في تقديم شاي ما بعد الظهيرة والقصص المصورة، لذا لم أمانع كونه أكثر صرامة من والدتي فيما يتعلق بمواعيد النوم. كنت أذهب إلى الفراش وأغرق في النوم في وقت قصير جدًّا، وأستمع إلى غمغمتهما القادمة من الأسفل.

لذلك، في يوم الخميس ذاك، عندما عاد إلى المنزل بشكل غير متوقع وبكيت، أعتقد أن ذلك كان لأنني عرفت بطريقة ما أن الأمور ستتغير.

عندما استيقظ والدي، كنت أنا ووالدتي في الطابق السفلي. صنعنا كعكة الزنجبيل، وكان لدينا وقت لإعداد البراونيز أيضًا. وقد أحببت الخَبز مع والدتي، لأنها كانت تسمح لي بالقيام بكل شيء، ولم تكترث قَطُّ بشأن الفوضى، وإذا لم تبدُ المخبوزات مثل تلك التي تصنعها ديليا سميث[1]، كانت تضحك فحسب وتقول إنه يبدو أن ديليا في وسعها أن تتعلم منا بعض الأشياء. كنت قد تناولت حصتي من يخنة اللحم البقري بالفعل، وسُمح لي بالسهر حتى أرى والدي، لكن والدتي وضعت الطاولة الصغيرة في زاوية غرفة المعيشة وأعدَّتها لشخصين، ووضعت شمعة في شمعدان في المنتصف، وطوت المناديل الحمراء في أشكال قالت إنها بجع، على الرغم من أنها بدت أشبه بالبط بالنسبة إليَّ: لم تكن أعناقها طويلة بما يكفي للبجع. استلقيت وأنا مستندة إلى والدتي أقرأ كتابي، وسمعت قرقرة بطنها. وعند سماعه يتمطى كالدب وقدماه ترتطمان بالأرض فوقنا، اعتدلتْ جالسة وقالت:

---

(١) ديليا سميث: طاهية بريطانية شهيرة، ومقدمة برامج، ومؤلفة كتب طهي. (المترجمة).

- لقد تعرض والدك لحادث صغير يا عزيزتي، لكن الأمر يبدو أخطر مما هو عليه، كما تبدو هذه الأمور في العادة.

بدت ابتسامته هي نفسها، لكن إحدى أسنانه كانت مفقودة. كما كان عناقه هو نفسه، لكنه أبعد وجهه عن وجهي بعض الشيء، لأنه كان متورمًا. وقد صاح باسمي بأجزائه الثلاثة، مع علامات التعجب، بالطريقة نفسها تمامًا («لافداي! جينا! كاردو!»)، وهذا هو ما شجعني على الجلوس بجانبه وإلقاء نظرة فاحصة. إذا لم أستطع أن أصير ممثلة أو محققة عندما أكبر، كنت أفكر في أن أصبح طبيبة بيطرية، وبدا هذا كأنه تدريب جيد.

قلت:

- ابتسم.

كانت هناك دماء متخثرة حول الموضع الذي كانت فيه سنته الأمامية، ووضعت إصبعي في الفجوة من دون لمس الحواف.

- ماذا حدث؟

شعرت بصوتي يرتعش، وقد بدت رائحة أنفاسه كريهة: الدماء، وشيء أسوأ من ذلك.

ضحك قائلًا:

- يجب أن تري الرجل الآخر.

فقالت والدتي:

- بات!

وضحكتْ نوعًا ما، وأخبرتني أنني يجب أن أفكر في الذهاب إلى الفراش. ثم توجهَت إلى المطبخ، وانتظرتُ أن يرسلني والدي إلى الطابق العلوي، لكنه جلس هناك فحسب ونظر إليَّ بينما انشغلت بتفحصه، من خلال النظر أولًا، ثم اللمس بتردد. بدا هناك شيء خاطئ في ابتسامته - كانت السن مفقودة - كما لم تكن عيناه على ما يرام أيضًا، حيث كانت إحداهما متورمة ونصف مغلقة. ولم تبدُ عينه المصابة بكدمة في حال سيئة للغاية على ما أعتقد، لأن الإصابة كانت حديثة

نوعًا ما، لكن خلال الأسبوعين التاليين تطور الأمر على نحو مذهل: تحولت إلى اللون الأسود الأرجواني، وبشرته لامعة ومشدودة حد الانفجار تقريبًا، ثم تبدل مظهرها وتلاشى اللون ليتحول إلى الأرجواني، ثم الأزرق، ثم الأسوأ من ذلك كله، اللون الأخضر المائل إلى الصفرة المثيرة للغثيان. حاولت رسمها، لكن مقلمة فتاة تبلغ من العمر تسع سنوات لا تحتوي في الواقع على مجموعة الألوان هذه. ضحك والدي على الرسم عندما عرضته عليه، لكنه اختفى عندما بحثت عنه في صباح اليوم التالي.

حدث ذلك لاحقًا. في تلك الليلة الأولى، جفل عندما لمسته. رفعت قميصه، ولاحظت رائحة مسحوق الغسيل، تلك الرائحة المريحة التي لا تتغير؛ كانت والدتي مخلصة في كل شيء. رأيت كدمة أخرى، على جانب قفصه الصدري ومقدمته، يمتزج فيها اللونان الأزرق والأسود عند الحواف مع الوشم الموجود في منتصف صدره. كنت أعرف أن الوشم «عسكري»، على الرغم من أنه يهيَّأ لي أنني اعتقدت أن هذه الكلمة هي التي تعبِّر عن الصورة: بوق يعلوه تاج كان أعرض من كف يدي.

في المرة الأولى التي وطأت فيها قدمي مكتبة الكلمات المفقودة، وجدت كتابًا عن الشارات، واستنتجت الحقيقة، وربطت بين الوشم ووحدة المشاة الخفيفة في سومرست وكورنوال. أعتقد أنه كان سيخبرني بذلك لو أنني سألته، لكن عندما تكون طفلًا، فإنك لا تعرف دائمًا كيفية طرح الأسئلة الصحيحة، كما لا تعلم أن الوقت ليس متاحًا لك إلى الأبد كي تطرحها.

كنت على وشك البكاء. تعثرت ذات مرة على خشبة المسرح، وكانت سقطة بسيطة، لكنني صدمت ذراعي بحافة طاولة في أثناء سقوطي، وكانت الكدمة مؤلمة بما يكفي لإيقاظي إذا تقلَّبت على جانبي الأيسر خلال نومي. لذا علمت أن كدمة والدي وعينه المتورمة ستؤلمانه حقًّا، ولم يكن الآباء موجودين في العالم كي يتأذوا (لم يكونوا كذلك في عالمي، حينها)، بل كان الآباء موجودين لتوفير الحماية، وهم غير قابلين للكسر، وللحمل على الأكتاف التي تقول والدتك إنك

صرت كبيرًا وثقيلًا عليها، ولمساعدة الجيران في حمل الأثاث، ودفع سيارات الغرباء عندما لا تدور.

قال بلطف:

- لا بأس، تورط والدك في شجار سخيف، هذا هو كل ما في الأمر. لقد تعلمت الدرس، وسرعان ما سأتعافى قبل أن تدركي الأمر.

سألت:

- هل أبلغت الشرطة؟

ضحك قائلًا:

- لا، لا أستطيع العودة إلى العمل، وكذلك الرجل الذي ضربني. لقد حصلنا على نصيبنا من العدالة.

لم أعرف إذا كان ذلك أمرًا جيدًا أم سيئًا. نادت والدتي من المطبخ قائلة:

- أعتقد أنه آن الأوان لتكوني في الفراش، يا عزيزتي. لقد تأخر الوقت كثيرًا.

طرحت سؤالي التالي عندما بدأت في صعود الدرج، وكنت متعبة، وشعرت كأنني أتسلق:

- هل ستتمكن من رؤيتي في المسرحية؟ إنها في غضون أسبوعين.

وكانت والدتي قد رتَّبت بالفعل لاستعارة الفيديو الذي سيصوره والد إيما، وهو ما تفعله عادة عندما يُفوِّت والدي شيئًا ما، لكن وجوده بين الجمهور سيكون أفضل بكثير.

قال:

- سوف أسجل ذلك في مفكرتي. والآن، افعلي كما تقول والدتك، وإلا ستوقعينني في مزيد من المشكلات.

لم أحصل على إجازة في اليوم التالي، وكان واضحًا منذ البداية أن هذه العودة إلى المنزل مختلفة عن المرات الأخرى. وقبل أن أذهب إلى المدرسة في صباح اليوم التالي، طلبت مني والدتي ألا أخبر أحدًا أن والدي تورط في شجار، وقالت إن الناس قد يشكلون فكرة خاطئة عنه. وحسب ما أتذكر - أجل، أعلم أن فتاة

تبلغ من العمر تسع سنوات ليست شاهدة موثوقة - قالت هذا من دون أي أثر للسخرية.

حضر المسرحية مع والدتي، وجلس في الصف الأمامي، على الرغم من أنه لا بد أن طوله وكتفَيه العريضتين أفسدوا على الكثيرين قدرتهم على الرؤية، وأفسدوا الكثير من مقاطع الفيديو. ما زلت أتذكر الإثارة التي شعرت بها عندما نظرت من خلال الستارة ورأيتهما هناك. بدا شعورًا أشبه بتناول الشوكولاتة على الإفطار. ضحك والدي في جميع المواضع الصحيحة (ضحك بعض الآباء في المواضع الخاطئة)، وصفق بحرارة، وبصوت عالٍ للغاية، في صخب شديد. وفي النهاية، بعد أن قالت المديرة كم عملنا بجد جميعًا وأننا نستحق جولة إضافية من التصفيق، وقف وصاح «برافو!»، وصفق بيديه فوق رأسه وضحك الجمهور وفعلوا الشيء نفسه.

كانت بشرة وجهه لا تزال صفراء اللون على طول عظام الوجنة، كما كانت هناك بقعة أرجوانية داكنة على صدره، وفي بعض الأحيان عندما كان يضحك، كان يضع يده هناك، ويشحب وجهه نوعًا ما. لكن بالنسبة إلى النظرة العابرة، بدا كأنه عاد إلى طبيعته مجددًا. وأعتقد أنه كان كذلك، في معظم النواحي، باستثناء أنه لم تعد لديه وظيفة، وهو ما تبين أنه أكثر أهمية مما تتصوره طفلة في التاسعة من العمر.

عندما عدت إلى المنزل من المدرسة بعد ظهر أحد الأيام، سمعت صياحًا قادمًا من الطابق العلوي بينما كنت أمضي في طريقي عبر الزقاق بين الرصيف والبوابة الخلفية، حيث كان في إمكاني الدخول من الباب الخلفي. كان الجو أكثر دفئًا، وكنت أرتدي فستانًا قطنيًّا منقوشًا بالمربعات. أعتقد أنه كان شهر مايو.

- الأمر ليس بهذه البساطة.

كان صوت والدي منخفضًا، لكنه بدا غاضبًا، مثل زمجرة ريكي، الكلب الصغير من فصيلة جاك راسيل القاطن عند الناصية، الذي كان يثير رعبي. كنت أعبر للجهة الأخرى من الطريق في كل مرة أمرُّ فيها وأراه في الحديقة.

بدا صوت والدتي أكثر هدوءًا وهي ترد عليه، ولم أتمكن من سماع الكلمات،

لكني شعرت بأنها مستاءة. وعندما تمكنت أذناي من التقاط الصوت بشكل أفضل، ميزت اسمي، وكلمتَي «عطلة» و«حذاء».

لم أعرف ماذا أفعل. إذا دخلت المنزل، ربما أسمع أكثر مما أردت سماعه، وقد يُعد ذلك «تنصتًا» - وهي كلمة أخرى جديدة - وكنت أعلم أن ذلك أمر سيئ. لذا أغلقت البوابة بصوت عالٍ - واهتز المزلاج المعدني - وجلست على الدرج. كان في إمكاني التظاهر بأنني أستمتع بالشمس، وهو أمر يبدو أن البالغين يعدُّونه استغلالًا مفيدًا للوقت. أخذت كتاب «المشهورون الخمسة» الذي كنت أقرأه من حقيبتي المدرسية الزرقاء. أعطاه لي والدي لأنه قال إن سلسلة كتب «المشهورون الخمسة» كانت أفضل شيء في طفولته. وكان اسمه مكتوبًا بأحرف كبيرة على الغلاف الداخلي. فتحته، لكنني لم أقرأ، بل أخذت أستمع رغمًا عني.

ساد الهدوء في الطابق العلوي. ما زلت أذكر ذلك الإحساس المؤلم غير الطبيعي، كما لو أن معدتي تأكل نفسها. كان العالم الذي أعيش فيه يتغير عن ذلك الذي لطالما عرفته، ولم يعجبني هذا قَطُّ.

قبل أن يفقد والدي وظيفته، كنت أشعر بالاستياء من سفره أحيانًا وهو ذاهب إلى عمله، فكان يحملني ويقول:

- كما ترين يا إل جيه، إذا لم أعمل، فلن يكون هناك مال، لذلك يجب أن أذهب.

بدا عدم وجود المال حينها مفهومًا مجردًا، لكنني بدأت للتو أدرك أهميته. ذهبنا إلى الشاطئ في عطلة نهاية الأسبوع، كما اعتدنا، لكننا أخذنا معنا شطائر لنتناولها على الغداء، وعدنا إلى المنزل في الوقت المناسب لتناول البطاطس المطهية في الفرن لوجبة المساء. بدا أن وجبات الغداء في الحانات ووجبات السمك للعشاء لم يعُد لها وجود. ولم يكن لديَّ مانع في ذلك، لكن كان هناك شيء ما في الطريقة التي أعدت بها والدتي غداء النزهة، وهي تقول:

- أليس هذا لطيفًا؟

وردَّ والدي:

- لا ترشي الملح على الجرح، يا عزيزتي، فهذا الوضع لن يدوم إلى الأبد.

مما جعلها تبدو وجبة غريبة الشأن. بدا الأمر أشبه بالذهاب إلى منزل أحد الأصدقاء لتناول الطعام لأول مرة، واكتشاف أنه سيتعين عليك التصرف بشكل مختلف، لكن من دون معرفة كيفية القيام بذلك بالضبط، حتى تقضي وقت الوجبة بأكمله وأنت تراقب وتأمل ألا ترتكب أي خطأ، ولا تشعر بالارتياح.

كان الهدوء لا يزال سائدًا بالطابق العلوي، وشعرت بالجوع. بدأت أفكر في دخول المطبخ، عندما سمعت وقع خطوات والدي وهو ينزل الدرج عبر المطبخ. دائمًا ما كانت خطى والدتي تتواثب نوعًا ما، كما لو أنها تقفز قليلًا بين خطوة وأخرى، لكن وقع خطى والدي كان قويًّا، وكل خطوة تتداخل مع الأخرى. قالت والدتي إن لديه قدمين كالفيل، بينما قال هو إن لديها نوابض، ولم أفهم ما يعنيه ذلك.

انفتح الباب خلفي وفقدت توازني لحظة، فمد والدي يده ليثبتني، وقال:

- أفسحي لي مكانًا، يا فتاة ويتبي.

جلس على الدرج بجانبي، ولم تكن هناك مساحة كافية، لذلك التصقت ساقي وكتفي بحجر المدخل.

- هل لديكِ مساحة كافية؟

قلت:

- نعم.

كانت تلك هي طبيعتي حينها. وقد عوضني دفئه وحضوره من جانب نوعًا ما عن خدوش الحجر على ذراعي العارية من الجانب الآخر.

تحسس جيب قميصه، وأخرج السجائر وأعواد الثقاب. كان يدخن «مارلبورو»، وأعجبني اللون الأحمر الموجود أعلى العبوة. وضع سيجارة بين أسنانه، ثم ناولني علبة الثقاب، حيث كان يعلم أنني أحب إشعالها. وكانت والدتي توبخه دائمًا عندما تراني أشعل سيجارته، لذا لم نفعل ذلك إلا إذا لم تكن ترانا.

سألني:

- هل كان يومك طيبًا؟

قلت:

- نعم.

وعلمت أن هذا هو كل ما أراد مني قوله. كانت والدتي تطلب مني الجلوس عندما أدخل، وتقول:

- حسنًا، أنا مستعدة. أعطيني التقرير اليومي!

لكن والدي كان في حاجة إلى العنوان الرئيسي فقط.

أخذ يستنشق ويزفر، وامتزج الدخان والرائحة بالهواء الدافئ، وقال:

- تقول والدتك إنني يجب أن أتوقف عن التدخين.

قلت:

- دائمًا ما تقول ذلك، فهي لا تحب الرائحة.

كان يدخن على الدرج الخلفي في الغالب، لكن الرائحة كانت تتسلل إلى المنزل على أي حال.

قال:

- إنها لا تحب كوني أحرق المال أيضًا، ولديها حق.

قلت:

- لقد تحدثنا بشأن التدخين في المدرسة. هل تعلم أنك يمكن أن تموت إذا دخنت؟ كل من يعرف شخصًا مدخنًا كان عليه أن يرفع يده، وقد شعرت كأنني أعترف بجريمة.

تنهد والدي قائلًا:

- أعرف هذا.

لم يعجبني شعوره بالحزن - ولم يعجبني أن يحزن أي منهما - لذلك حاولت تغيير الموضوع.

قلت:

- سام، وهو صبي في صفي، لديه أخت جديدة، ويقول إن والدته قالت إن ذلك كان حادثًا، لكنني لا أفهم.

كنت أعرف أساسيات الموضوع، وبدا إنجاب طفل كأنه أي شيء سوى مجرد حادث.

أدخلت عليه السرور، فابتسم.

- في بعض الأحيان يمكنك التخطيط لإنجاب طفل، وفي أحيان أخرى يأتي الطفل من دون تخطيط فحسب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألت:

- هل كنت حادثًا؟

قال:

- لا، لطالما أردنا أن نُرزق بك، لكنك أتيت في وقت أبكر مما توقعنا، هذا كل ما في الأمر.

وقبل أن تتاح لي الفرصة لمعرفة ما يعنيه ذلك، أخذ نفسًا آخر من سيجارته، وسألني:

- هل سمعتني أصيح الآن؟

قلت:

- أجل.

فتنهد، وطوَّقني بذراعه الحرة وضمني إليه بقوة وحرارة، وسمعت جلده يحتك بالطوب، لكن لم يظهر عليه ما إذا آلمه ذلك.

قال:

- ليس هناك ما يدعوكِ إلى القلق. إن والدك العجوز في حالة مزاجية سيئة لأنه لم يجد وظيفة جديدة بعد، هذا كل ما في الأمر.

سألته:

- هل انتهى أمر منصات النفط؟

كنت أعرف بشأن الاستغناء عن العمالة بسبب والد إيما، الذي كان عامل بناء، وأحببت استخدام كلمات البالغين في الحديث كلما استطعت ذلك.

ضحك وهو يقول:

- لا، عندما تنتهي منصات النفط، سينتهي العالم أيضًا، لكن هذا لا يزال بعيدًا.
لا، لقد لوثت سجلي هناك فحسب، فليس من المفترض أن تقاتل أحدًا. وإذا فعلت، فسوف يستغنون عنك ويوظفون شخصًا آخر بدلًا منك. هناك دائمًا من ينتظر أن يأخذ مكانك.

قلت:

- تقول الآنسة باكلي إن القتال خطأ دائمًا.

بعض الأطفال في صفي لم يحبوا الآنسة باكلي، لكنني أحببتها، حيث كنت تعرف ما تتوقعه معها، كما كانت كريمة في الثناء، مثلما كانت حازمة بشأن القواعد.

- حسنًا، ربما ينبغي للآنسة باكلي أن تدير منصة نفط إذن، سوف تجيد ذلك.

كنت سأسأل عن معنى تلويث سجله، لكن عندما حل الصمت بينما كنت أحاول تذكر الكلمات، وصلنا صوت بكاء والدتي. نظرت إلى والدي، وأدركت أنه هو أيضًا يسمعها. كانت الدموع من ذلك النوع الذي يرتفع صوته عندما تحاول إيقافه. بادلني النظر بعينين حزينتين، كأنه هو الذي يجب أن يبكي.

قال:

- يجب أن أذهب وأقدم الاعتذار. لم أقصد أن أجعلها تبكي.

سألته:

- لماذا فعلت؟

كانت معلمتي حازمة جدًّا في هذا الصدد، وكانت تقول عن الماء المسكوب في أثناء الرسم، والكتب التي اصطدم بها مرفق أحدهم وسقطت أرضًا: «لا يهم ما إذا كنت تقصد ذلك أم لا. ستظل هناك حاجة إلى أن يتولى شخص ما إزالة ذلك».

نهض واقفًا، وظننت للحظة أنه لن يجيب. قال:

- لقد تركت انفعالاتي تتغلب عليَّ، ولم يكن عليَّ فعل ذلك.

قلت:

- مثلما ضربت الرجل الذي أصاب عينك بكدمة؟

تجهمت ملامحه لحظة، ثم ضحك، وقال:

- لا، لقد ضربني أولًا، ويستحق ما لحق به.

انحنى نحوي، ولمس شعري، وتابع قائلًا:

- لكنني لا أفكر دائمًا قبل أن أتكلم، وقد أزعجت والدتك. هل ستكونين بخير هنا بينما أصعد وأقدم لها الاعتذار؟ وبعد ذلك يمكننا أن نلعب بمكعبات الليجو.

أومأت برأسي. كنت أكبر سنًّا من أن ألعب بالليجو، لكن والدي أحب اللعب بها حقًّا. قلت:

- يمكنني تناول وجبات غداء مجانية في المدرسة.

كنت أعلم أن عدم وجود عمل يعني أننا لا نحصل على أي مال، وأخذت أراقب الوضع وأحصي مرات الإنفاق.

فكرت في الجرة الزجاجية التي نخرجها في عيد الميلاد، التي كنا نضع داخلها ما أحصل عليه من هدايا الحلوى والشوكولاتة. كنت أختار منها شيئًا واحدًا يوميًّا حتى تفرغ تمامًا، وهو أمر يحدث عادةً في منتصف شهر فبراير. في النهاية، كان عليَّ أن أمد يدي إلى قاع الجرة، وأصابعي تطارد آخر قطع من الحلوى والمصاصات.

أصدر صوتًا غريبًا، أشبه بسعال رطب، وقال:

- لن يصل الأمر إلى ذلك الحد. سأجد شيئًا ما.

الشعر

٢٠١٦

لا ينبغي أن يكون هناك صمت

أُصبت بفيروس ما في تلك الليلة في حانة جورج والتنين. لا، ليس فيروس الشعر، أيها المتحذلق، فقد كنت مصابة بهذا الفيروس بالفعل.

وبحلول عصر الجمعة، مرضت بشدة، وأدركت أن الأمر سيئ لأن ميلودي، التي عادة ما يبدأ نطاق اهتماماتها وينتهي بميلودي نفسها، قالت:

- لافداي، لا تبدين على ما يرام اليوم.

لا أُصاب بالمرض كثيرًا، لكن عندما يحدث ذلك، أشعر بالمرض حقًّا. شعرت بالرغبة في إلقاء اللوم في الأمر على عودتي إلى المنزل سيرًا على الأقدام وأنا أدفع دراجتي، لكنه كان شهر مارس، لذلك لم يكن الجو شديد البرودة أو ممطرًا بغزارة. بالإضافة إلى ذلك، كنت قد قرأت في واحد من مئات كتب العلوم الشعبية نصف المقروءة التي تصل إلى المكتبة أن الشعور بالبرد والإصابة به ليسا بالضرورة مرتبطين ببعضهما، لذا سأعفي روب من المسؤولية، لكن في المرة القادمة التي أراه فيها قد أخبره بالضبط كم كان أمرًا بغيضًا منه أن يفرغ الهواء من إطار دراجتي.

سمح لي آرتشي بالانصراف مبكرًا يوم السبت، وقد نمت طوال يوم الأحد ومعظم يوم الاثنين، وهو يوم إجازتي، لذا اعتقدت أنه بحلول يوم الثلاثاء سأكون على ما يرام، لكنني شعرت بأنني أسوأ حالًا.

كدت أزحف إلى حقيبتي كي أخرج منها هاتفي، واتصلت بآرتشي، فعرض أن يأتي ويأخذني، ويصطحبني إلى منزله كي يتمكن من الاعتناء بي. وهو يثير

غضبي عندما يقدِم على مثل هذه الأشياء، فلا يعني مجرد كونه لا يرغب في العيش في استوديو، أنني لست سعيدة هنا. فأنا أنام، وأقرأ، وأكتب قليلًا، وأشاهد التلفزيون، وأقوم بتسخين الطعام الذي أشتريه من سوبر ماركت «تيسكو مترو» في الطابق السفلي، والوضع ممتاز، شكرًا جزيلًا لك.

فكرت في الذهاب إلى الطبيب صباح الأربعاء، لكنني كنت أعرف ما سيقوله لي: التهاب في الحلق، وألم في الأذنين، وارتفاع في درجة الحرارة، وسعال مصحوب ببلغم زاهي اللون. عرفت ماذا أتوقع، وانتظرت حتى ينقضي. جاء آرتشي مساء الأربعاء، وكادت رؤيته تفوتني لأنني كنت أحلم بمنزل يُهدم، وقرميد سقفه يسقط في البحر، وتداخلت طرقاته على الباب مع كل ذلك، أو ربما تسببت فيه. على أي حال، استيقظت مترنحة وفتحت له الباب. كانت معه قدر طعام، ولم أدرك مدى شعوري بالبؤس حتى كدت أبكي عندما رأيت وجهه الكبير المستدير بشاربه الذي أطلقه من قبل أن تصير الشوارب رائجة، وقد امتدت ابتسامته من الأذن إلى الأذن، على الرغم من نظرة القلق في عينيه.

قال:

- تبدين فظيعة، يا عزيزتي.

ثم وضع القدر على الموقد، وفتح حقيبة جلادستون الجلدية التي يحملها معه في كل مكان منذ عرفته، وأخرج رغيفًا من الخبز ومئزرًا مخططًا باللونين الكحلي والأبيض، وارتداه، وكان الظهر مربوطًا بالكاد. فتح النافذة، وكان الجو باردًا جدًّا لكنني لم أتذمر. ظللت أتنفس الهواء نفسه منذ يوم السبت، حتى إنني لاحظت أنه صار فاسدًا بعض الشيء.

قلت:

- أعتقد أنني أشعر بالتحسن نوعًا ما.

وكان ذلك صحيحًا، حيث جلست في الفراش فترة من الوقت في ذلك الصباح، وفكرت في الاستحمام، لكنني عدت إلى النوم قبل أن أتمكن من فعل أي شيء حيال ذلك.

قال:

- لقد أحضرت بعضًا من حساء الدجاج. اذهبي إلى الاستحمام بينما أقوم بتسخينه، واجعلي الماء ساخنًا قدر تحمُّلك، فهو مفيد لصدرك.

قلت:

- كنت على وشك القيام بذلك.

كنت سأوبخه بسبب مجيئه من دون دعوة، ومخالفته ما لا يقل عن خمسة عشر قانون عمل فيما يتعلق بالعلاقات بين الرئيس والمرؤوس، لكن إحقاقًا للحق، فهو صديقي الحقيقي الوحيد، وهو أيضًا مديري في العمل، ولم أكلف نفسي عناء شحن هاتفي. وعلى أي حال، فإن مجرد التفكير في تناول حساء الدجاج الذي جلبه جعلني أشعر بتحسن، أو على الأقل أسترخي بعض الشيء.

لا تظن أنني آكل الفاصوليا الباردة من العلبة، لأنني لا أفعل ذلك، لكن مهارتي كطاهية بسيطة للغاية: المعكرونة مع الصلصة، والجبن على الخبز المحمص. يزعم آرتشي أنه تعلم طهي حساء الدجاج في البحرية التجارية في السبعينيات، على يد طباخ سويسري، وسيسعدني تناول ذلك الحساء كل يوم لبقية حياتي. فهو يبدأ بدجاجة كاملة، ثم يضع معها كثيرًا من الأشياء الأخرى في القدر: الأرز، والجزر، والبازلاء، ومشروب الشيري، والزعتر، والجزر الأبيض. والنتيجة النهائية مذهلة.

وعندما خرجت من الحمَّام، وجدته قد أعد طاولتي الصغيرة لشخصين، وغسل الأواني الموجودة في الحوض، ورتب الأريكة حتى بدت أقل شبهًا بعض الشيء بعش للمتشردين.

قلت:

- شكرًا لك، يا آرتشي.

قال:

- فلتأكلي. حساء الدجاج، لدجاجتي الصغيرة.

بعد ذلك غسل الأطباق وأخذ يتحدث بينما جلست على الأريكة واستمعت

إليه، أو بالأحرى تركته يتحدث من دون تركيز من جانبي، حتى سمعت اسمَي ميلودي وروب، فانتبهت لما يقوله: على ما يبدو، كان هناك «شيء ما» بينهما. تمنيت أن يعامل روب ميلودي بشكل أفضل مما عاملني. فهي أكثر جرأة مني، ظاهريًّا على الأقل، وتمنيت أن يكون قد تعلم شيئًا مما حدث بيننا بخصوص ضرورة التحكم في نفسه على نحو أفضل. لكن من المسلَّم به أن حقيقة إفراغه الهواء من إطار دراجتي لم تبشر بالخير. إلا أن ذهني كان مرهقًا أكثر من أن يتمكن من التفكير في الأمر.

وانتقل آرتشي بحديثه المسلي إلى موضوع آخر، وأخبرني كيف باع «الأعمال الكاملة لشكسبير» المؤلَّفة من عدد كبير من المجلدات، على الرغم من كونها ناقصة، والتي ظل الغبار يتراكم عليها طوال فترة عملي في المكتبة. كانت مسرحية «روميو وجولييت» مفقودة، وشعرت بأنني أتوق بشدة إلى إبداء ملاحظة ذكية حول ذلك الأمر، لكن ذهني كان لا يزال مرهقًا بدرجة أكبر من أن أكلف نفسي العناء، فاكتفيت بالتلويح براية بيضاء مجازية لأعلن هزيمتي. وقبل أن أتمكن من السؤال عمَّا إذا أخبر العميل بشأن المجلد المفقود، كان قد انتقل إلى الموضوع التالي: أحضر بِن صندوقين «يتألف معظم محتوياتهما من أشياء بلا قيمة، لكن قد يكون بهما شيء يستحق البحث عنه». وهذه هي طريقة آرتشي في قول: «لن أزعج نفسي بالأمر، لكن ربما تستمتعين بإلقاء نظرة عليهما». أحببت بِن. لم يكن يتحدث كثيرًا في العادة، لكن عندما يُحضِر الصناديق، كان يضعها على الأرض بعناية، وقد رتب الكتب داخلها حتى لا تتعرض للتلف في أثناء النقل.

قال آرتشي وهو يبدأ تجفيف الأطباق:

- جاء ناثان أفبوري اليوم.

شعرت بالغضب حيال معدتي لأنها تقلصت عند سماع اسمه. تابع آرتشي قائلًا:

- طلب مني أن أذكِّرك أنك ستدفعين ثمن تذكرتك في المرة القادمة.

لم أقل شيئًا، لكنني وجدته مضحكًا للغاية. يا له من أحمق مغرور.

* * *

عدت إلى العمل يوم السبت. وصلت في منتصف الصباح، وكانت المكتبة ممتلئة. جلست سو وكيت وإيزي من نادي الكتاب إلى الطاولة مع آرتشي. وكن يحضرن له الكعك في بعض الأحيان كي يشكرنه على السماح لهن باستخدام المكتبة. في الواقع، كان ينبغي أن تكون الكعكة لي أنا، لكن إذا كنت تبذل جهدًا حتى تصبح غير ملحوظ، فيجب عليك ألا تنزعج حقًّا عندما لا يعيرك الناس أي انتباه.

قال آرتشي وهو يعانقني:

- آه، لقد عادت متشردتي الصغيرة الضالة.

قلت وأنا أحاول الابتعاد:

- مرحبًا.

لكنني لم أكن سريعة بما يكفي لتجنب ما لا مفر منه، فسألت كيت وهي تنظر إليَّ بنصف ابتسامة:

- متشردة ضالة؟

تبعتني ضحكة آرتشي وأنا أبتعد، ولم أكن في حاجة إلى الاستماع لما سيقوله، حيث كنت أعرف السيناريو.

- التقيت بها عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، حيث جاءت مع رحلة مدرسية من ريبون، وظنَّت أنها تستطيع الخروج وفي حوزتها نسخة من رواية «التملك» من دون أن ألحظ ذلك. كنت في الخارج أدخن غليوني، لذا أمسكت بها. أخبرتها أنه يمكنها أن تأتي معي إلى مركز الشرطة، أو يمكنها أن تعمل معي في فترة ما بعد الظهيرة، وظللت أراقبها.

توقف عن الحديث ليسمح لهن بالضحك، ثم تابع:

- وأخبرتها أنها تستطيع العودة والعمل مقابل المال والكتب، إذا أرادت ذلك. والآن...

لوَّح بيده نوعًا ما، وقال:

- انظروا! ها هي، أمينة تمامًا. تلك يا أصدقائي هي قوة الأدب.

تعالى مزيد من الضحكات، وهمهمات الاستحسان التي كنت أعرف أنها لن

تمنع عضوات نادي الكتاب من مراقبة حقائبهن في المرة القادمة التي يشاهدنني فيها. بدأت العمل بين الخرائط وكتب الشعر وأنا أشعر بالحرج.

كانت هناك بعض الأوقات التي سمعت فيها القصة، وأردت الخروج لتقديم جانبي من الحكاية: كنت في رحلة مدرسية، وهي رحلة ممتعة بلا جدول محدد عند نهاية الفصل الدراسي، وقررت الذهاب لأن البديل كان البقاء في المدرسة مع الطلبة الذين حُرموا من الذهاب، ولم أكن لأستمتع بوقتي معهم على وجه الخصوص.

ذهبت إلى يورك وأنا أخطط لشراء مزيد من الكتب، لكن محفظتي سُرقت من حقيبتي في الحافلة. جلستْ بجانبي لحظة إحدى الفتيات، ممَّن يتجاهلنني عادة، وسألتني شيئًا عن واجباتي المدرسية، بينما جلست صديقتها في المقعد الخلفي، ومن المفترض أنها أخذت أموالي حينها. وعندما أدركت ما حدث، انتابني شعور بالغضب ممزوج ببعض الارتياح لأنهما لم تأخذا أي شيء آخر، لأن الشعور بالجوع أمر مزعج، لكن التعرض للإذلال الممنهَج من خلال قيام الآخرين بمشاركة الأجزاء الأكثر وحدة من مذكراتك الخاصة أمر مختلف تمامًا.

كنت مهووسة برواية «التملك» حينها، ولم تكن هناك نسخة في مكتبة المدرسة، وقد مُنعت من استعارتها من المكتبة العامة مجددًا بسبب وجود قائمة انتظار. كان في إمكاني العيش من دون الأشياء الأخرى التي أردت شراءها - فليس الأمر كأن امتلاك سترة جديدة سيجعلني أكثر شعبية في المدرسة الثانوية - لكنني كنت في حاجة إلى نسخة من ذلك الكتاب. وبعد اختفاء محفظتي، كان لديَّ جنيه واحد في جيبي، وكان سعر الكتاب جنيهين، وقد تركت الجنيه الذي في حوزتي على الطاولة في أثناء رحيلي. ولا أدَّعي أن ما فعلته كان صحيحًا، لكن كانت هناك ظروف مخففة. عادة ما يترك آرتشي ذلك الجزء من الحكاية، لكن كي أكون منصفة حياله، فهو عادة ما يترك أيضًا ذلك الجزء المتعلق بما حدث بعد أن انتزعني من على الرصيف ودفع بي إلى العمل، وكيف أنه أحضر لي الشاي

وشطيرة تونة، ولعبت دور أوليفر تويست[1] بالكامل بعد أن تناولت طعامي ثم سألته إذا كان سينهي طعامه. لم أكن أتضور جوعًا باستمرار، لكنني لم أتناول الغداء لأنه لم يكن لديَّ أي أموال.

كانت صناديق الكتب التي تركها لي لأفرزها أطول مني. أحضر بِن البعض وترك البعض الآخر عند الباب.

كان معظم الكتب الموجودة في الصناديق عبارة عن قمامة، سيُعاد تدويرها مباشرة. لا نخبر الناس أننا نتخلص من الكتب بهذه الطريقة، فعلى الرغم من أنهم قد يتخلصون من الكتب، فإنهم لا يلقونها في سلة المهملات، ولا يحبون أن يعتقدوا أننا نفعل ذلك. لكن فكر في الأمر: نُشرت خمسة ملايين نسخة ورقية من رواية «شيفرة دافنشي» في عام ٢٠٠٣. فكم نسخة منها لا يزال العالم في حاجة إليها بعد مرور خمسة عشر عامًا؟ أقل بكثير من خمسة ملايين. والأمر نفسه ينطبق على كل الكتب التي حققت نجاحًا كبيرًا: «من حرك قطعة الجبن الخاصة بي؟»، و«طعام، صلاة، حب»، وأي كتاب عن مصاصي الدماء. ستظل هناك تخمة أبدية في بعض الأشياء إذا لم يخرجها شخص ما من التداول عندما تتاح له الفرصة، وأنا أحد هؤلاء الأشخاص. يجب أن تتوجه إليَّ بالشكر. وأجل، فإن ذلك يحطم قلبي بعض الشيء، حتى لو كانت كتب جيمس باترسون.

ومع ذلك، من بين الكتب الأكثر مبيعًا، لفت انتباهي كتاب واحد، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى اختلافه بعض الشيء عن الكتب الأخرى التي معه في الصندوق، لكن أيضًا لأنه كان لدينا في المنزل. كان ملكًا لوالدي إبان طفولته، وكان من الغريب حقًّا أن يمتلكه طفل في السبعينيات. كان مجموعة من أغاني الأطفال تُسمى «الإوزة الأم»، مع رسوم توضيحية لكيت جريناواي على طراز ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبه إشارات إلى التنورات الداخلية والغَزْل. لكنه كان متعلقًا

(١) الإشارة هنا إلى رواية الكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز، «أوليفر تويست»، وبالتحديد إلى المشهد الذي يطلب فيه أوليفر مزيدًا من الحساء في الملجأ. (المترجمة).

به بدرجة كافية لوضعه في الحقيبة الوحيدة التي وضع بها أشياءه وجلبها من منزل والديه في كورنوال بعد وفاتهما.

قلبته بين يدَي. أشارت الصور التي رأيتها لوالدي خلال طفولته إلى أنه كان صبيًّا صغيرًا مشاغبًا قذرًا يتسلق الأشجار، واستمتعت بالتفكير فيه وهو يفتح هذا الكتاب ويقرأ لنفسه «الآنسة مافيت الصغيرة»، وبعد ذلك في اللحظة التالية، شعرت بالرغبة في البكاء.

أعتقد أنني كنت لا أزال في تلك المرحلة حيث كل شيء ليس على ما يرام بعد، وحيث يؤثر فيك كل شيء. كنت أفكر في كيف أنه لا يوجد أحد أستطيع سؤاله عن كيف انتهى الأمر بالتحديد بحصول والدي على نسخة من هذا الكتاب. من اشتراه؟ ولماذا احتفظ به؟ تفحصت الكتاب، ورأيت أنه نسخة أمريكية أُعيدت طباعتها عام ١٩٧٨ من النسخة الأصلية التي صدرت عام ١٨٨١. خطر لي أنه قد يشتريه البالغون من محبي كيت جريناواي، أو كبار السن الذين يتذكرونه من طفولتهم ويريدون أن يعرضوه على أحفادهم. لذا لم يكن هناك تفسير واضح لحصول والدي، الذي لم يكن لديه أي أقارب أمريكيين أعرفهم، على هذا الكتاب.

عندما تُنسف عائلتك (تنفجر داخليًّا؟) فإن الأشياء الكبيرة هي التي تؤلمك بعض الوقت، مثل تأثير الصفعة، لكن سرعان ما يتلاشى ذلك، لأنه يتعين عليك أن تألفه، وطريقة اعتياد الأمر في الأساس هي عدم التفكير فيه. لكن الأشياء الصغيرة كهذه هي التي تؤثر فيك إلى الأبد، على حد علمي.

قلَّبت الصفحات بعناية. لم تكن هشة، بل ناعمة، وتبدو كأنها قابلة للإصابة بالكدمات، وشعرت كما لو أنها يمكن أن تنفصل بين أصابعي، مثل البتلات الممزقة من زهرة الأقحوان. أعتقد أن السبب هو حقيقة أن هذه الذكريات الصغيرة تأتي إليك على نحو مفاجئ بكل بساطة، عندما تصادف شيئًا يدفعك إلى التفكير فيها، وبالتالي لا يمكنك حماية نفسك منها، فتؤثر فيك وتخلف في القلب جروحًا كالجروح الناتجة عن الورق.

لا أدري ما إذا أدرك آرتشي أنني أواجه وقتًا عصيبًا مع هذا الكتاب بالتحديد

وأنا جالسة عند بار الإفطار، فدائمًا ما أندهش مما يمكنه استنتاجه من خلال النظر إلى مؤخرة رؤوس الناس: يمكنه النظر إلى شخص ما يتصفح الكتب، ويتنبأ بدقة تصل إلى تسعين في المائة تقريبًا ما إذا كان سيشتري الكتاب، وما إذا كان سيحاول المساومة إذا فعل ذلك. ويدَّعي أنه تعلم قراءة لغة الجسد بعد «قضاء الوقت مع بعض المحتالين» في لندن في السبعينيات.

مهما كان الأمر، فقد ظهر بجانبي، وقال:

- الكاكاو الساخن.

عندما أجلب المشروبات من المقهى المجاور، يقدمونها إليَّ في أكواب من الورق المقوى. لكن عندما يذهب آرتشي إلى المقهى، يعود ومعه أفضل خزف صيني لديهم.

- فلتأخذي قسطًا من الراحة، يا لافداي. لا أريد أن أراكِ لمدة نصف ساعة.

وعلى الرغم من أنني انزعجت منه، من حيث المبدأ، لأنه: (أ) افترض أنني أريد الكاكاو الساخن، و(ب) أجبرني على أخذ قسط من الراحة كما لو أنه يعرف احتياجاتي أفضل مني، لكن مع ذلك فقد ذهبت وجلست على الكرسي أمام مخرج الطوارئ وراقبت الكريمة وهي تذوب، وقطع المارشميلو تطفو فوق الشوكولاتة ذات اللون البني الحليبي. أخرجت قطع المارشميلو، وامتصصت الأجزاء الخارجية منها حيث صارت طرية بفعل الحرارة، ثم أسقطتها مرة أخرى لتذوب أكثر. ومن الواضح أنني كنت وحدي، فلم أكن لأفعل ذلك في وجود صحبة. شربت الكاكاو وغسلت يدَي، وألقيت نظرة فاحصة على كتاب «الإوزة الأم».

قلَّبت الصفحات إلى أنشودة «جون القافزة» ومرَّرت يدي عبر الصفحة. «هأنذا، جون الصغيرة القافزة، في غياب أي صحبة، أنا دومًا منفردة». كانت معلَّقة في الهواء وأشرطة ثوبها متطايرة، وعيناها مغمضتين. وكانت هناك علامة على زاوية الصفحة، لطخة من بصمة إبهام. دائمًا ما كانت والدتي توبخ والدي لتركه بصمات أصابع قذرة في جميع أرجاء المكان، فكان يقول:

- حسنًا، تفقَّدي أنت زيت السيارة إذن.

على الأقل كان ذلك قبل أن يصبح كل ما قالاه لبعضهما بداية تنافس لمعرفة من يمكنه توجيه أكبر قدر من الإساءة، وبسرعة أكبر. لا بد أن بصمة الإبهام تلك مجرد مصادفة. لم أفكر في أين من المحتمل أن يكون كتاب والدي خلال العشرين عامًا الماضية، لأن هناك خطورة في محاولة جعل كل شيء يتماشى مع القصة التي تريد سردها. (ومضت قصيدة ناثان في ذهني مجددًا). ما عليك سوى النظر إلى رواية «إيما» لجين أوستن حتى ترى ذلك، فهي تقرر ما يجري حولها، وترتب الحقائق في ذهنها بما يتوافق مع ذلك، وانظر ماذا يحدث. حسنًا، إنها تحظى بالسعادة في النهاية، أجل، لكن ذلك فقط بعد المرور بما يعادل دفع رأسها داخل المرحاض في القرن التاسع عشر. وكان كتابنا - أنا ووالدي - لا يزال محميًّا بغلاف ورقي خارجي، حتى لو كان في حالة سيئة نوعًا ما، وقد كتب اسمه هناك، وكتبتُ اسمي تحته، على الجزء الداخلي من الغلاف الأمامي.

تذكرت كم أحببت نسخة والدي من هذا الكتاب عندما كنت طفلة، حيث تمكنت من قراءته بسهولة بالغة في طفولتي. توجد ست عشرة كلمة في الصفحة تقريبًا، وأحببت تهجي الكلمات التي لم أكن أعرفها: «متكأ، مزلاج، حلوف»، وسؤال والدتي أو والدي عن معناها. آه، والصور: لم يكن هناك أحد جميل أو سعيد بدرجة زائدة على الحد. بدت الفتيات هزيلات، كما بدت الكلاب كما لو أنها ستعضك. لم يكن مثل أي كتاب آخر رأيته. لم يعجب والدتي، وكانت تقول:

- لا أعرف كيف لا يسبب لك الكوابيس.

وبصرف النظر عن عدد المرات التي كنت آخذه فيها إلى غرفة نومي، دائمًا ما كان ينتهي به المطاف على الرف في الطابق السفلي. قال والدي إنها تتصرف على نحو يتسم بالهشاشة، وكان يسألني:

- نحن لسنا هشَّين، أليس كذلك يا طفلتي؟

فكنت أهز رأسي بجدية، لأنني أدركت من خلال أشياء أخرى سمعته يقولها أن الهشاشة أمر سيئ. كان يقرأ معي الكتاب وهو يزمجر ويبالغ في الأداء: «جميعنا فتية مرحون، ومع الصخب نحن قادمون»، وكنت أضحك.

فكرت في أخذ الكتاب كجزء من الحصة المسموح لي بأخذها من الكتب، لكنني قررت ألا أفعل. عندما أمسكته، بدا الأمر كما لو أنني عدت على حجر والدي في منزلنا الصغير، ووالدتي تضحك وتطقطق بلسانها، وأنا أقهقه، وصوت والدي يصلني ليس من خلال أذنَي فحسب، بل عبر مقدمة صدره العريض، مما جعل ضلوعي تهتز كالشوكة الرنانة. وعلى الرغم من أن ذلك كان أمرًا لطيفًا نوعًا ما، فإنه كان أيضًا لا يُطاق، وفضَّلت الابتعاد عنه.

لا أعرف ما إذا كان ذلك بفعل انعزالي أكثر من المعتاد بسبب إصابتي بالبرد، أم بسبب الشعور الذي انتابني وأنا أتصفح الكتاب، لكنني في الواقع كنت أتطلع إلى الأمسية الشعرية. ظللت عالقة في أفكاري بدرجة أكبر من اللازم، كما أن الكتب التي قرأتها، «قلب الظلام»، و«اللون الأرجواني»، جعلتني في الأساس عالقة في أفكار الآخرين. لذلك لم أتجادل مع نفسي بشأن الذهاب، بل ذهبت فحسب. لو أنني عامل تنظيف مداخن، لكنت أُصفِّر وأنا أغلق المكتبة. كانت تلك هي أول أمسية منذ زمن بعيد أشعر فيها بأنني على طبيعتي، على الرغم من انزعاجي من الإوزة الأم وأتباعها الغريبين ذوي الوجوه العابسة.

رافقني روب مرة أخرى، من دون أن أدعوه، إلى الأمسية الشعرية: خرج من باب المقهى تمامًا كما لو كان بفعل السحر، في اللحظة التي عدت فيها من خلف المكتبة ومعي دراجتي. لم أرَه كثيرًا منذ عودتي بعد مرضي، ولم أفكر فيه في الواقع، لذا جفلت عندما ظهر، فضحك، مما أزعجني. لهذا بدلًا من تجاهله، قلت:

- ما كان عليك إفراغ الهواء من إطار دراجتي، يا روب. كان هذا فعلًا دنيئًا للغاية.

قال بسرعة أكبر من اللازم:

- لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه، يا لافداي.

قلت:

- كلانا يعرف أنك تعرف، يا روب.

ونظرت إلى وجهه مباشرة، وهو ما لا أفعله غالبًا مع أي شخص. تلكما العينان البنيتان. رمش أولًا، ثم قلت:

- هل تعتني بنفسك كما يجب؟

قال بسخرية:

- لست على وشك أن أفقد عقلي في تعاملاتي مع الناس، إذا كان هذا ما تعنينه.

شعرت بالبرد، على الرغم من أنها كانت أمسية دافئة، وشرعت في السير، وقلت:

- لم أقل إنك كذلك، كنت أعني فحسب...

تخليت عن الأمر، فأنا لا أجيد التعامل بلطف.

فصمت قليلًا ثم قال:

- أنا بخير. لقد مررت بـ... نوبة... خلال عيد الميلاد، لكنني أفضل الآن. لديَّ ما أحتاج إليه من المساعدة، وأعرف متى أطلبها.

قلت:

- هذا جيد. وماذا عنك أنت وميلودي؟

قال:

- الأمر ليس جادًّا في الحقيقة.

أدركت أنه قد يفسر ذلك بوصفه اهتمامًا مني، (كل هذا معقد للغاية)، فقلت:

- لا أحب حقًّا عندما تدفع الزهور عبر الباب.

قال:

- حسنًا.

كنت سأسأل عمَّا إذا كان ذلك يعني «حسنًا، لن أفعل ذلك بعد الآن» أو «حسنًا، لكنني لا أهتم وسأستمر في القيام بذلك»، أو حتى «سأترك الزهور وأقوم بشيء آخر، وهو ما لن يعجبك أيضًا، لأنه ليس من المهم سواء أأعجبك ذلك أم لا».

سرنا في صمت.

كانت الساعة قبل السابعة والنصف بقليل عندما وصلنا إلى حانة جورج والتنين، وبدأت أربط دراجتي بالسلسلة عندما ظهر ناثان عند المدخل.

سألني:

- أتشعرين بتحسن يا لافداي؟

قلت:

- كانت مجرد نزلة برد.

أومأ ناثان برأسه وابتسم. لديه ابتسامة جميلة، ويبدو كما لو أنه يعنيها بالفعل، حتى لو كان يفرط في استخدامها بعض الشيء. لم يسعني سوى أن أبادله الابتسام. وقف روب معي، ونقل نظره بيننا.

قال:

- ما هذا الذي سوف تحضرينه، يا لافداي؟

فكرت: فلتنظروا إليَّ، ها هما رجلان في مواجهة بسبب خططي المسائية. يعاني أحدهما من بعض مشكلات الصحة العقلية الخطيرة إلى حدٍّ ما ويلقي محاضرات في دراسات عصر النهضة المبكر، والآخر يرتدي ربطة عنق. الأمر مثير للسخرية إلى درجة يصعب تصديقها.

قلت:

- إنها أمسية شعرية، وأحيانًا تأتي ميلودي.

قال ناثان:

- لقد حجزت لكِ مكانًا.

نظر إليَّ، ثم إلى روب، وظهرت في عينيه نظرة غريبة. أعتقد أن ناثان لاحظ أن لغة جسدي بأكملها تخبر روب أنه غير مرحَّب به. وهو أمر كان واضحًا أنه يفوق قدرة روب على الملاحظة.

إما ذلك، وإما أنه وجدها فرصة للتباهي. مد يده لمصافحة روب، وقال:

- ناثان أفبوري. هل ستنضم إلينا أنا ولافداي؟

ثم وضع يده الأخرى، بخفة شديدة، أسفل ظهري، مما جعلني أتساءل عمَّا إذا كان الرجال يتلقون دروسًا في السلوكيات. كانت خطوة عبقرية.

تراجع روب خطوة إلى الوراء، وهز رأسه.

قلت:

- لا تلمس دراجتي.

صعدنا أنا وناثان الدَّرج، ودخلنا الحانة. لم يتحرك روب، وأخذ ينقل نظره بين ناثان وقطعة الشوكولاتة التي على شكل عملة معدنية في يده.

قلت لناثان عندما وقفنا عند البار:

- شكرًا لك، لم يكن عليك أن تفعل ذلك.

قال:

- أعرف هذا.

ثم أضاف:

- شقيقتي أيضًا جميلة، وتواجه كثيرًا من المتاعب. شاهدتُ الأمر لسنوات، وأحب أن أقدم يد المساعدة عندما أستطيع.

أعتقد أنني تخيلت كلمة «أيضًا». طلب ناثان نصف لتر من بيرة جينيس، وجيمليت. عندما جلبهما الساقي، ناولت ناثان خمسة جنيهات وقلت:

- هذا مقابل مشروبي، شكرًا لك.

قال:

- لماذا لا تشترين أنت المشروبات بعد النصف الأول من الأمسية، وسنكون متعادلَين؟

حلَّ ناثان في المركز الرابع مرة أخرى، وهو أمر وجدته مؤسفًا. كما فكرت في قصائدي، وتساءلت عمَّا سيحدث لها هنا إذا قرأتها بصوت عالٍ. اعتادت الآنسة باكلي الحديث عن التراث الشفهي، على نحو غير مباشر (ها ها!)، لكنها كانت تقول:

- تذكروا، في الأيام الخوالي، قبل أن يعرف الناس كيفية القراءة والكتابة، كانوا يروون القصص لبعضهم ويتذكرونها. إذا كتبتم قصة، فعليكم قراءتها بصوت مرتفع، لتروا وقعها على الأذن.

لا أنسى ذلك أبدًا، وكنت أهمس لنفسي بواجب اللغة الإنجليزية بصوت منخفض، إذا كانت المكتبة هادئة.

تبدو الكلمات مختلفة عند نطقها. ذات مرة، قرأ أحد المعلمين على الفصل شيئًا كتبتُه: كان وصفًا للبحر، وكيف يبدو أنه يظل على حاله دومًا، مع أنه ليس هو نفسه أبدًا. جعلني سماع كلماتي بصوت عالٍ أشعر بالفخر، وبأنني ظاهرة للعيان. أحببت المسرحيات المدرسية، على الأقل حتى صارت لنظرات الناس إليَّ معانٍ ضمنية أخرى، وأصبحت تعني الهمسات والشائعات. لذا أحببتها حتى (وبما في ذلك) دوري الذي نال استحسانًا نقديًّا (من قبل والدَي) كشخصية بلاوزي براون في مسرحية «باجزي مالون». لكن كلمات الآخرين آمنة وسهلة. قراءة ما كتبتَه بنفسك أمر مختلف: يمكن لكلماتك أن تنتزع أحشاءك عند خروجها.

كانت قصيدتي المفضَّلة في تلك الليلة، فضلًا عن قصيدة ناثان، تتحدث عن مدى تعقيد اختيار النبيذ في السوبر ماركت.

أتت ميلودي للجلوس معنا خلال الاستراحة.

- أخبرني آرتشي أنك لا تزالين مريضة يا لافداي، لكن ها أنت هنا مع ناثان الوسيم.

شعرت بالرغبة في سؤالها عن سبب عدم وجود روب معها، لكنني لا أحب النميمة.

أعتقد أن محاولة الهروب من ميلودي كانت السبب الذي دفع ناثان إلى النزول معي عندما رحلتُ. أو ربما كان ذلك لأنني أخبرته بشأن روب والإطار. على أي حال، كانت دراجتي بخير، ووقفنا على الرصيف، نتجاذب أطراف الحديث، فيما تناول بقية محبي الشعر مشروبًا آخر، ومرَّ بنا الأزواج المندمجون في الحديث عن أمسياتهم.

قال:

- أردت سؤالك، من أين أنت؟ يبدو من حديثك أنك من يوركشاير، لكن ليس من يورك تحديدًا.

أخذت السؤال بشكل حرفي، بدلًا من غرضه الحقيقي، وقلت:

- أعيش على بُعد عشرين دقيقة تقريبًا من المكتبة. إنها منشأة سكنية جديدة نوعًا ما، وهي لطيفة.

ابتسم ناثان بلطف، كما لو أنه يعلم أنني أحاول التهرب من السؤال، أو كما لو أنني أغازله، وقال:

- وأين مسقط رأسك؟

قلت:

- ريبون.

ولم يكن هذا غير صحيح.

قال ناثان:

- لقد نشأت في بريدلينجتون.

حاولت التفكير في شيء لأقوله عن بريدلينجتون، لكنني لم يسبق أن ذهبت إلى هناك.

- إنها على الساحل، أليس كذلك؟

تلك الابتسامة، مرة أخرى.

- بلى، أفتقد وجودي بجانب البحر. أفتقده حقًّا، حتى بحر الشمال.

امتلأ صوته بالضحك، وتابع:

- عندما كنا صغارًا، كنا نذهب إلى كورنوال. كان لوالدَي صديق يعيش هناك، وكانت تلك المرة الأولى التي اكتشفت فيها أنه يمكنك حقًّا اللعب في البحر.

لم أرغب في أن أتحدث عن كورنوال، وقلت:

- كان يجب أن تحصل على نتيجة أفضل الليلة.

قال:

- أعرف هذا.

وتبدلت ابتسامته من اللطف إلى الغرور. ولو كنت واحدة من أولئك الأشخاص الذين يتواصلون مع الآخرين من خلال اللمس، كنت سألكم ذراعه على سبيل المداعبة لأقول له: «لا تكن أحمق».

- هل أنت واثق بنفسك إلى هذا الحد دائمًا؟

نظر إليَّ ثم تغير وجهه مرة أخرى، من تلك النسخة العامة، إلى النسخة التي رأيتها عندما بدا كما لو كنا الشخصين الوحيدين الموجودَين بالمكان. قال:

- لا ينتبه الجميع بالقدر نفسه مثلك، ونظرًا إلى أنني موجود هنا منذ فترة طويلة، فقد أصبحت أشبَه بجزء من الأثاث، ويعرف الناس أسلوبي.

لم يقل ذلك بالطريقة التي كان روب سيقولها بها، مشفقًا على نفسه، بل ذَكَر الأمر كَحقيقة فحسب.

كنا ننظر إلى بعضنا، ولم نتوقف، حتى بدأ الأمر يتحول إلى تحديق، والتحديق ليس من طبيعتي.

قلت:

- حسنًا، سأمضي في طريقي إلى المنزل.

وكان من المريح أن أتمكن من إبعاد نظري عن وجهه.

قال:

- كان من الرائع رؤيتك يا لافداي.

وضع يده على كتفي، ثم قبَّلني على وجنتي برقة بالغة. لم تكن متقدة بالعاطفة، لكنها بدت مثيرة للغاية. لو كنت أسعى إلى البحث عن حبيب، لربما أحببتها. فتحت قفل دراجتي.

قلت:

- أين وضعت قطعة الشوكولاتة؟

فضحك وقال:

- لا أفعل ذلك إلا في المرة الأولى التي أقابل فيها الشخص، حيث سيصير الموضوع مكررًا، لكنني أستثني فقط الأطفال دون سن العاشرة.

* * *

في ليلة الثلاثاء التالية، أبدت عضوات نادي الكتاب حماسهن للغاية. كن يقرأن رواية «بعد رحيلك» لماجي أوفاريل، على الرغم من أنهن لم يجرين مناقشة

حولها كما ينبغي، بل ذكرن فقط ما إذا أعجبتهن أم لا (وكانت النتيجة خمسة إلى اثنين لصالح الرواية، وستة إلى اثنين إذا حُسبت أنا). اتخذت المرأة المطلقة لنفسها عشيقًا، بينما أظهرت بقيتهن الشعور بالإثارة والغيرة. ولا أتوقع سوى المشكلات، ولا سيما أن إجراءات الطلاق لم تنتهِ بعد.

سكبت إيزي كأسًا من النبيذ الأحمر على السجادة، وأبدين جميعهن الاعتذار لذلك، فأخبرتهن أنه لا أهمية للأمر، وبعد رحيلهن ذهبت إلى متجر البقالة الكائن عند الناصية على بُعْد شارعين، واشتريت عبوتين من الملح، واحدة لأرشها فوق النبيذ المسكوب، والأخرى كي أحتفظ بها في مؤخرة المكتبة للمرة المقبلة.

قال آرتشي عندما ولجت المكتبة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي:

- صباح الخير، يا لافداي.

ثم اندفع خارجًا من الباب. كان غليونه جاهزًا بالفعل، ومستعدًّا للتدخين، وسرعان ما أدركت لماذا كان في عجلة من أمره. كنت قد تركت رسالة أطلب منه فيها تنظيف الملح بالمكنسة الكهربائية عند وصوله، لكنه لم يفعل بالطبع. وعندما عاد عقب انتهائه من التدخين ومن جولته في الحي، بعد أن اشترى زجاجة من مشروب البورت وكيسًا من الكمثرى الصينية، ادَّعى أنه لم يرَ الرسالة. كانت ملصقة على آلة تسجيل النقود، كما تركت المكنسة بالخارج، لذا لا بد أنه تجاوزها في أثناء مروره ليعلِّق معطفه. لكن هذه هي طبيعة آرتشي.

لذلك، كانت هناك كومة من الملح تحت الطاولة، ركلتها الأقدام ونشرتها في جميع أرجاء المكان، وشعرت بالغضب الشديد عندما انتهيت من تنظيفه كله. وعندما حان وقت الغداء، أكلت رقائق الحبوب والموز، ولم أكن قد فعلت أي شيء له علاقة بالكتب سوى أنني دللت شخصًا ما على مكان كتب الطهي، وحاولت ألا أبدو كما لو أنني تجمدت (نكتة آرتشي، ها ها!) بينما أستمع إلى مونولوج متواصل عن مضار القمح، أو ربما السكر. حسنًا، لم أكن أستمع.

بعد الغداء، حذرت آرتشي من إزعاجي، وذهبت إلى بار الإفطار لتقييم

مجموعة من الكتب. انحنى وابتسم، وبعد ساعة أحضر لي الشاي ودونات بالمربى. الدونات هي العدو الطبيعي للكتاب، لأنه حتى لو لم تلوث الصفحات بالمربى، فسينتهي بك الأمر وقد نثرت السكر في كل مكان، لكنني قدَّرت هذا الاعتذار الضمني.

بعد الانتهاء من الدونات، تفحصت محتويات صندوقين من النوتات الموسيقية، ولم يكن هناك أي شيء نادر، لكن كلها كانت محفوظة جيدًا. يطلب كثير من الناس النوتات الموسيقية، وأحب بيعها. أعتقد أنني أحب فكرة المنازل التي يوجد بها بيانو، حيث تبدو كأنها من ذلك النوع من الأماكن التي لا يحدث فيها ما يسوء حقًّا. على أي حال، أسعدني ترتيبها بعض الشيء. فكرت في الحصول على وشم موسيقي، لكنني لم أستطع التفكير في افتتاحية أي مقطوعة موسيقية يمكنني العيش معها إلى الأبد. إلا أن الأسطر الافتتاحية من الكتب مسألة مختلفة، ولست نادمة على أي من تلك التي وشمتها، ولا حتى «جين إير» و«أطفال السكة الحديد» الموشومين على كتفي، اللذين سبَّبا لي ألمًا شديدًا. يبدو الآن أنه من السهل التنبؤ بأول وشم (آنا كارنينا). لكن عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، وقد اكتشفت الأدب الروسي للتو، شعرت كما لو أن تولستوي يخاطب روحي قائلًا: «جميع العائلات السعيدة متشابهة، لكن كل عائلة تعيسة هي تعيسة بطريقتها الخاصة». لذا وشمت ذلك على فخذي، بخط ناعم ودقيق. وأجل، سوف يترهل مع بشرتي يومًا ما، لكنني لا أكترث لذلك حقًّا.

في أثناء الترتيب، قرأت لنفسي بعض القصائد في ذهني. جعلتني الأمسية الشعرية أفكر فيها على نحو مختلف، بوصفها أشياء ربما ينبغي أن تكون طليقة في الهواء، بدلًا من كتابتها وإعادة كتابتها على الصفحة حتى يجعلها خطي المتأني وتفكيري في كل مقطع لفظي جامدة مثل الألواح. وفي مساء يوم أحد، عندما كنت أفكر في ناثان، أخرجت كل شيء، القصائد التي كتبتها منذ أواخر مراهقتي حتى الوقت الحالي، وقرأتها كلها بصوت عالٍ. بعضها كان فظيعًا، لكن القصائد الأحدث لم تكن سيئة للغاية. بدأت العمل على قصيدة جديدة، وقبل أن أدرك

الأمر، تجاوز الوقت منتصف الليل، ولم أكن قد تناولت بعْدُ وجبة المعكرونة بالتونة المُعدَّة للتسخين في الميكرويف، التي كان سعرها مخفَّضًا للتصفيات. كدت أرسل رسالة نصية إلى ناثان لألقي التحية، لكن الوقت كان متأخرًا للغاية، وعلى أي حال، ليس الأمر كأنني حبيبته أو أي شيء من هذا القبيل. لا بد أن لديه حبيبة تُدعى تريكسي أو ماكينا، تستخدم الزيوت العطرية النقية بدلًا من العطور، ولديها عمل غير وظيفي كمهنة الساحر، مثل صناعة القبعات أو التنكر في ملابس الأميرات من أجل حفلات الأطفال.

ولهذا السبب أحاول الإخلاد إلى النوم قبل منتصف الليل، لأنني أصير متعكرة المزاج ومتبلدة الذهن إذا لم أفعل.

فوَّتُّ الأمسية الشعرية التالية، فليس الأمر كما لو أنني ملزَمة قانونًا بالذهاب. وكلما فكرت في القصيدة الأولى التي سمعت ناثان يلقيها، وما إذا كان في إمكاني أن أروي قصة مختلفة عن نفسي - على الرغم من أن هذه نقطة خلافية لأنني لا أتحدث عن نفسي حقًّا على أي حال - شعرت بالتوتر ولم يعجبني ذلك.

رأيت ناثان بعد ذلك عندما جاء إلى المكتبة يوم الأربعاء التالي. أدركت أنني لا أعرف أين يعيش، لكنني بدأت أفترض أنه في مكان ما خارج المدينة، ربما بين يورك وبريدلينجتون، لأنه عادة ما يأتي يوم الأمسية الشعرية نفسه، مما يشير إلى أنه لم يكن في مكان قريب على وجه التحديد. نويت دائمًا سؤاله عندما أراه، لكن كان ينتهي بنا الأمر بالحديث عن أشياء أخرى: الشعر، ويورك، وآرتشي، والسحر. وإذا سألته أين يعيش، ربما نتورط في سرد تفاصيل شخصية بدرجة أكبر مما أردت.

معطف ناثان الصيفي مصنوع من القماش الكاكي، وتفوح منه رائحة الطبيعة بالخارج، كما لو أنه قضى الشتاء مُخزَّنًا وسط كومة من القش. إنها رائحة طيبة، والمعطف ليس سيئًا، على الرغم من أنني أحببت المعطف الجلدي أكثر. وقف اليوم وتبادل الحديث مع آرتشي عشرين دقيقة تقريبًا، بدآ بالحديث عن يورك، ثم انتقلا إلى السياسة والاحتباس الحراري والمسرح وكرة القدم. أحببت

الاستماع إليهما. فليس من المعتاد أن يجري آرتشي كثيرًا من المحادثات، بل عادة ما يكون عرضًا أمام جمهور مؤلَّف من فرد أو فردين. وقد انتهى حديثهما على هذا النحو:

آرتشي:

- حسنًا، يا سيدي الفاضل، أنت لم تأتِ إلى هنا لتبادل الحديث مع العجوز آرتشي.

ناثان:

- إنه لمن دواعي سروري دائمًا رؤيتك.

آرتشي:

- هذا لطف منك، لطف كبير، ومع ذلك، فستجد لافداي تعمل على تقييم بعض الكتب عند بار الإفطار.

ناثان:

- شكرًا لك.

إن افتراض آرتشي بأن ناثان أتى لرؤيتي أشعرني بالإطراء بعض الشيء، وأزعجني إلى حدٍّ ما، كما أنني لم أكن أعمل على تقييم الكتب على أي حال، بل كنت أعيد ترتيب قسمَي السيَر والسيَر الذاتية الخاصَّين بالمجال الفني وأدمجهما معًا في قسم واحد، لأن الناس لا يفرقون بينهما بالضرورة، بل يريدون فقط «ذلك الكتاب عن ديفيد بيكهام/ مايكل كين/ أو ذلك الشخص من مسلسل شارع كورونيشن». فكرت أن دمجهما معًا سيوفر لي مساحة رف كامل، كنت سأحتاج إليه لأن بِن أحضر للتو صندوقين من الطبعات الأولى اللطيفة من السيَر الذاتية لممثلين من السبعينيات. سمعت ناثان يتوجه إلى المكان الذي ظن أنني موجودة فيه، ثم توقف وانتظر. قررت أنه إذا عاد إلى آرتشي ليبلغه عن غيابي ويسأله عن أي مكان آخر قد أوجد فيه، فلن أحضر الأمسيات الشعرية مرة أخرى أبدًا. فأنا لست دجاجة

ضالة تحركت من المكان الذي تُركت فيه، ولا أريد تضييع وقتي مع الأشخاص الذين يفتقرون إلى روح المبادرة. أدركت أنني أحبس أنفاسي.

لا بد أنه ظل واقفًا هناك نحو دقيقة، ثم سمعت وقع خطواته مجددًا، حيث إن المكتبة أيضًا بمنزلة متحف للألواح الخشبية القديمة التي تصدر صريرًا، وأتى نحوي مباشرة.

قال:

- مرحبًا، يا فتاة ريبون. رأيت الكتب على الطاولة، واعتقدت أنك تفسحين لها مكانًا. أتمنى أن تأتي إلى الأمسية الشعرية اليوم.

وقد ذهبت بالفعل.

في الحافلات

كما ألقاها ناثان أفبوري، في حانة جورج والتنين، يورك، أبريل ٢٠١٦

فقدت شيئًا واحدًا فقط في الحافلة.

حسنًا، وأنا أترجل من الحافلة.

كان كتابًا.

أعرف أنني شخص فظيع.

منذ ذلك الحين، أراقب الأشياء المنسية في الحافلات.

أعتقد أن الجيوب لها علاقة كبيرة بالأمر.

تنزلق الأشياء وتسقط بين ثنيات الوسائد وعلى الأرض، من دون إصدار صوت عالٍ بما يكفي عند السقوط للدلالة على فقدانها.

العملات المعدنية من فئة الجنيه.

أراهن أنك لو قلبت جميع الحافلات في يورك رأسًا على عقب وهززتها، سيكون لديك ما يكفي من العملات المعدنية لدفع راتب ممرضة.

اشتراكات الحافلات.

بالطبع.

أعتقد أنها قد تجد طريقها للعودة إلى المنزل، إذا كلَّف أي شخص نفسه عناء البحث عن مالكها.

أتساءل ما إذا كان هناك من يفعل ذلك.

تذاكر السينما.

ها هي الخطط الموضوعة بعناية لذلك الموعد الأول، قد ذهبت أدراج الريح.

مفاتيح المنزل.

آمل أن تكون على علاقة جيدة بجيرانك، وأن تكون لديهم مفاتيح إضافية.

ثم إن هناك الأشياء الأكبر حجمًا، التي تُنسى في لحظة ارتباك أو تعب، أو عندما تُفاجأ بالوصول إلى المحطة.

اليوم، كانت هناك حقيبة من متجر «ديبنهامز»، داخلها بيجاما من الساتان الرمادي المائل إلى الفضي، مقاس ١٤.

ربما تسبب نسيانها في إفساد أمسية أحدهم.

أو ربما تسبب في تغييرها.

التغيير والإفساد ليسا الشيء نفسه.

فمن دون البيجاما، قد يكون شخص ما مستلقيًا بين ملاءة قطنية وبشرة محبوبه.

ربما كان العري أفضل.

في المرة التالية التي تترك فيها شيئًا وراءك، ربما تكون قد أقدمت للتو على مغامرة جديدة تمامًا.

التاريخ

٢٠١٣

اعوجاج بسيط

رأيت روب للمرة الثانية بعد ثلاثة أسابيع من تركه قائمة الكتب، وقد طال شعره إلى درجة جعلته يحتاج إلى إبعاده عن عينيه. وضعت جانبًا كتالوج أحد المعارض، مع بعض الكتب الأخرى من قائمته، وراقبت وجهه بينما أخذ يتفحصها. نظر إلى عناوين الكتب، ثم إليَّ، وعيناه واسعتان ومشرقتان.

ابتسم قائلًا:

- لقد عملتِ بسرعة، شكرًا لك.

ثم انجذبت نظرته إلى الكتب مجددًا. لا أعتقد أنني كنت معجبة به. ربما قليلًا. فأنا لا أميل إلى الإعجاب بالأشخاص، بل أنا فتاة من ذلك النوع الذي يقبَل الشخص على علاته، أو يتركه تمامًا. لكن أعجبني أنه يحب الكتب. أعتقد أنني أحببت ذلك للغاية. كنت لا أزال صغيرة بما يكفي لأعتقد/ آمل أن حب الكتب يعادل التمتع بالحد الأساسي من اللياقة. فلطالما كان أمناء المكتبات طيبين معي.

قلت:

- هناك شيء آخر، لكنه لم يكن مدرجًا في قائمتك.

كان الكتاب الذي عثرت عليه عبارة عن مذكرات سفر منشورة ذاتيًّا تعود إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، ولم أتذكرها إلا لأن المؤلفة تُدعى فلورنسا، وقد استمتعتُ بفكرة كونها ذهبت إلى فلورنسا وكتبتْ عنها مذكرات (أطلقت عليها اسم «إيطاليا فلورنسا»). وقد تساءلت عمَّا إذا كان هناك نوع خاص من

الحتمية التي تدفع الأشخاص الذين يُسمَّون بأسماء أماكن معينة إلى الاهتمام بتلك الأماكن.

كان أسلوب فلورنسا بيكنيل النثري منمقًا في أحسن الأحوال، ولم تشعر بالحاجة إلى التقيد بأي شيء نافع، مثل الفصول أو حتى الموضوع. أدركت، بعد التنقل من أحد المعارض الفنية إلى الآثار الرومانية، ثم المشي في الريف ثم العودة إلى معرض فني آخر، أنها ربما كتبت عن الأشياء بالترتيب الذي شاهدتْها به فحسب. وإذا كان لديها شعار، فهو «الأكثر يعني المزيد»، وقد سجلت كل شيء، بدءًا بما ترتديه من ملابس، وحتى الطبيعة الشخصية المحتمَلة للنادلات والمرشدين. ومن الواضح افتخارها باهتمامها البالغ بالتفاصيل. لذلك استغرق الأمر مني أسبوعًا آخر لتصفح الكتاب والعثور على القسم الذي أبحث عنه. ولم يكن كتابًا ضخمًا، لكن الطباعة كانت سيئة، وقد جعل الأسلوب قراءته أمرًا مرهقًا بعض الشيء، مثل أعمال جويس.

علَّمت الصفحة بقصاصة من الورق، إلى جانب موضعَين آخرين حيث توجد أشياء قد تكون ذات صلة بالموضوع.

قال روب:

- شيء آخر؟

وابتسم، وفرك يديه معًا، كما يفعل رجل يشعر بالجوع في الرسوم المتحركة. ثم تذكرت أنه يعمل للحصول على درجة الدكتوراه، وأنني تركت المدرسة بعد حصولي على الشهادة الثانوية، ولم أعرف حتى بوجود هندسة عصر النهضة إلا قبل ثلاثة أسابيع. كنت ذكية بما يكفي للالتحاق بالجامعة، وفي الواقع، فقد تحدث المعلمون وأنابيل والاختصاصيون الاجتماعيون عن ذلك، لكن هذا كان يعني البقاء في النظام ثلاث سنوات أخرى، وثلاث سنوات أخرى من عدم القدرة على بدء الحياة الحقيقية الوحيدة التي يمكن أن أعيشها: حياة أعتمد فيها على نفسي بشكل كامل. وبالإضافة إلى ذلك، حتى لو حصلت على شهادة جامعية، فمن المرجح أنني سأظل أرغب في العمل في مكتبة.

نظرت إلى روب وأدركت أنه كلما واصلت صمتي فترة أطول، زاد اعتقاده أنني وجدت شيئًا مذهلًا حقًّا، مثل دفتر مفقود من برونليسكي، داخله رسالة من ليوناردو دافنشي، كما لو أننا في الواقع شخصيات من رواية «التملك». لذا مددت يدي بالكتاب وقلت بسرعة:

- ربما لا يكون شيئًا يستحق الذكر، فهو لم يكن على قائمتك، ولا أعرف شيئًا عنه حقًّا. لقد اعتقدتُ فحسب... هذا كتاب منشور ذاتيًّا في طبعة محدودة... وهناك وصف تفصيلي للغاية، وقد ذهبت المؤلفة إلى بعض المحاضرات عن العمارة في فلورنسا... هذا كل ما في الأمر.

أخذ روب يتصفح بالفعل الصفحات التي وضعتُ عليها علامة، ثم نظر إليَّ وابتسم، وسألني:

- هل فكرتِ يومًا في العمل في مجال البحث؟ يمكنك تعليم الأشخاص الذين أعمل معهم بعض الأشياء.

- لافداي لديها وظيفة بالفعل، وهي لا تتطلع إلى الذهاب إلى أي مكان.

جاء صوت آرتشي من خلف بعض الأرفف، حيث قال إنه سيتولى ترتيب بعض الأشياء، لكن نظرًا إلى غياب أي صوت، افترضت أنه يأخذ قيلولة.

أطلق روب ضحكة مشاكسة، بتوتر بعض الشيء، وقال:

- لا أحاول سرقتها منك، يا آرتشي.

ثم وجه إليَّ الحديث قائلًا:

- شكرًا لكِ، حقًّا، هذا... شكرًا.

قلت:

- بقي نصف ساعة حتى موعد الإغلاق، إذا أردتَ إلقاء نظرة على الكتب لمعرفة ما إذا كانت ستفيدك.

- حسنًا.

جلس إلى الطاولة، وعدت أنا إلى بار الإفطار لأكمل العمل الذي أديته عصر ذلك اليوم. كانت هناك طبعة أولى من «يوليسيس»، ونسخة موقَّعة من «أطفال

منتصف الليل»، عليَّ تحميلهما على الموقع الإلكتروني للمكتبة، وصندوق من الكتب المطبوعة بعدد زائد على الحاجة، إلى جانب ثلاثة صناديق أخرى جاهزة كي أتفحصها في الصباح التالي. حدَّثت الموقع الإلكتروني، ووضعت صندوق الكتب الزائدة على الحاجة أسفل الدرج. وعندما عدت إلى مقدمة المكتبة، وجدت روب واقفًا عند المكتب، يتبادل الحديث مع آرتشي، والتفتا إليَّ عندما اقتربت.

كان روب يقول:

- ... مفيدة حقًّا.

كان يمسك بكتاب مذكرات السفر، واحتسب آرتشي ثمنه بمنتهى الهدوء على آلة تسجيل النقود، بقيمة خمسة وأربعين جنيهًا إسترلينيًّا، ليصل إجمالي حساب روب إلى ستين جنيهًا إسترلينيًّا. كان آرتشي من أشد المؤمنين بقوى السوق. واعتاد القول إنه إذا كان هناك كتاب لا يرغب فيه أحد، فمن الأفضل تسعيره بثمن باهظ، لأنه في حال ما إذا عثر عليه الشخص الذي يريده، فلن يهتم بتكلفته. ومع ذلك، سجلت في ذهني ملحوظة لأوبخه بشأن الاحتيال على الناس، في الوقت نفسه الذي طلبت منه فيه ألا يتحدث عني بصيغة الغائب، في حين أنني في الواقع كنت على بُعْد ثلاث أقدام، وهو يتدخل في محادثة تخصني أنا.

- كان روب يقول للتو كم قمتِ بعمل رائع، يا لافداي.

قلت:

- شكرًا لك.

ناوله روب ستين جنيهًا، فهززت رأسي نحو آرتشي. كنت أعرف ما سيقوله: «العرض والطلب يحددان السعر». وقد جادلته أن هذا صحيح إلى حدٍّ ما، فإذا كنت تدير مطعمًا، فستتقاضى بالطبع ثمنًا أكبر مقابل المأكولات النادرة، لكنك لن ترفع سعر كعك السمك بناء على مدى جوع العميل.

سأل روب:

- هل نتناول مشروبًا معًا؟

افترضت أنه يتحدث إلى آرتشي، الذي لديه القدرة على أن يُشعِرك كأنك أفضل صديق له، وأنك شخص مميز للغاية، ولهذا دائمًا ما يريد الجميع قضاء الوقت معه. في البداية، اعتقدت أنه يتظاهر بالأمر، لكن سرعان ما أدركت أن هذه هي طبيعته بالفعل. إنه يهتم بالناس، الذين يستشعرون منه ذلك، في حين يستشعرون مني بشكل عام أنني لا أكترث أبدًا.

عملت في المكتبة لعام تقريبًا، قبل أن أدرك أن آرتشي كان قلقًا بشأني. أعتقد أن ذلك حدث عندما كنت سأفوِّت الحافلة - طلب مني إلقاء نظرة على الطبعات الأولى في الخزانة المغلقة الكائنة خلف المكتب، واستغرقت في الأمر تمامًا إلى درجة أنني نسيت الوقت - وأصر على أن يوصلني إلى المنزل على الرغم من أنه كان بعيدًا عن طريقه. وقال عندما ترجلت من السيارة:

- أنت مهمة حقًّا بالنسبة إليَّ، يا لافداي، أرجو أن تعرفي هذا.

قالها بجدية وهدوء، على نحو أشعرني بالأمان، كما لو كنت شيئًا محفوظًا بين صفحات موسوعة.

لكن روب كان يوجه الحديث إليَّ أنا، وليس إلى آرتشي. حاولت التفكير في طريقة أقول بها «لا» لتناول المشروبات من دون أن أبدو فظة للغاية، عندما قال:

- أود معرفة المزيد عن هذه الكتب، وكيف فكرتِ بها.

ولأن هذا هو ما أردت توضيحه بالضبط، قلت «نعم».

قال آرتشي:

- فلتذهبي إذن، ولا تفعلي شيئًا لن أقدِم عليه أنا.

ضحكت لأنني لم أستطع التفكير في شيء واحد لن يفعله آرتشي، لمرة واحدة على الأقل. ذهبت لإحضار معطفي، فتبعني إلى الخلف وأعطاني الأوراق النقدية الثلاث من فئة العشرين جنيهًا التي أعطاها له روب للتو، وقال:

- لقد كسبتِ هذه عن جدارة.

قلت:

- أنت محق، لقد فعلت.

لكنني ابتسمت أيضًا، لأنني قدَّرت هذه اللفتة، وحقيقة أن لديَّ أموالًا في جيبي. يمكنني دفع ثمن مشروباتي الليلة، وادخار الباقي.

عندما عدت إلى المتجر للقاء روب، قال لي:

- لا أريد أن أضيع أمسيتك بأكملها إذا كانت لديك خطط، لكن ماذا لو ذهبنا لنأكل شيئًا؟

بدا متوترًا للغاية، وظل يدفع شعره بعيدًا عن عينيه، لذلك ابتسمت وقلت إن هذا سيكون أمرًا رائعًا. حيث إن وجبتَي إفطار لا تكفيان المرء كثيرًا بعد الساعة السادسة مساءً، ولم أرغب في تناول الشراب على معدة فارغة.

ذهبنا إلى مطعم إيطالي وتناولنا كرات اللحم، التي كانت ساخنة ومتبلة، وبشرت النادلة جبن البارميزان فوقها على الطاولة، وبدت كما لو أن لديها عديدًا من الأشياء الأفضل التي يمكنها القيام بها ذلك المساء.

بدأ روب الحديث قائلًا:

- خبِّريني عن نفسك، يا لافداي.

اضطررت إلى اتخاذ سلوك مراوغ، وقلت بابتسامة:

- أنا أعمل في مكتبة، كما لاحظت.

فابتسم هو أيضًا والمعكرونة السباجيتي بين أسنانه. تابعت قائلة:

- لقد بدأت العمل هناك بدوام جزئي عندما كنت في الخامسة عشرة، وأحب عملي حقًّا، في معظم الأيام. أخبرني عنك.

قال روب:

- عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، تمنيت بشدة الحصول على وظيفة، لكنني عشت أنا وشقيقي مع جدتي، وكانت صارمة للغاية فيما يتعلق بالواجبات المدرسية. كنت سأحب العمل في مكتبة.

قلت:

- هل عشت مع جدتك؟

وكان في إمكاني أن أعض لساني حينها، لأنني من بين جميع الناس، عليَّ

أن أعرف أنه لا يجب التطفل. لكنه بدا سعيدًا بالحديث. وعلى الرغم من أنني مررت بما يمكن وصفه بعبارة ملطَّفة بأنه بداية سيئة في الحياة، فإن حياته لم تكن رائعة أيضًا، حيث عملت جدته على تربيته هو وشقيقه لأن والدَيه لقيا حتفهما في تفجيرات مانشستر عندما كان في السابعة من عمره. كما توفيت جدته وهو في التاسعة عشرة من عمره، ولم يعد على اتصال بشقيقه. وقال إنه «مرض» كثيرًا، لكنني لم أطرح أسئلة بذلك الشأن، حيث يمكنه إخباري بالمزيد إذا أراد ذلك، لكنني أملت ألا يفعل. وقد شق طريقه في أثناء دراسته الثانوية والجامعية من خلال العمل بوظائف بدوام جزئي ووظائف مسائية، وكان من بينها إعادة تنظيم الكتب في مكتبة الجامعة، التي وصفها بكونها «وقتًا مختلسًا لإجراء الأبحاث». فضحكت وأخبرته كيف وجدني آرتشي أقرأ أعمال آني برولكس في حين كان من المفترض أن أقوم بالترتيب، لكنه تركني أفلت بالأمر.

تمكَّن روب من الحصول على المنح والتوفيق بين الأمور حتى يستطيع مواصلة الدراسة، ومع ذلك، فقد استغرق الأمر ست سنوات للحصول على أول شهادة له. شعرت بالسوء بسبب المال الذي أخذه منه آرتشي للتو، وحاولت دفع ثمن العشاء لكلينا لكنه رفض. وفي النهاية، تقاسمنا الفاتورة، لأنني لم أكن لأدعه يدفع نيابة عني، وهو أمر لا علاقة له بما كسبته من الكتب.

تجاوزت الساعة العاشرة عندما غادرنا، وعلى الرغم من أنني لم أسمح له بتوصيلي إلى المنزل، فإنني وعدت بالذهاب إلى منزله لتناول العشاء يوم السبت. أدخل عنوانه في هاتفي بنفسه، وسألني إذا كنت أحب السمك (نعم، ما دام ليس له رأس)، ثم حاول تقبيلي، وهو ما توقعته بوضوح قبلها بفترة كافية بحيث تمكنت من تفاديه من دون أن أبدو كأنني أرفضه. أحب التفكير في هذه الأشياء لأكون مستعدة.

كنت أعلم أنني إذا ذهبت إلى منزله يوم السبت فسيعدُّ ذلك موعدًا. لم أعرف ما إذا كنت سأقضي الليلة، لكنني أخذت فرشاة أسنان تحسبًا، وكذلك زجاجة من النبيذ الأبيض أحضرها لي آرتشي عندما سألته عمَّا يمكن أن يناسب

السمك. كانت شقة روب صغيرة، ويمكن وصفها بأنها فائقة الترتيب: كانت الأقلام الموجودة على مكتبه من العلامة التجارية نفسها، ومصفوفة بدقة، بدا من الواضح أنها ليست من قبيل المصادفة، كما كانت أرفف كتبه أكثر تنظيمًا من تلك الموجودة في المكتبة. طرح كثيرًا من الأسئلة عني - كرهت أن تكون هذه هي الطريقة المتعارف عليها رسميًّا لممارسة الجنس - لكنني تحدثت عن المكتبة في الغالب، وسألته أكثر عن الحياة الجامعية. لطالما فكرت في الجامعة من ناحية جوانبها غير العملية: التكلفة، والديون، والتواصل الاجتماعي القسري. لكنني لم أفكر قَطُّ في كيفية اختيارك جزءًا صغيرًا من العالم - من بين كل الاحتمالات والأماكن والعصور والقصص - وتكريس نفسك للتعمق فيه حتى آخر أيامك. أحببت سماع روب يتحدث عن ذلك.

قضيت الليلة، وكانت لطيفة بما يكفي. ولم أتوقف لنحت الأحرف الأولى من اسمينا على جذع شجرة في طريق عودتي إلى المنزل في صباح اليوم التالي، لكنني لم أُفاجأ عندما أتى إلى المكتبة يوم الاثنين، وذهبنا إلى السينما هذه المرة، في ذلك الأسبوع. ثم دعاني لتناول العشاء مرة أخرى يوم السبت، وذهبت، لكن أسئلته بدأت تصير مفرطة بعض الشيء، وعندما ذهبت لارتداء حذائي الجلدي الأسود من طراز ماري جين قبل رحيلي في الصباح، لاحظت أنه لم يكن مصفوفًا بحذاء الحائط في زاوية قائمة تمامًا فحسب، بل كان مصقولًا أيضًا. تشكلت في ذهني لافتة كبيرة وامضة، كُتب عليها «مخرج الطوارئ»، مع سهم ضخم من أنوار الفلورسنت يشير لي نحو ذلك الاتجاه. قلت عندما رأيت الحذاء المصقول:

- ما هذا؟

لا أعتقد أنه كان بهذه النظافة حتى في اليوم الذي اشتريته فيه.

هز كتفيه قائلًا:

- لقد استيقظت مبكرًا.

ضحكت.

- وهل انتهيت من درجة الدكتوراه بالفعل، بحيث لم يعد لديك ما تفعله سوى تنظيف حذائي؟ لا يعني ذلك أنني لا أقدِّر الأمر...

أخذ ينظر إليَّ بجدية شديدة فجأة، وسألني:

- هل لديكِ وقت للتحدث؟

أردت أن أقول لا، لكنه كان قد نظَّف حذائي للتو. كما كان يعلم أن عليَّ الرحيل قريبًا، لذا فكرت أنه إذا كان لا بد من الحديث، فمن الأفضل أن أفعل ذلك وأنا أحمل عذرًا يمكِّنني من المغادرة سريعًا.

قلت:

- بالتأكيد.

جلسنا ونظر إليَّ وفكرت: «يا إلهي، لا بد أن هذه هي الحال التي تبدو عليها المرأة عندما تخبر رجلًا أن وسيلة منع الحمل لم تؤدِّ وظيفتها كما ينبغي».

- هل تذكرين أنني أخبرتك في أول موعد لنا أنني مريض؟

قلت:

- نعم.

سيكون من الوقاحة الإشارة إلى أنه لم يكن موعدًا حقًّا.

قال:

- حسنًا، إنه نوع من... إنه مرض عقلي، ولم أتعافَ قَطُّ، بل تمكنت من السيطرة عليه بصورة أفضل فحسب.

قلت:

- حسنًا.

قال:

- السيطرة على الأمور هي أحد الأشياء المهمة بالنسبة إليَّ، ولا أحب الشعور بأنني... فقدت السيطرة.

لاحظت أن يديه كانتا على ركبتيه، وأن وضعهما يمثِّل انعكاسًا مثاليًّا لبعضهما كما لو أنهما صورة في مرآة، وأن أصابعه مفرودة، وكفَّيه على المكان نفسه فوق

كل ركبة. جلست أنا بشكل جانبي، ومرفقي على ظهر الأريكة، وإحدى ساقَي مطوية تحتي فيما تدلت الساق الأخرى. تساءلت عمَّا إذا كان يجب عليَّ أن أتحرك وأتخذ وضعية أكثر تناسقًا. تذكرته وهو يأكل السباجيتي، وكيف ترك الملعقة والشوكة في وسط الطبق عندما انتهى.

- لذا فإنني أتحكم في الأشياء التي يمكنني السيطرة عليها.

نظر إليَّ، فأومأت برأسي. أستطيع تفهم ذلك. ففي النهاية، يُعد التأكد من عدم العثور عليك من قبل الأشخاص الذين قد يرغبون في ملاقاتك، هو نوع من ممارسة السيطرة. قلت:

- مثل شقتك.

قال:

- نعم.

وابتسم بامتنان شديد، إلى درجة أنني أحسست بالسوء بسبب شعوري عندما رأيت حذائي مصفوفًا ومصقولًا. تابع قائلًا:

- أعرف أنها مرتبة بدرجة زائدة على الحد، لكن... هذه هي أفضل طريقة لديَّ للتعامل مع الأمر، معذرة. كان يجب أن أدرك أن الأمر سيبدو غريبًا إذا نظفت حذاءك.

قلت:

- لا بأس.

وأدركت أنني لن أتمكن أبدًا من الحديث عن نفسي بالطريقة التي يفعلها هو، لذلك استمعت إليه.

أخبرني روب عن الأدوية والعلاج، وشبكة الدعم الخاصة به. تحدث عن مدى صعوبة الاعتراف بأن تلك الأوقات في حياتك التي تكون خلالها أكثر إنتاجية، وأكثر حماسًا، وأكثر ذكاءً، هي الأوقات التي تكون خلالها أكثر مرضًا أيضًا. وبذل جهدًا كبيرًا لتوضيح أن تناول مضادات الذهان لا يعني في الواقع أنه سيعاني من الذهان إذا لم يتناولها.

استمعت، وشعرت بالأسف حياله. صمتَ، ثم عاود الحديث مرات عديدة، كما توقف كثيرًا وأخذ أنفاسًا عميقة. شعرت بالحزن وعدم الارتياح، وفكرت أنني إذا أخبرت أي شخص عن نفسي، فسوف أبدو تمامًا كما كان روب في تلك اللحظة: خائفًا، وعازمًا، وشاحبًا. فكرت كيف ضل الطريق في حياته، مثلي، وكيف أنقذته الكتب أيضًا. إذا كنت أنتمي إلى عشيرة ما، سيكون روب أحد أفرادها هو الآخر، باستثناء كونه يحكي لي كل هذا، لأنني لم أكن لأخبر أحدًا أي شيء أبدًا، ما لم أضطر إلى ذلك. كانت حكايتي هي الصمت والسرية.

عندما أنهى حديثه متلعثمًا، قلت:

- شكرًا لك لأنك أخبرتني، يا روب.

وكنت أعني ذلك.

أومأ برأسه، وسألني:

- هل ما زلت تريدين الخروج يوم الخميس؟

كنا سنذهب إلى المتحف، لحضور محاضرة عن العمارة.

قلت:

- بالطبع.

لم أقصد تحديدًا أن أقول: «بالطبع أريد الخروج معك مرة أخرى»، بل كان ما أعنيه أقرب إلى: «بالطبع لا يشكل ذلك أي فرق في طبيعة شعوري حيالك، لأنني لن أحكم أبدًا على أي شخص على أساس صحته العقلية». يمكنني أن أرى كيف عَدَّ ذلك التزامًا بدرجة أقوى مما كان في الواقع.

الجريمة

١٩٩٩

لا معنى للوقت هنا

لم يعثر والدي على عمل. وعند بدء الفصل الدراسي الصيفي، بدأت أتناول وجبات مجانية في المدرسة. لم أمانع ذلك، ولم أكن الوحيدة. ومع ذلك، صار لديَّ مانع عندما حلَّ عيد ميلادي نصف السنوي، في الأول من يوليو.

سيخبرك أي شخص وُلد بين عيد الكريسماس ورأس السنة الجديدة أن الأمر لا يستحق أن يكلف نفسه عناء الاهتمام بحفل عيد ميلاده، حيث يحصل المرء على هدايا تم شراؤها في آخر لحظة، كما أن الأشخاص الذين يأتون إلى حفل عيد ميلادك - إذا كان هناك أي شخص متفرغ للذهاب - يبدون كما لو أنهم يفضِّلون البقاء في المنزل على الأريكة لمشاهدة الرسوم المتحركة وتناول رقائق الحبوب من العلبة مباشرة. لذا عندما صرت في السابعة من عمري، بدأنا الاحتفال بعيد ميلادي نصف السنوي. كانت فكرة والدتي، وكان الوقت لا يزال خلال الفصل الدراسي، فلم يكن أحد في إجازة، وتزامن ذلك مع بداية تلك الأسابيع الأخيرة المليئة بالأيام المخصصة للرياضة والرحلات المدرسية، عندما تلوُح الأعياد في الأفق والجميع متحمسون وسعداء. هكذا أتذكرها، على أي حال. كنت لا أزال أتلقى هدية في يوم رأس السنة الجديدة، لكن الأول من يوليو كان اليوم الذي تكمن فيه المتعة الحقيقية.

في العام السابق للوقت الذي ساءت فيه كل الأمور، عندما كنت في الثامنة والنصف من عمري، أُقيم لي حفل على الشاطئ. كان يومًا حارًّا، ولم تكن هناك

رياح شديدة، مما كان أمرًا غير معتاد بالنسبة إلى ويتبي، وقد جعل سكون الهواء العالم بأكمله يبدو مختلفًا. أتذكر رائحة البحر، والكريم الواقي من الشمس، بينما والدتي تتنقل من طفل إلى آخر وهي تدهن أنوفنا وجباهنا وأطراف آذاننا. كانت هناك مسابقة لبناء القلاع الرملية، وحمير للركوب، وعرض لمسرح الدُّمى. كنا اثني عشر شخصًا، وحملنا طعامنا إلى الشاطئ في نهاية عصي، مربوطة في مناديل كبيرة مرقطة باللون الأحمر. ابتسم الناس والتقطوا الصور في أثناء مرورنا، وشعرت كأنني ملكة العالم. كان والدي موجودًا في المنزل خلال ذلك الأسبوع، والتقط الصور، وبينما هو يطالعها بعد ذلك، هز رأسه وقال:

- سأخبرك بشيء، يا صغيرتي، تتمتع والدتك بالرقي. وإذا حدث أن اكتشفتْ أنها أفضل مما أستحق، فسأقع في مشكلة حينها.

كان الأمر مختلفًا ذلك العام. حصلت على هدايا بالطبع: دمية «فوربي»، (كانت لدى إيما واحدة، أحببناها جميعًا، على الرغم من أن بعض الفتيات في المدرسة، اللاتي بدأن في وضع ملمع الشفاه، قلن إن «فوربي» مخصصة للأطفال الرضع) وأول ثلاثة كتب من سلسلة هاري بوتر. قرأت النسخ المُستعارة من المكتبة، لكن لم تكن لديَّ نسخي الخاصة، وقلت إنني أريد إعادة قراءتها. وكان معها إيصال من المكتبة، للطلب السابق لرواية «سجين أزكابان»، التي صدرت بعد أسبوع من عيد ميلادي نصف السنوي. أحببت هداياي، لكن لم تكن هناك حفلة. بدلًا من ذلك، دعونا إيما وماتيلدا إلى تناول الشاي، وكان هناك حفل شواء، وكان والدي الذي ارتدى قبعة ورقية وجدناها مضحكة، مسؤولًا عنها، لكنها لم تكن حفلة فحسب. بدا الأمر أشبه بعصر يوم عطلة صيفي. ثم هطل المطر، واضطررنا إلى إحضار كل شيء إلى الداخل. وبدا المنزل أصغر الآن بعد أن صار والدي موجودًا طوال الوقت.

كان من المفترض أن تكون كعكتي على شكل كوخ من حكاية خيالية، مغطاة بالحلوى، لكن معصم والدتي أُصيب عندما سقطت على الدرج، فاضطر والدي إلى مساعدتها في صنعها، وكنت طفلة فظيعة، فلم أرَ سوى الأجزاء التي حدثت

بها أخطاء: كيف بدا السقف مائلًا، وكيف أن حلوى التزيين لم تُغطِّ الأركان. عثر والدي على بعض الشموع التي تطلق شررًا، فوضعها كلها في مدخنة الكوخ وأشعلها، مما كان ممتعًا حتى سقطت واحدة منها وأحرقت ثقبًا في السجادة.

في تلك الليلة، سمعت والدَي يتجادلان مرة أخرى.

عرفت سبب الجدال. بينما كانا يعدان المشواة، قالت والدتي لوالدي إنها رأت في نافذة بائع الصحف إعلانًا عن أن أحد الفنادق يحتاج إلى شخص ما للعمل على نحو مؤقت في ذلك الصيف. توقف والدي عن إشعال الفحم ونظر إليها.

قال:

- عمل مؤقت؟

قالت والدتي:

- التنظيف، وخدمة الموائد على ما أظن.

قال:

- سنتحدث عن ذلك لاحقًا.

تنهدت، وعندما ابتعدت عنه بدت عيناها غائمتين.

قبل أن يفقد والدي وظيفته، لم أعتد الاستماع إلى والدَي بعد أن أخلد إلى الفراش ليلًا، لكن تغير شيئان في عالمنا بعد فقدانه وظيفته: الأول هو أن أصواتهما بدت مختلفة في هذه الأيام. **كانت أصواتهما** في السابق هادئة، وهما يتحدثان بهمهمة ناعمة كهدير البحر، من دون أن أتمكن من تمييز سوى بعض الكلمات المتناثرة على نحو مسموع. الآن، صارت هناك أصوات عالية أو صياح، يتبعه كلمة «صه!» واسمي بصوت والدتي، مما يعني أن الصوت كان ينخفض قبل أن يعلو مجددًا. وكان من الصعب تجاهل ذلك. قالت والدتي إن والدي أصبح سريع الغضب منذ أن أقلع عن التدخين، لكنه قال إن حياته اللعينة هي التي تدفعه إلى العصبية.

أما الشيء الثاني الذي تغير، فهو أنني صرت أعرف الآن أن الطريقة التي تبادل بها والداي الحديث، والأشياء التي تبادلا قولها كانت ستشكل طبيعة اليوم

التالي. فإذا تصالحا، فسيكون الصباح التالي هادئًا، وكنا نلعب بعد تناول الشاي، وربما نتناول الآيس كريم، فتبدو الحياة كما كانت مرة أخرى، قبل أن يفقد والدي وظيفته، أو قريبة الشبه بذلك للغاية. لكن إذا لم يتصالحا بعد شجارهما، فسيكون اليوم التالي مختلفًا تمامًا: سيكون هناك فائض من المحبة الموجهة إليَّ من قِبَل والدتي، وصمت مثل ضباب البحر من جانب والدي، لا يمكن تجاهله، على نحو يخيم على منزلنا الصغير.

قلت لوالدتي ذات مرة إنها تبدو «متوعكة»، وهي كلمة كانت تستخدمها معي أحيانًا، عادةً في الأيام التي يراودني فيها الشعور بالألم في حلقي أو أذنَي، من دون أن أكون مريضة بالفعل بعد. ابتسمت وأخبرتني أنها متعبة بعض الشيء، ثم ذهبَت إلى غرفة المعيشة حيث جلس والدي منحنيًا فوق صفحات الوظائف الخالية في الجريدة المحلية المجانية، وقالت بحدة:

- تقول ابنتك إنني أبدو متوعكة.

وبعد لحظة، كانت هناك ضجة عندما ارتطمت قبضته بالطاولة، ثم نهض وأسقط كل الصور الموجودة داخل إطارات فوق رف الكتب وهو في طريقه إلى الباب، وجرحت والدتي أصابعها وهي تلتقط القطع.

وغني عن القول إن ذلك كان في اليوم التالي لشجار لم يُحل. ساءت الأمور مجددًا تلك الليلة، وأعتقد أنهما ربما أرسلاني إلى النوم مبكرًا، لأن الجدال لم يمكنه الانتظار. ولم أجرؤ على الإشارة إلى أن والدتي تبدو متوعكة مرة أخرى بعد ذلك.

في بعض الأحيان كنت أنظر إلى صورة الزفاف المُعلَّقة على الحائط في غرفة المعيشة، وأتعجب من مدى اختلافهما الآن. لم تكن صورة احترافية، ولم تكن والدتي ترتدي فستان زفاف، بل بذلة زرقاء شاحبة وقبعة من القش. كانت تحمل باقة من الوردات البيضاء وتنظر إلى والدي الذي وقف بجانبها مرتديًا بذلة بحرية، وكانا يضحكان وهما يتبادلان النظر وقصاصات الورق تتساقط فوقهما. ذات مرة، عندما كنت طفلة، سألت والدتي عمَّا كانا يضحكان. قالت إنهما كانا

سعيدين حد الانفجار من السعادة، وإن الابتسامات هي الانفجارات التي حدثت حيث لم تكن السعادة قادرة على البقاء حبيسة أكثر من ذلك. وعندما سألتها أين كنت، أشارت إلى بطنها في الصورة وقالت:

- لقد كنت هناك، يا إل جيه، ملتفة على نفسك ونائمة كفأر صغير.

عاشا في ويتبي في بادئ الأمر، لأن صديق والدي، جيم، الذي التقى والداي في حفل زفافه، سمح لهما بالبقاء في منزله عندما انتقل هو وزوجته إلى ثكنات الجيش في ويلتشير. وقد عاش والداي هناك عامًا، حتى بِيع المنزل، بيتي الأول.

بدوت جميلة مثل الخوخة، وفقًا لوالدتي، وإذا صدق والدي في حديثه، فقد بدوت كقريدس صارخ مثير للضحك. وبحلول الوقت الذي تعيَّن عليهما الانتقال فيه، كانت والدتي قد أحبت ويتبي، وبدأ والدي العمل على منصات النفط، وكان في وسعه التنقل ذهابًا وإيابًا من ليدز ليلحق بطائرته بسهولة، لذا وجدا منزلًا خاصًّا بهما واستأجراه، وبقينا هناك. لقاء عن طريق المصادفة في حفل زفاف، وبضعة مواعيد غرامية، وحمل غير مُخطَّط له، وقدْر كافٍ من الحب ليدفع والدَي إلى الاعتقاد أن الأمر يستحق المحاولة، وهأنذا، إل جيه، فتاة ويتبي.

بينما كنت مستلقية في الظلام، في الليلة التالية لحفلتي المزعومة، لم أستطع منع نفسي من استراق السمع، على الرغم من أن الاستماع أصابني بالتوتر، كما لو أنني ركبت إحدى الألعاب الدوارة بالملاهي، وأدركت أنني ارتكبت خطأ، لكن أوان النزول قد فات. ركبت إحداها ذات مرة عندما ذهبنا إلى الملاهي للاحتفال بعيد ميلاد ماتيلدا. وحتى الأشهر القليلة الماضية، كانت هذه أفظع تجربة في حياتي القصيرة. شعرت بالغثيان والخوف، ومما زاد الأمر سوءًا أن ماتيلدا وإيما كانتا تصرخان وتضحكان على كلا جانبَي، وبمجرد توقف اللعبة، أرادتا ركوبها مرة أخرى. انتظرت مع والدة ماتيلدا في المرة الثانية، وشاهدتهما وهما تصرخان بسعادة، وتدوران وتدوران من دوني. وقالت والدة ماتيلدا:

- أتفق معك، لا يمكنك رشوتي لركوب واحدة من تلك الألعاب.

لكن ذلك لم يشعرني بالتحسن حيال مشاهدتهما.

كان والدي أول من رفع صوته، وكان هذا هو النمط المعتاد.

- لن تقومي بالطهي والتنظيف للغرباء.

قالت:

- أنا أتولى الطهي والتنظيف لك، كما أن الانتظار عند بوابة المدرسة ليس في الحقيقة أفضل طريقة بالنسبة إليَّ لاستغلال وقتي حاليًّا.

- هل تقصدين بسبب كوني بلا دخل؟

تنهدت قائلة:

- نعم، هذا هو ما أقصده، لكنني لا أعني أي شيء بذلك، بل أذكر الحقيقة فقط، يا بات.

صمت للحظة، ثم قال:

- لقد اتفقنا عندما وُلدت إل جيه، وقلت إنك تريدين الاعتناء بها، وأن تكوني مجرد أم لمدة عشر سنوات، وأن هذا هو أهم شيء...

- لقد فعلتُ.

بدا صوتها أكثر هدوءًا منه، وأهدأ مما كانت عليه عندما ذكرت أمر الطهي والتنظيف، وبدوا كالزيت على الماء. تابعت قائلة:

- لكن انظر إلى حالنا، ما الضرر الذي يمكن أن يُلحِقه ذلك؟ سيساعدنا العمل لثلاثة أشهر خلال الصيف على الاستمرار حتى عيد الميلاد، إذا التزمنا الحرص. ستكمل العاشرة من عمرها في العام الجديد، وستكون معها. ليس الأمر كما لو أننا سنتركها مع غرباء.

تصاعدت موجة غضب والدي.

- أيتها المرأة قليلة الإيمان! حتى زوجتي لا تعتقد أنني سأحصل على وظيفة قبل حلول عيد الميلاد.

- ليس هذا ما أقوله، بل أقول ما الضرر في ذلك؟ أو إذا لم تعجبك الفكرة، فسأحصل على وظيفة حقيقية بدوام كامل. إن مركز الاتصالات يقوم بالتوظيف الآن، ويدفع راتبًا جيدًا. ويمكنك البقاء في المنزل. أردت أن يعتني

بها أحد والديها، بدلًا من إرسالها إلى دور الرعاية وجليسات الأطفال. هذا هو ما اعتقدت أنه مهم حينها، وما زلت أعتقد أنه مهم الآن. كنت أنت تجني مالًا أكثر، وأردت أن أكون معها. لا تحول هذا الأمر... لا تحوله إلى...

- لا أحوله إلى حديث عن كونك أكثر قابلية مني للحصول على وظيفة؟

- لم أقل ذلك.

ساد الصمت، ثم جاء صوت والدي بنبرة كنت سأتعرض للتوبيخ لو أنني استخدمتها:

- سيتعيَّن عليكِ الانتقال يوميًّا إلى مركز الاتصالات، وستكونين مرهقة، وسأظل من دون السيارة طوال اليوم.

- لم أقل إن لديَّ كل الإجابات.

- إذا كنت تقولين إنه لا بأس في كوني أظل من دون السيارة، فأنت تقولين إذن إنه لا فرصة لديَّ في العثور على عمل.

- أنت تعلم أن الأمر ليس كذلك، بحق السماء، يا بات.

لم يبدُ صوتها غاضبًا، بل متعبًا.

ساد الهدوء حينها، وحاولت النوم، لكن النعاس لم يأتِ بالسرعة الكافية. وعلى الطاولة الجانبية بجوار الفراش، أخذت دمية «فوربي» تشخر.

تحدث والدي بهدوء أكثر، فاضطررت إلى رفع رأسي عن الوسادة وإمعان الاستماع.

- لقد اتفقنا على أن تحظي بعشر سنوات، ووعدت والدتك بأنني سأعتني بكِ.

أطلقت والدتي تنهيدة وصلت عبر الدرج.

- كان ذلك أمرًا مختلفًا، وأنت تعرف هذا.

- لماذا؟

بدأ صوته يعلو مجددًا. صارت هذه طبيعته الآن: يثور غضبه فجأة، حتى مني، وتعلمت أن أفكر مرتين قبل أن أتحدث. في الأسبوع السابق، كانت هناك رسالة بخصوص رحلة مدرسية إلى يورك. طويتها حتى صارت بحجم صغير،

ووضعتها في جيبي، وبعد ذلك ألقيتها في سلة المهملات لأنني خشيت أن تتسبب في بدء جدال آخر حول المال. لم يكن لديَّ مانع، فإذا لم أذهب إلى الرحلة، كنت سأذهب إلى المدرسة فحسب كما لو أنه يوم عادي، لكن من دون تلقي الدروس. ربما أستطيع المساعدة في المكتبة، وكنت أحب ذلك.

- عندما قلت ذلك لأمي، كنت تعني أنك ستعتني بي، وأنك تنوي حمايتي. ولم تعنِ أنك ستجعلنا من الأثرياء. وكان هذا هو كل ما أرادت سماعه في النهاية.

تذكرت عندما كانت جدتي لوالدتي تحتضر. كان ذلك في الصيف الذي حصلت فيه على أول زي مدرسي لي. كانت مريضة منذ أبعد وقت يمكنني العودة إليه بذاكرتي، وعقب انتهاء الجنازة، بكت والدتي كثيرًا، وكررت قائلة مرات عديدة:

- حمدًا للرب، لقد ارتاحت.

بدأت تبكي الآن، لكن الصوت بدا مختلفًا عن طريقة بكائها غالبًا هذه الأيام، حيث كان أكثر هدوءًا. ثم سمعت والدي يتحدث بصوت منخفض، مزمجرًا بكلمات مطمئنة، وتخيلت أنه يحتضنها.

كنت على وشك النوم حقًّا، عندما تحدثت والدتي مرة أخرى، وظننت أنها قالت «بيننا رقاقة»، لكن عندما فكرت في الأمر لاحقًا، أدركت أن الكلمة لا بد أن تكون «شراكة»، وهو شيء سمعته في الأخبار.

قال والدي:

- وعليك أن تدعيني ألعب دوري.

فقالت والدتي:

- وعليك أن تسمح لي بدعمك.

علا صوت والدي مجددًا، قائلًا شيئًا لم أميزه.

قالت:

- أنت تتعمد إساءة تفسير كلامي الآن.

وعلا صوتها هي هذه المرة، بدافع من الإحباط، وتابعت:

- أنت أسوأ عدو لنفسك.

- هذا صحيح، فلتحكمي عليَّ، لأن هذا سيساعد.

عرفت من نبرة صوته أن الأمر قد يسير في أي اتجاه.

وقد أخذ المسار السيئ.

قد يظن المرء بسبب أهمية الأمر، أنني سأتذكر اللحظة التي أدركت فيها لأول مرة أن والدي يضرب والدتي، لكنني لا أتذكر. عندما أعود بذاكرتي إلى ذلك الوقت، أتذكر، قبل كل شيء، الشعور بالحذر، ومحاولاتي لعدم لفت الأنظار. بعد ذلك، أذكر كيف سقطت عائلتنا في هوة حيث بات مزاج والدي متقلبًا تبعًا لاحتمالات عثوره على وظيفة.

تحسنت الأمور فترة وجيزة عقب حصوله على عمل في موقع بناء في أغسطس من ذلك العام. كان يقول: «أنا لست فخورًا»، وهو يدخل المنزل حاملًا السمك والبطاطس، والرائحة الحارة الحادة تملأ غرفة المعيشة فنستنشقها بعمق، كما كنا نستنشق الهواء النقي عندما نخرج من السيارة بعد رحلة طويلة. لكن الوظيفة لم تدُم، ولا أعتقد أن ذلك كان خطأه، وأظن أنه كان عملًا قصير الأمد على أي حال. سرعان ما عدنا لتناول الخبز المحمص مع المارمايت[1] والجبن الكريمي في وجبة المساء، على الرغم من أن والدتي لم يعُد لديها الحماس الكافي للتظاهر بأن الأمر ممتع.

قرأت «أطفال السكة الحديد»، وتأثرت عندما لم يُسمح للأطفال إلا بتناول المربى أو الزبدة، لا كليهما معًا. لم تكن صورة الفقر التي عانت منها بوبي، حيث يرسل إليك الخدم والمحسنون سلالًا من الطعام، ذات صلة بحياتي أنا، ومع ذلك أحببت الكتاب، ولا سيما الجزء الذي يعود فيه والدها في النهاية.

---

(١) المارمايت: معجون غذائي مصنوع من مستخلص الخميرة، يتميز بقوامه اللزج ولونه البني الداكن، ونكهته المالحة والقوية. يُستخدم عادة كإضافة للطعام أو دَهنًا على الخبز. (المترجمة).

لكن لم تكن هناك لحظة محددة أدركت فيها أنه كان يضربها. تركت الأيام تمر فحسب، بطريقتي التي حاولت بها عدم لفت الأنظار، على الرغم من أنه عندما استُجوبت في وقت لاحق، قلت إنني اعتقدت أن والدي ضرب والدتي، لكنني لم أستطع تذكر متى بدأ الأمر، أو إعطاء أي أمثلة على الأوقات أو الأماكن التي حدث فيها ذلك. لم أكن موجودة عندما سقطت والدتي على الدرج والتوى معصمها. نعم، يبدو الأمر مريبًا بعض الشيء إذا فكرت فيه الآن، لكن إذا كنت في التاسعة من عمرك، فأعتقد أنه من المعقول افتراض أن والديك يقولان الحقيقة.

وكانت إصابة عين والدتي بكدمة تعني طرح كثير من الأسئلة عليَّ في المدرسة، وأبقتني الآنسة باكلي معها خلال الاستراحة ذات مرة، وأعطتني البسكويت، وسألتني عمَّا إذا كان ثمة شيء يزعجني. كنت أعرف أنه من الخطأ التحدث عن المال، لذلك قلت إنه لا يوجد شيء. وعند دعوتي إلى منزل ماتيلدا أو إيما لتناول الشاي، كثيرًا ما كانت والدة كل منهما تعانقني، وعند الوداع تهمس لي شيئًا على غرار: «يمكنك أن تأتي للمبيت في أي وقت، أخبري والدتك فحسب أنك مرحب بك دائمًا هنا». ابتسمت وقلت شكرًا، لكن كان لا يزال هناك شيء مريح في المنزل، ومن المؤكد أنني لا أتذكر أنني رغبت في الهروب. أعتقد - وأعلم أنني سأبدو مثل أي ضحية أخرى للعنف المنزلي على الإطلاق - أنه عندما كانت الأمور تسير على ما يرام، بدا من الصعب تصديق أنها سوف تسوء مرة أخرى.

وأعتقد أنه على الرغم من كل ما حدث بعد ذلك، كان والداي شخصين طيبين، وكانا متحابَّين، ويحبانني ويريدان حمايتي من أسوأ ما في نفسيهما. لذا وعلى الرغم مما يبدو من كونهما لم يتمتعا بما يكفي من ضبط النفس للتوقف عن إيذاء بعضهما، فإنهما بذلا قصارى جهدهما كي لا يسببا لي الأذى، ومهما ساءت الأمور في نهاية المطاف، فأنا أقدِّر لهما المحاولة.

وبالمناسبة، فهذه هي روايتي الرسمية، وهي ناجحة، وأنا متمسكة بها. هكذا أستطيع النوم ليلًا، وأعتقد أن ناثان سيقول إنها حكايتي.

الشعر

٢٠١٦

اقلب الصفحات

تقبلت ما لا مفر منه في النهاية. عقب عودتي إلى المنزل من نادي الكتاب يوم الثلاثاء التالي، طالعت هاتفي فوجدت رسالة نصية من ناثان:

هل أحجز لك مكانًا مساء الغد؟

يا له من أحمق صفيق. شعرت بالميل إلى تجاهل الرسالة، لكنني لم أكن لأجدع أنفي لأغيظ نفسي. كما فكرت أنني قد أسأله يومًا ما عمَّا دفعه إلى كتابة تلك القصيدة التي تدور حول كتابة قصة جديدة لذاتك. كانت فكرة غريبة، ولم أعرف ما إذا أحببتها.

على أي حال، أخذت نفسًا عميقًا وكتبت:

يمكنك أن تفعل إذا أردت. وهل يمكنك وضع اسمي على القائمة؟

انتظرت، ثم جاءني الرد: «تم!». لم أحلل ما يعنيه بعلامة التعجب تلك، لأن لديَّ أشياء أفضل لأقوم بها.

قضيت معظم يوم الأربعاء أتساءل عمَّا إذا كنت سألقي قصيدتي حقًّا. فلم يكن الأمر كما لو أنني ملزَمة بذلك قانونًا - ناثان هو الشخص الوحيد الذي يملك

القائمة، لذلك فلا أحد غيره يعرف ما إذا كنت قد سجلت اسمك ثم خانتك الشجاعة في اللحظة الأخيرة - كما أنني لا أحب حقًّا كوني محط الأنظار. لم أعتلِ خشبة المسرح منذ «باجزي مالون»، وكل ما حدث بعد ذلك أبعدني عن الأضواء. لكن أمسيات الأربعاء ذكَّرتني بأن الشعر كائن حي، وتساءلت فحسب كيف سيكون الأمر إذا أطلقت قصائدي هناك في الأجواء المشتركة، لأرى كيف ستبلي. لا تسئ فهمي، فأنا أدرك أن العالم لا يحتاج إلى المزيد من الشعراء الطموحين. لكن الأمر سيكون مثيرًا للاهتمام فحسب.

سجلني ناثان في المركز الثالث على القائمة، وقد انشغلت بقصيدته إلى درجة أنني لم أهتم بقصيدتي كثيرًا. في كل مرة اعتلى فيها ذلك المسرح، كان يقول شيئًا يوقعني في حيرة من أمري. فكرة أن الناس قد يرغبون في الاسترخاء في علاقة ما، وأن الأمر برمته ليس بهدف الاستعراض أو إخفاء حقيقتك... أُرهق ذهني من جهد التفكير في مدى صحة ذلك.

اخترت قصيدة سخيفة لألقيها: ظننت أن الجمهور سيحبها. لاحظت أن الناس يضحكون على القوافي، وأعتقد أن اكتشافهم لها أو توقعها يُشعِرهم بالذكاء.

عندما اعتليت المسرح، هوى قلبي بين قدمَي وشعرت بغصة في حلقي.

حللت في المركز السادس من أصل تسعة. أُنجزت المهمة، وفقًا لتعبير آرتشي، لكن لم يعجبني الأمر. كان الجميع ينظرون إليَّ ويطلقون الأحكام، وبدا صوتي ضعيفًا، كصرخة نورس بعيد. كنت في غاية الفظاعة، ومرتعشة، كما أنني على ثقة بأن الأصوات التي فزت بها كانت بدافع الشفقة. عندما حضرت الأمسيات الشعرية الأخرى، فكرت كيف أن المؤدين ليسوا بارعين للغاية: فكرت أنهم يحاولون التعويض عن شيء ما، وأنهم يشعرون بالوحدة، وأرادوا الاعتقاد بأنهم شعراء لأن هذا أفضل من قبول حياتهم كما هي. لكن ما إن صعدت إلى هناك حتى شعرت حيالهم بقدر أكبر من الاحترام. وكان خمسة منهم أفضل مني. كان هذا منصفًا. تقبَّلي الأمر، يا لافداي، فهذا هو ما تستحقينه.

شاهدت الجولة الأخيرة وأنا أفكر فيما إذا كان ينبغي لي أن أبذل جهدًا أكبر

أم أستسلم. فأنا أحب أرفف الكتب والبُعْد عن الأضواء، لكنني لا أريد أن أكون جبانة.

أوصلني ناثان إلى المنزل، وقال لي في الطريق:

- أعجبني أن قصيدتك كانت دائرية، وأنها تنتهي حيث بدأت.

قلت:

- أعجبني أنك لاحظت ذلك، كما أعجبتني قصيدتك.

وكان هذا صحيحًا في الحالتين، ولم أكن أغازله.

دعوته إلى الدخول.

أجل، قضى الليلة. فأنا لست راهبة لمجرد كوني لا أحب معظم الناس، كما تعلم. فالقليل من التمييز لا يضر، وأحب الاعتقاد أنني تعلمت أن أكون شديدة التمييز بعد روب.

مطاردة

كما ألقاها ناثان أفوري في حانة جورج والتنين، يورك، أبريل ٢٠١٦

أعرف أنه من المفترض أن أحب إثارة المطاردة، لكن عن نفسي،
أحب عندما تصل المطاردة إلى نهايتها.
أحب الأمر عندما لا يضطر أحد إلى الذهاب لشراء الكرواسون
للإفطار، أو التظاهر بالاحتفاظ به دومًا في الثلاجة، ونتناول الخبز
المحمص أو رقائق الحبوب فحسب.
أحب الملابس الداخلية غير المتطابقة، وشعر الإبطين.
أحب أن أتمكن من ارتداء قميصي القديم الذي يحمل صورة فريقي
الموسيقي المفضل، من دون خوف من أن يطلب مني أحد الرحيل.
أحب الأشياء التي تقول: استرخِ، لقد وصلنا إلى حيث يمكننا أن نرتاح.
لا تسيئي فهمي: فأنا أحب القَليل من التوتر، والقليل من الإثارة.

قد لا أستمتع بأريكة الاسترخاء، لكن هذا لا يجعلني مستعدًّا للكرسي الهزاز.
لكنني سأشعر بالارتياح عندما ترين أصابع قدمَي غريبة الشكل، ونتجاوز ذلك الأمر الذي قد يفسد الصفقة.
لذا، هل يمكننا تخطي المطاردة، والاسترخاء؟

الكتب تحسن السلوك

كما ألقتها لافداي كاردو في حانة جورج والتنين، يورك، أبريل ٢٠١٦

أحب الكتب لأنها لا تكترث
ما إذا كان سروالك الداخلي مطابقًا لحمالة صدرك
أو إذا غسلت شعرك.
أحب الكتب لأنها لا تقتحم مساحتك الشخصية
بل تجلس على الرف
ولا تنتقدك بحرف.
أحب الكتب لأنها لا تمانع
ما ينطوي عليه القلب
ومن تخليت عنه من قبل.
أحب الكتب لأنها لا تكترث
برأيك فيها عندما تصل إلى نهايتها.
لا تكترث الكتب بما إذا كنت تحمل شهادات
ولا بما تشاهده على شاشات التلفزيونات.
الكتب لا تحكم عليك إذا كان لديك وشم
أو إذا كان أصدقاؤك قليلين كالعدم.
أحب الكتب لأنها لا تكترث.

لا مانع لديَّ من الاعتراف (حسنًا، لديَّ مانع نوعًا ما) بأنني قضيت الأيام القليلة التالية في حالة من السعادة إلى حدٍّ ما. كانت الليلة التي قضيتها مع ناثان - من دون الإفراط في مشاركة التفاصيل - جيدة للغاية من الناحية الجنسية، لكن الأهم من ذلك أنه تصرف كشخص عادي. كانت رائحة أنفاسه كريهة في الصباح، وبدا كالأحمق عندما خلع نصف سرواله، حسنًا، كان الأمر لطيفًا فحسب. بل أفضل من لطيف. في الأساس، كان جيدًا مثل قصيدته. لم يحاول أحد شفط بطنه، كما بدت أصابع قدميه الصغيرة غريبة للغاية، ومثنية نوعًا ما. لن يدوم الأمر - ولم أكن متأكدة حتى من أنه سيدوم أكثر من ليلة واحدة - لكنني وجدت نفسي سعيدة إلى حدٍّ ما.

سألني آرتشي ما إذا كنت «في حالة مزاجية جيدة بسبب السيد أفبوري»، الأمر الذي أزعجني: (أ) لأنني لا أفهم لماذا يجب أن يكون رجل هو السبب في سعادة النساء حتى في القرن الحادي والعشرين، كما لو أننا غير قادرات على الشعور بالسعادة من دون قضيب رجل، (ب) كان على حق. أخرجت له لساني، واشتريت له كعكة بالكريمة من المقهى المجاور، على الرغم من أن طبيبه قال إنه ليس من المفترض أن يأكلها. (حسنًا، ليس الكعك بالكريمة على وجه التحديد، بل الطعام غير الصحي الذي يسبب انسداد الشرايين بصفة عامة. لكنه لا يعير الأمر أي انتباه بالطبع، ويقول إنه لطالما كان بدينًا، وسيغادر هذه الحياة في نعش ضخم).

بدأ ناثان يأتي لرؤيتي في المساء. ليس كل مساء، ولم أسمح له بقضاء الليلة في كل مرة. طلب مني الذهاب إلى منزله - كان يعيش في مالتون، وهي مدينة تجارية تقع بين يورك والبحر - لكنني اكتفيت بأن قلت «ليس بعد». لم أرغب في وضع نفسي في موقف لا أستطيع الخروج منه. كانت الحافلة تصل إلى مالتون كل نصف ساعة، وكان الوصول من هناك إلى يورك يستغرق ساعة. ولا بأس في ذلك فيما يتعلق بالتنقل للعمل، إذا كان عملك هو ألعاب السحر عن قرب، لأنه لا يوجد كثير من تلك العروض تبدأ في التاسعة صباحًا. سأضطر إلى مغادرة منزل ناثان في الساعة السابعة صباحًا لأصل إلى العمل في الوقت المحدد، وهو

بصراحة أكثر قليلًا مما سأكون على استعداد لفعله من أجل الحب. ولم يكن الأمر كأنه حب حتى. كما كان بالتأكيد أكثر مما كنت على استعداد للقيام به من أجل الجنس. وهذا بالإضافة إلى كل الأمور الأخرى المتعلقة بالحفاظ على الذات، والتأكد من وجود مخرج للهروب دائمًا. علاوة على ذلك، إذا كان منزله مثل ربطة عنقه - والتي سيكون المعادل الطبيعي لها فيما يتعلق بالديكورات المنزلية هو رؤوس الخنازير البرية المعلَّقة على الجدران، والمقاعد فائقة الضخامة التي لها ذراعان - فقد فكرت أن عليَّ الاستمتاع بالأمر بعض الشيء، قبل أن تدفعني شقته إلى النفور منه. فلا توجد مَن تريد حبيبًا يعيش بين صفحات الطبعة الأولى من «صورة دوريان جراي»[1]. ولا يعني هذا أنه كان حبيبي.

عندما يأتي، كان يؤدي لي الألعاب السحرية، وحاولت اكتشاف الطريقة، ونجحت في ذلك أحيانًا. أدى بعض الألعاب بالعملات المعدنية، وتنويعات على حيل بطاقات اللعب، وبمجرد اكتشافي لمنطق حيلة ما، كان يشرح لي تفاصيل أدائها. وكي أكون منصفة حياله، لم يمزح ولو مرة واحدة قائلًا إنه سيضطر إلى قتلي إذا أخبرني. أعتقد أنني أحببته لأنه كان راقيًا في الأساس، وراء كل ذلك الغرور.

وبعد أسبوعين، دعاني ناثان إلى الذهاب معه إلى حفلة للأطفال حيث كان سيؤدي عرضًا سحريًا. لم أفكر في الأمر بوصفه عملًا حقيقيًّا، لكن تبيَّن أنه يتقاضى مائتين وخمسين جنيهًا مقابل الحفلة، وأربعمائة إذا كان هناك أكثر من عشرين طفلًا، بينما أعمل أنا ما يقارب الأسبوع لأحصل على هذا المبلغ، ولا يصفق لي أحد أو يعطيني بقايا الكعكة لآخذها إلى المنزل. فكرت في الذهاب لأن... حسنًا، لمَ لا؟ لقد رآني في مقر عملي.

بدأت العمل مبكرًا ذلك اليوم، لأنني كنت سآخذ إجازة بعد الظهر. قال آرتشي إنني أستطيع أن آخذ اليوم بأكمله إذا شئت، لكن صناديق الكتب التي لم

---

(١) الإشارة هنا تعكس العلاقة بين غرابة شقة ناثان المتوقعة والأجواء الغامضة والمثيرة التي تُميز أعمال الكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد. (المترجمة).

تُفرز تراكمت مرة أخرى تحت بار الإفطار، وأردت أن أحاول الانتهاء منها قبل حلول الصيف. دائمًا ما كانت تصلنا كميات كبيرة من الكتب عند إخلاء الطلبة لغرفهم. وفي ذلك الصباح، لم أتمكن من الوصول إلى الباب كي أفتحه بسبب الصناديق المكدَّسة في المدخل. لا يقبل آرتشي الكتب الدراسية، لكنه يشتري أشياء أخرى بكميات كبيرة، أحيانًا من دون أن يلقي نظرة عليها، وكنت أعرف يقينًا أنني سأضطر إلى محاولة العثور على المساحة الكافية لمزيد من الشعر، والكلاسيكيات الروسية المترجمة، والروايات الكوميدية الرائجة الفوضوية إلى حدٍّ ما، وأنا لا أُعمِّم، فستكون هناك أشياء أخرى أيضًا، لكن هذا كان صيفي العاشر في المكتبة، وصار لديَّ حدس بخصوص ما يمكن توقعه.

كانت حماقة مني أنني اعتقدت أنه نظرًا إلى عدم وجودي عادة صباح الأربعاء، فسيكون وجودي غير ملحوظ بطريقة ما، وسأتمكن من «المُضي قُدمًا» في عملي كما اعتادت والدتي أن تقول. كانت الساعة الأولى هادئة، من ناحية العملاء على الأقل، لكن عندما لا يكون هناك أي عملاء ليتبادل معهم آرتشي الحديث، فهو يتحدث إليَّ أنا.

سألني:

- هل فكرت في أخذ عطلة، يا لافداي؟

سألته:

- لماذا؟

آخر مرة سألني فيها آرتشي عمَّا إذا كنت أخطط لأخذ إجازة، فعل ذلك للتأكد من أنني سأستطيع إدارة المكتبة خلال الشهر التالي، لأنه عُرِض عليه دور صغير في فيلم جاسوسية تدور أحداثه في فيينا. وكنت محطمة تمامًا عند عودته.

قال آرتشي:

- حسنًا، لا حرج في التخطيط للمستقبل.

ثم أضاف:

- أين ذهبت لقضاء العطلة من قبل؟ وأين تودين الذهاب؟

أجبت قائلة:

- كورنوال.

ثم تابعت:

- أنا لا أحب العطلات حقًّا.

قال آرتشي:

- هذا لأنك لم تجدي المكان المناسب بعْدُ. الأمر أشبه بالكوكتيل، أو ألعاب الورق.

قلت:

- حسنًا، عليك أن تتوقف عن الحديث. لقد اضطررت للتو إلى الرجوع إلى ثلاثة أحرف أبجدية.

صمت لمدة خمس ثوانٍ تقريبًا، ثم سأل:

- إذا كان في إمكانك الذهاب إلى أي مكان، أين سيكون؟

قلت:

- لا أعرف، ليس لديَّ جواز سفر.

قال آرتشي وقد انعكس بريق في عينيه:

- لديَّ عدة جوازات سفر، فلا يعرف المرء أبدًا متى سيحتاج إلى الهرب على وجه السرعة.

جلست القرفصاء وضحكت.

- هل تقصد عندما تلاحقك مافيا الكتب المستعمَلة لأنهم اكتشفوا أخيرًا أنك أنت من سرق المطوية الأولى المفقودة من «الأعمال الكاملة لشكسبير»، وقتل اللورد ماونتباتن[1] عن طريق الخطأ خلال هذه العملية؟

---

(١) لويس ماونتباتن: سياسي وضابط بحري بريطاني، ومسؤول استعماري، وشخصية بارزة ومقربة من العائلة المالكة البريطانية. اغتيل في أغسطس ١٩٧٩م عندما انفجرت قنبلة زُرعت على متن قارب الصيد الخاص به في أثناء وجوده قبالة سواحل أيرلندا، في عملية نفذها الجيش الجمهوري الأيرلندي ضمن سياق الصراع الأيرلندي. (المترجمة).

أخذ آرتشي يضحك أيضًا، لكن بعد ذلك بدا كما لو كان على وشك البكاء. نهض واقفًا، وقال:

- أنا آسف، يا لافداي.

- لماذا؟

- كل شيء، ولا شيء. لا يهم.

تساءلت عمَّا إذا كان يعاني من آثار الثمالة، حيث يمكن أن يجعله ذلك عاطفيًّا. لم يكن يهتم بمقاطعتي عادة. ربما بدوت وقحة، لكنني لم أقصد ذلك.

ابتعد، ولم أعرف ما الذي يحدث، لكنني لم أرغب في ترك الأمور على هذا النحو. أخذت نفسًا عميقًا، وقلت:

- آرتشي، سأذهب إلى ويتبي، إذا كانت لديَّ إجازة.

ولم أدرك أن هذا صحيح إلا بعد أن تفوهت به.

كنت لا أزال أتساءل عن السبب الذي قد يدفع آرتشي إلى الشعور بالأسف، وعمَّا سيحدث إذا عدت إلى ويتبي، عندما وصلت ميلودي.

قالت:

- لافداي.

دائمًا ما أجد الأمر مسليًا عندما أسمعها تنطق اسمي، لأنها لا تستطيع التلاعب به، حيث إنها تطيل نطق جميع الأسماء التي تتفوه بها تقريبًا، على نحو عابث: «آرتشيي»، «نااثان»، حتى إنها تمكنت من مضاعفة حرف الراء في اسم «روب»، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا باسم «لافداي». حاولت اليوم أن تطيل حرف الألف الأول في الاسم، لكن ذلك جعلها تبدو مجنونة (بدرجة أكبر)، وكانت تعلم هذا.

قلت:

- ميلودي، مرحبًا.

شعرت بالرغبة في إطالة حرف الياء الأخير من اسمها بعض الشيء، لكنني لم أفعل. أتسم بكثير من الصفات السيئة، لكن الوضاعة ليست واحدة منها. أعرف

كم يوجد في العالم من الهراء الوضيع، وإذا كان لديَّ هدف في الحياة - بخلاف عدم لفت الأنظار - فهو ألا أضيف إلى هذه الوضاعة.

- هل ستذهبين إلى الأمسية الشعرية الليلة مع صديقك الوسيم ناثان؟

قلت:

- لست متأكدة بعد. لم أحسم أمري.

في الواقع، كنت قد اتخذت القرار بالفعل، لكنني لم أرغب في إخبارها. كانت لديَّ قصيدة في ذهني، فكرت في كيفية إلقائها. ساعدني ناثان على التدرب، وكنت أعرفها عن ظهر قلب. لا أحب الفشل في الأمور، وكنت فاشلة في محاولتي الأولى. لم أكن متأكدة بعد ما إذا كنت سأحسب الإلقاء، لكن فكرت أنني إذا كنت مستعدة، فسأمنح نفسي الفرصة على الأقل لإصدار حكم عادل.

قالت:

- سأكون هناك، مع فتاي روب.

قلت:

- أوه، حسنًا.

ظننت أنها تبدو غاضبة، لكنها كانت ترتدي قبعة مستديرة، لذا لم أتمكن من رؤية عينيها حقًّا.

فكرت لاحقًا أنها ربما أرادت مني إظهار الاهتمام بحياتها العاطفية، وهو ما فشلت فيه، باستثناء كوني ممتنة (بعض الشيء) لأي شخص سيخلصني من الورد في صندوق بريدي، إن جاز التعبير. ربما علمتْ بملاحقته لي، وظنَّت أن هذا خطئي، بصفاتي الجذابة المعروفة جيدًا والمتمثلة في تجاهل الأشخاص الذين لا أحبهم، وعدم الاكتراث بهم بصفة عامة.

ثم فكرتُ كيف يمكن أن يتصرف روب، وما إذا كنت سأحاول تحذير ميلودي لو أنني أحببتها أكثر. كنت سأفعل على الأرجح.

- هل أنت وروب على علاقة جيدة؟

قالت بابتسامة:

- إنه ذكي، وله عينان جميلتان.

قلت:

- أعرف هذا.

ثم صمتُّ لحظة، أفكر مليًّا في كيفية صياغة السؤال.

- لكن يا ميلودي، هل هو... هل هو لطيف؟ لأن...

رفعت يدها، وقالت:

- لن أناقش حياتي العاطفية معك. أراك لاحقًا.

ثم ابتعدتْ. وما إن انعطفتْ عند الزاوية حتى تساءلتُ ما إذا كان ينبغي لي اللحاق بها. لكن ماذا سأقول؟ «أحيانًا يخرج صديقك من المقهى وقت خروجي من المكتبة؟»، «أحيانًا يتبعني روب عند عودتي إلى المنزل؟». يبدو من السهل جدًّا تبرير ذلك، وما لم أخبرها بكل شيء، فسيبدو الأمر كأنه غيرة من جانبي.

تسللت إلى بار الإفطار قبل أن يتمكن آرتشي من البدء في الحديث عن كيف اعتاد تناول سمك البساريا قبل أن يصبح أكله رائجًا، والكركند المطهو على الشاطئ، وهما الموضوعان المفضلان للمحادثة لديه حاليًّا بعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في مكان ما في ديفون.

كان هناك صندوق من كتب الطهي في انتظاري. حسنًا، كان هناك كثير من الصناديق في انتظاري، لكن صندوق كتب الطهي كان أكبر صندوق، ويحتوي على أقل قدر من الكتب. اصطدمت به وأنا أُدخله من على الدرج مع باقي التبرعات ذلك الصباح. ويرفض آرتشي السماح لي بوضع لافتة على الباب مكتوب عليها «نحن لسنا متجرًا خيريًّا، لا تتخلص من كتبك هنا»، لأنه يقول إنها لن تجدي نفعًا. وهو محق على الأرجح.

أفرغت الصندوق، ورتبت الكتب في أكوام حسب المؤلف. كانت هناك بضعة كتب جيدة، لم تكن كنوزًا، بل كتبًا من التسعينيات لمؤلفين ما زالوا يتمتعون بشعبية كبيرة، مما يعني أن الناس سيشترونها بالفعل.

أيًّا كان صاحب الكتب الموجودة في الصندوق، فقد كانت علاقته بالطهي

طموحًا أكثر منها تطبيقًا عمليًا. فلم يكن هناك سوى أثر بسيط للغاية على استخدام الكتب، ولم تكن ثمَّة صفحات ملتصقة ببعضها، ولا قصاصات من الورق تشير إلى الوصفات المُستخدَمة كثيرًا، ولا ملاحظات في الهامش حول كميات المعجنات. لا بد أنها اشتُريَت في الغالب للعرض على رف في مطبخ أنيق. فكرت في ترتيبها على الطاولة الرئيسية، على سبيل الدعاية: «وصل حديثًا، الحق نسختك». يحب آرتشي أيضًا المكسب السريع، على الرغم من أنه لا يحتاج في الواقع إلى القلق بشأن المال. فهو لا يعتمد على المكتبة لكسب لقمة عيشه، ولا يتقاضى راتبًا حتى، بل يدفع الإيجار والفواتير وراتبي فقط، ونكسب ما يكفي لتغطية ذلك في معظم الأشهر.

لكنني علمت أن بيع دزينة من كتب الطهي مقابل ثمانية جنيهات للكتاب، أو كتابين مقابل خمسة عشر جنيهًا إسترلينيًا، من شأنه أن يرسم ابتسامة على وجه آرتشي. شرعت في حملها إلى الطاولة الرئيسية، ورتبتها في صورة عمود متدرج، كي تبدو مثيرة للاهتمام من كل زاوية. وبينما أنا أرتبها، تحققت مرة أخرى من وجود آثار للاستهلاك قد تكون فاتتني، حيث يقبل آرتشي المساومة، لكنني لا أفعل. لذا إذا كان السعر عادلًا منذ البداية، أتمسك بموقفي.

أدركت أن كتاب «دورة ديليا للطهي الشامل» لم يكن في أفضل حال. كان لا يزال يحمل غلافه الخارجي الواقي، ولهذا افترضت أنه في حالة باقي الكتب نفسها التي في الصندوق. لكنني أدركت أنه مختلف عن الكتب الأخرى من قبل أن أفتحه حتى. كان مُستخدمًا، وله طابع مميز، وليس هذا فحسب، بل كان له طابع مميز تعرفت عليه.

بداية، كان الغلاف الواقي ممزقًا من الأمام، وشكَّل الجزء الممزق خطًّا متعرجًا من أعلى اليسار إلى منتصف اليمين، مثل رسم بياني كرتوني لشركة تتكبد الخسائر، وتم ترقيعه عشوائيًّا بقطع صغيرة من الشريط اللاصق بعرض الجزء الممزق، وفوقها بعد ذلك شريط طويل. وعندما التقطته، غمرني مجددًا ذلك الشعور الذي راودني مع كلاسيكيات بينجوين وكيت جريناواي. افترضت أن

تلك كانت مصادفات، وحوادث عرضية: فما الاحتمالات في الواقع بأن ينتهي المطاف بهذه الكتب بين يدَي؟

لكن الماضي عاد الآن ليظهر أمامي كما لو أنه سيهاجمني، وبذلت قصارى جهدي كي لا ألقي الكتاب من يدي وأهرب، كما كنت سأفعل لو اشتعلت فيه النيران.

أغمضت عينَي وأخذت نفسًا عميقًا وقلت لنفسي إنني أتصرف بسخافة.

لا يمكن أن يكون كتابنا. لا يمكن أن يكون كذلك.

عندما فتحت عينَي مرة أخرى، تأكدت من أن كل ما أراه هو أحد كتب الطبخ الأكثر مبيعًا على الإطلاق، وكانت والدتي تمتلكه بالطبع، لأن كل أسرة أخرى تقريبًا في البلاد لديها نسخة. قلبت الصفحات، واستعدت الذكريات. كانت هناك كعكة الشوكولاتة الهشة التي أحببناها، وكانت والدتي تضحك وتطلق السباب على طريقتها أحيانًا (أوه، اللعنة!) وهي تحاول لفَّها من دون أن تتشقق الكعكة الإسفنجية. لم تنجح في ذلك قَطُّ، وبمجرد أن كبرتُ بما يكفي لقراءة الوصفة، أشرت لها إلى أن ديليا ذكرت أنها سوف تتشقق، لكن ذلك لم يكن جيدًا بما فيه الكفاية بالنسبة إلى والدتي: «أردتها أن تكون مثالية هذه المرة، يا إل جيه».

ثم كانت هناك بيتزا المقلاة التي كنا نتناولها أحيانًا في عطلات نهاية الأسبوع، لكن من دون الزيتون والأنشوجة. أعتقد أنه أمر غريب، لكن بالنسبة إليَّ، فلا يزال هذا هو المذاق الحقيقي للبيتزا، ولا أكترث بالبيتزا الأصلية التي من العجين المصنوع يدويًّا والمخبوزة في أفران الحطب. وقد أَحب صاحب هذا الكتاب هذه الوصفة أيضًا، حيث التصقت زوايا الصفحات معًا بما يشبه معجون الطماطم.

وبينما كنت أتصفح الكتاب، كدت أتذوق بحر ويتبي مرة أخرى، وباب المطبخ مفتوح كي تخرج الحرارة، ورائحة الشاطئ تندفع إلى الداخل مع الهواء البارد. أَحب مالك هذا الكتاب الأشياء نفسها التي أحببناها. انفتحت الصفحات عند وصفات الكعك، وشرائح لحم الخنزير مع المريمية والتفاح، والبراونيز، وكعك الزنجبيل. مكتبة سُر مَن قرأ

بحثت عن فطيرة ميرانغ الليمون، لأنني تذكرت كم أحببت المساعدة في صنعها. كان هناك كثير من الأشياء التي يجب «إعدادها» في العجين، ثم الحشو والميرانغ، وعندما كنا نتناولها، عادة في المناسبات الخاصة، لم أستطع أن أصدق قَطُّ كم كانت جميلة. اقترب موعد عيد ميلاد آرتشي، وكان من المستحيل شراء شيء له، لأنه كان يمتلك كل شيء يريده، باستثناء الأشياء التي كانت باهظة الثمن بدرجة لا أستطيع تحمُّل تكلفتها، مثل السيجار الغالي والنبيذ الذي له أسماء غير قابلة للنطق. لكن إذا صنعت له شيئًا، فسيعلم أنني أقدِّره، من دون أن أضطر إلى قول ذلك. فأنا أكره التصريح بالأمور، ولهذا السبب أحب الشعر، على ما أعتقد، فهو يلتزم بالحد الأدنى من الكلمات، ولا يمكنك الجدال مع قصيدة، ومن الوقاحة مقاطعتها.

كان من السهل العثور على صفحة فطيرة ميرانغ الليمون، حيث وُضعت عليها علامة بالفعل. كانت داخل الصفحات بطاقة بريدية من ويتبي: صورة للجروف الصخرية التُقطت من المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه على الشاطئ في الأيام الصيفية الدافئة، على الرغم من أنني لطالما ظننت أن الجروف الصخرية تبدو في أحسن حالاتها عندما يكون الجو ممطرًا والسماء غائمة. كانت تلتمع بطريقة ما، وفي الوقت نفسه تثير الرهبة. شعرت كما لو أنها كانت في صفي. نظرت إلى البطاقة البريدية، وأقسم إن قلبي توقف عن النبض لحظة بالفعل، وهو التعبير الذي لطالما ظننته غبيًّا. لكن مع ذلك شعرت به يختلج في صدري لحظة، قبل العودة لعمله كالمعتاد.

قلبت البطاقة البريدية.

كانت هناك أربع كلمات: «أتمنى لو كنت هنا»، مكتوبة بالحبر الأسود الذي بهت وتحوَّل إلى الأزرق الداكن حيث كانت خطوط القلم أقل قوة، ورُسم حولها قلب متعرج.

إذا كان قلبي قد اختلج من قبل، فقد أخذ يتواثب في صدري الآن.

أو ربما سقط ميتًا.

بدا قلبي كأنه لم يعد له وجود فحسب، ولا الهواء الذي كان في رئتَي. لكن ظلت عيناي تعملان، ورأتا أن يدَي ترتجفان.

كان خط يد والدتي.

كان مستديرًا مثلها، وكله منحنيات، ومعظم الحروف تقريبًا عريضة بقدر طولها. يمكنني التعرف عليه في أي مكان. في بطاقات عيد ميلادي، دائمًا ما كانت ترسم قلبًا حول اسمي، وحول كلمتَي «والدتك»، و«والدك»، ولا أدعي أنها تمتلك حقوق الملكية الفكرية لذلك الرسم الزخرفي على وجه التحديد، بل أقول إنني عندما وصلت النقاط ببعضها: البطاقة البريدية، وخط اليد، والكتاب...

لقد كان كتابها. كتابنا.

كي أتأكد فحسب - بدأت رئتاي تعملان مجددًا، لكن على نحو أقوى، حتى إنني سمعت بالكاد الأصوات في المكتبة بسبب قوة أنفاسي التي تندفع دخولًا وخروجًا مني - عدت إلى بداية الكتاب وشرعت أقلب الصفحات.

كان مطبخنا صغيرًا، وعندما كنا نخبز أنا ووالدتي، كنا نضع الكتاب مفتوحًا على الطاولة، ونضع حوله المكونات التي كانت تسقط فوقه دائمًا، وكان والدي يمزح قائلًا إنه إذا أعجبه ما أعددناه وأراد تناول المزيد، فيمكنه لعق صفحة الوصفة. هكذا تركنا أثرًا من الأدلة على كل ما خبزناه، وكانت الأدلة أمامي الآن هنا.

قال ناثان خلفي:

- تمتلك والدتي هذا الكتاب.

جفلت، وكدت أسقط عن المقعد، فقال:

- مهلًا، اهدئي.

وضع يديه على جانبي خصري، وتركهما هناك، ووقف خلفي، وأنفه في شعري، وشفتاه على مؤخرة عنقي. يميل ناثان إلى التلامس بكثرة، لكن ليس على نحو مزعج. فهو يضع يديه ويتركهما هناك، من دون مداعبة أو قرص أو عبث بالشعر، ويعجبني ذلك، فأنا لست كلبًا من فصيلة الشيواوا.

قلت:

- ووالدتي أيضًا.

بدا صوتي غريبًا، كأنه تحول إلى نوع من السعال وهو في طريقه إلى الخروج من فمي.

أخذت أحاول ربط جميع النقاط، في حين لم أدرك حتى أنها مرتبطة ببعضها: كلاسيكيات بينجوين، وكتاب كيت جريناواي، والآن هذا. لا يمكن أن تكون مصادفة. لكن إذا لم تكن مصادفة، فماذا تكون؟

تسارعت أنفاسي، ولاحظت أن ناثان أحس بذلك، فشدد يديه حولي بعض الشيء.

قال:

- يا فتاة ريبون، أنت في حاجة إلى جرس باب صغير، أو شيء من هذا القبيل، كي يُعلِمك الأشخاص بوجودهم. دائمًا ما أجعلك تجفلين.

لم أستطع التفكير في أي شيء لأقوله. خشيت أن أفتح فمي مجددًا، فيندفع منه كل شيء، ويعود كل ما عملت جاهدة للابتعاد عنه كي يطاردني مرة أخرى.

سألني:

- هل أنت مستعدة؟

كان يرتدي زيه الكامل كساحر: معطف يصل طوله إلى الركبة، وحذاء ذو مقدمة طويلة ومدببة، وسروال أسود أنيق، تحته جوربان زاهيان باللونين الوردي والأخضر، لم يكونا ظاهرين إلا إذا أراد هو إظهارهما، لكنهما كانا يبرقان بلون زاهٍ عندما يجلس القرفصاء أو يمد ساقيه، وافترضت أنهما يعملان على تشتيت انتباه الناس، مثلما يعمل حذاؤه من طراز دوك مارتنز المربوط على نحو خاطئ. كان يحمل حقيبة جلدية، وفي الليلة السابقة أراني كل ما تحتويه، والحيل التي سيؤديها. وعلى الرغم من علمي أنها حيل، لكن لم يكن لديَّ أي فكرة عن كيفية قيامه بها. كان الأمر محبِطًا ومثيرًا بعض الشيء، وكانت ليلة سعيدة.

اعتادت والدتي وضع بطاقات بريدية في حقيبة والدي عند ذهابه إلى عمله

في منصات النفط، وكنت أرسم صورًا أو أكتب الرسائل، وكنا ندس رسائلنا في حقيبته، بين الملابس التي تفوح منها رائحة البرد، والعمل الشاق، وكنا نضحك عندما نفكر في مدى دهشته عندما يجدها. وهو ما لم يكن ليشعر به بالطبع - كان سيتفاجأ أكثر لو لم نكلف أنفسنا عناء ذلك - لكن ذلك لم يخطر ببالي قَطُّ. وعند عودته إلى المنزل، كان يضع البطاقات البريدية على الثلاجة، لكنني لم أرَ الرسائل التي كتبتها له مرة أخرى، ليس حينها على أي حال، على الرغم من أنها عادت إليَّ لاحقًا عقب إخلاء المنزل.

نظرت إلى الكتاب مرة أخرى، وإلى خط يد والدتي على البطاقة البريدية، وشعرت كأن جسدي كله مملوء بالقطران. مجرد فكرة التحرك من مكاني دفعتني إلى الرغبة في البكاء، بينما لم أعد أبكي حقًّا. إن فكرة الذهاب إلى حفلة ومشاهدة ناثان وهو يسحب العملات المصنوعة من الشوكولاتة من خلف آذان مجموعة من الأطفال جعلت القطران يتصلب.

ثم شعرت بالخوف فجأة.

من عساه يعرف بشأني؟ ومن يراقبني؟ بدا الأمر أكبر من كونه مجرد مصادفة، أن ينتهي المطاف بكتاب والدتي بين يدَي هنا - يداي اللتان ورثتا شكل أظفارها نفسه - من دون أن يكون أحدهم قد ربط بيننا عن عمد، أليس كذلك؟ افترضت ضياع كل هذه التذكارات عندما ساءت الأمور. خشيت أن أتحرك، أو حتى أن أتلفت حولي، مثل شخصية في إحدى قصص إدجار آلان بو. لم أعرف ماذا سيحدث، لكنني كنت على يقين من أنه سيكون شيئًا سيئًا. طوال تلك السنوات، ظننت أنني هربت من الماضي، لكن الحقيقة هي أنها كانت مجرد مسألة وقت قبل أن يجدني.

أدرت عنقي كي أتمكن من النظر إلى ناثان.

- لا أستطيع الذهاب. أنا آسفة.

- ما الخطب؟

- أنا فقط... لا أستطيع. لديَّ الكثير لأقوم به هنا.

نظرت إلى الصناديق المكدسة على الأرض، وإلى تلك التي تنتظر فوق الطاولة.

قال:

- لافداي، لقد تصافحنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

تصافحنا بالفعل، في عطلة نهاية الأسبوع.

كنا نتبادل الحديث في الفراش، وسهرنا حتى وقت متأخر ونحن نتناول النبيذ، وكان ناثان يحدِّثني عن نشأته، والعطلات الصيفية في كورنوال، والتخييم في منزل صديقة والدته، واستمعت إليه وأنا أفكر في ذكرياتي القليلة عن بحر كورنوال والأشياء التي أخبرني بها والدي. وعندما سألني ناثان عن ذكرياتي عن العطلات، قبَّلته وقلت إن علينا أن نخلد إلى النوم. كما ذكرت، لم أكن عذراء عندما التقيت ناثان، لكن هذه كانت أطول علاقة لي مع شخص واحد، وبدأت أتعلم ما يعنيه... حسنًا، التعرف على شخص بشكل حقيقي. تدور الكتب في الغالب حول الوقوع في الحب، والشوق، والقبلات الأولى، والليالي الأولى التي تقضيها مع شخص ما. لذا لم أفكر حقًّا في أنه قد يكون هناك ما هو أحلى من ذلك، لأن معرفة شخص ما، والتعرف عليه بشكل أفضل، يعني أن كل شيء في الواقع صار أفضل مما كان عليه في البداية.

لا، لم أكن واقعة في الحب. بل فقط... أستمتع بالحميمية.

في صباح اليوم التالي، استيقظ ناثان أولًا. كنت مستلقية على بطني في الفراش، وكانت الليلة السابقة حارة، وسقط اللحاف على الأرض. أيقظني الشعور بقبلة على مؤخرة عنقي، وكان ذلك سيخيفني في الماضي، لكنني تمطيت وبقيت مكاني فحسب. تراجع ناثان في جلسته، ومرر إصبعه على الكلمات الموجودة على ظهري، وإحدى كتفَي أولًا، ثم الأخرى.

قال:

- تعجبني وشومك.

بدا صوته دافئًا كالصباح. وقد خلت بشرته هو من أي علامات، وبدت شاحبة، مثل جبن الإيدام عندما تزيل عنه الشمع.

قلت:

- ليس لديك أي وشوم.

قال:

- لا، أخشى أن يكون الأمر مؤلمًا، وسينتهي بي الأمر بنصف وشم ما، ولن أعرف كيف أتخذ قرارًا.

قلت:

- ممم...

لم أرغب في خوض تلك المناقشة الكلاسيكية: «لكنك ستظلين عالقة به بقية حياتك». يمكن قول الشيء نفسه بخصوص إنجاب طفل، لكن الناس لا يفعلون ذلك.

سأل:

- لماذا هذه الوشوم تحديدًا؟

زال شعور القشعريرة عن بشرتي، وغمرتها البرودة. يمكن أن تقودنا هذه المحادثة إلى أي طريق، ولا ينبغي أن تؤدي بنا إلى هناك. ومع ذلك، كان هناك جزء مني - همس آتٍ من الجزء الخلفي من عقلي، ذلك المكان الخفي - يتساءل: لماذا لا أخبره فحسب؟ أخبره بكل شيء. وقد تجاهلت ذلك بالطبع، لأنه لن ينتج أي شيء جيد عن ذلك الاعتراف. مع ناثان، كنت آخذ إجازة من نفسي، وسأستمتع بالأمر ما دام مستمرًّا.

قلت:

- ما رأيك؟ فلتخبرني إلى أي كتاب ينتمي الاقتباس، وسأخبرك لماذا اخترته.

قال:

- اتفقنا.

قبَّل كتفي اليسرى، فسَرت القشعريرة في بشرتي، ثم قرأ الكلمات:

- «لم يكونوا أطفال سكة حديد في البداية». سأجازف بالقول بأن هذا الاقتباس من رواية «أطفال السكة الحديد». هل يجب أن أعرف اسم المؤلف؟

جلست متكئة على أحد مرفقَي كي أتمكن من التحدث بسهولة أكبر. ظل يمرر أصابعه إلى أعلى وأسفل على كتفَي وعمودي الفقري، وشعرت كما لو أن بشرتي تثب لتلتقي به. قوست ظهري قليلًا، فباعد ما بين يديه وبدأ يداعب جانبَي قفصي الصدري. لم أكن لأتعجل الذهاب إلى أي مكان صباح الأحد هذا. قلت:

- لا، بل الكتاب فحسب. وقد اخترته لأنني أحببت أن والدها عاد في النهاية.

وإذا حدث وأن سمع بدايات البكاء في صوتي، فهو لم يُظهِر ذلك. صارت كفاه مستويتين فوق ظهري الآن، تفركانه وتدلكانه. كنت قد أخبرته أن والدي مات، لذا أعتقد أن صوتي الباكي كان مقبولًا. قلت:

- نسبيت[1] هي المؤلفة. ظننتك مثقفًا.

ركز انتباهه على كتفي اليسرى، بقبلة أولًا، ثم تتبع الحروف بأصابعه.

- «لم تكن هناك إمكانية للذهاب للتمشية في ذلك اليوم». أشعر كما لو أنني يجب أن أتعرف على هذا. هل يمكن أن أحظى بدليل؟

فكرت في جين إير، وفي مدى شعورها بالمحاصرة، وكيف لم تكن هناك إمكانية لدى والدتي للذهاب للمشي. فكرت في كلاسيكيات بينجوين الموجودة على الرف في ويتبي. ظننت أن هذه اللعبة لا تعجبني في النهاية، وتمنيت لو أنني لم أبدأها. وذكَّرت نفسي أن البداية والنهاية نقطتان مختلفتان، وفي الحياة الواقعية قد تصبح قادرًا على صنع نهايتك الخاصة، بصرف النظر عمَّا حدث من قبل. نعم، فكرت في ذلك قبل قصيدة ناثان، وأعتقد أنها أزعجتني جزئيًّا لهذا السبب.

---

(١) إديث نسبيت: مؤلفة وشاعرة إنجليزية، أسهمت في كتابة أكثر من ستين كتابًا للأطفال، ومن أشهر هذه الأعمال «أطفال السكة الحديد». (المترجمة).

قلت:

- لا توجد أدلة.

ضحك ناثان.

- افترضت بالفعل أنه لن تكون هناك أدلة. لماذا كل الخطوط مختلفة؟

قلت:

- أوه، لأنني أسمح لرسامي الوشم باختيار الخط، فما يعنيني في الواقع هو الكلمات فحسب.

استدرت واستلقيت على ظهري، ويداي خلف رأسي. استحم ناثان قبل أن أستيقظ، وكانت بشرته لا تزال رطبة بعض الشيء. وقد استخدم جل الاستحمام الخاص بي، لذا كانت تفوح منه رائحة الجريب فروت الحادة، التي بها مسحة من الحلاوة. انفكت المنشفة التي ربطها حول خصره، ولم يكن عريض البنيان، لكنه لم يكن نحيلًا أيضًا، بل بدا عرض صدره مثاليًّا، وتناثر الشعر في منتصفه. وضعت باطن قدمَي على عظمة القص، فأحاطت يداه بكاحلَي وبدأ يتحسس طريقه أعلى ساقَي. كنت أعلم أنه ليس لديه أي فكرة عن مصدر الوشم الموجود على عظمة ترقوتي. وُشم على الجانب الأيسر: «كان الكتاب سميكًا وأسود ومغطى بالتراب»، من رواية «التملك»، وقد أحببت ذلك الكتاب لأنه يُظهِر أن الحب معقد، وحتى عندما لا يسير الأمر كما هو مخطط له، فمن الممكن أن يظل حقيقيًّا. بالإضافة إلى ذلك، فإن جوهر الرواية يتمحور حول الشعر. وحقيقة كون الأحداث تدور جزئيًّا في ويتبي جلبت لي الراحة والألم معًا، وهو ما يجب أن يفعله الكتاب الجيد. أما على جانب ترقوتي الأيمن، وُشم: «انتهى موسم أزهار الربيع»، من رواية «تل ووترشيب داون». قرأت الرواية عندما كنت أصغر سنًّا من أن أقرأها على الأرجح، في أثناء إقامتي في منزل إلسبيث فيبس، وقد أخافتني، لكنها علَّمتني أيضًا أن الأمور يمكن أن تتغير. وعندما أعدت قراءتها، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، حصلت على الوشم كنوع من التحية لتلك الطفلة الخائفة التي واصلت تقليب الصفحات على الرغم من شعورها بالخوف.

بدأ ناثان يولي بعض الاهتمام بفخذي اليمنى. قرأ:

- «بعض الأشياء تبدأ قبل غيرها». نيتشه؟

ضحكت قائلة:

- يا لك من أحمق صفيق. هذه مقولة عميقة.

ثم بدأ يتتبع الكلمات بأصابعه على فخذي.

- «جميع العائلات السعيدة متشابهة، لكن كل عائلة تعيسة هي تعيسة بطريقتها الخاصة». الجميع يعرفون ذلك.

- بمن فيهم أنت؟

ضحك قائلًا:

- من فينا الصفيق الآن؟ «آنا كارنينا»، تأليف ليو تولستوي.

أخرجت يدَي من خلف رأسي وصفقت.

- أعتقد أن هذا الاقتباس يتحدث عن نفسه.

والآن بعد أن تحررت يداي، مددتهما إلى وجهه، وجذبته نحوي وقبَّلته. كان تقبيل ناثان شيئًا أردت فعله طوال الوقت هذه الأيام. علاوة على ذلك، لم أرغب حقًّا في شرح سبب اختياري للجملة الأولى من رواية «المريض الإنجليزي»، الموشومة على فخذي الأخرى: «وقفت في الحديقة حيث كانت تعمل، ونظرت إلى الأفق». لم أعرف ما إذا كان ناثان سيتفهم أن رواية عن الأشخاص المختبئين تمنحني شعورًا بالارتياح. ولم أرد أن يعرف أن فكرة النظر إلى الأفق هي شيء لن أجرؤ على الإقدام عليه أبدًا.

لحسن الحظ، تزايدت وتيرة القبلات، وبعد نصف ساعة استلقينا ممددين تحت أشعة الشمس الآتية من النافذة والتي تجمعت فوق بشرتينا.

قال ناثان مبتسمًا:

- أعتقد أننا نفهم بعضنا، يا لافداي.

فأومأت برأسي.

ثم ظهرت الجدية على ملامحه، واستعددت، فقال:

- ومع ذلك، فإنكِ لا تتحدثين كثيرًا عن نفسك، وكل ما أعرفه حقًّا هو أنك تعملين في مكتبة، وأنكِ نشأتِ في ريبون، وقد مات والدكِ، ولست على اتصال مع والدتك، وقرأت سبعة كتب، أو على الأقل الأسطر الأولى منها.

ضحكت. كان ناثان يثير ضحكي بمشاكسته لي. وكان آرتشي يشاكسني بعض الشيء أحيانًا، لكنها كانت مشاكسات ذات مغزى، مثل مشاكستي بشأن حالة شقتي أو صبغ شعري، لذلك لم أعِرها أي انتباه.

قلت:

- هذا هو كل ما تحتاج إلى معرفته. هذا هو كل شيء، في الواقع.

إذا اختزلت الأمر، كان كذلك بالفعل، إذا استبدلت ويتبي بريبون، على أي حال.

نظر إليَّ، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وفكرت: «ها هو سيضع شروطًا الآن»، وكنت على حق، لكنه كان شرطًا واحدًا، وقد أعجبني.

قال:

- لا يهمني ما إذا كانت هناك أشياء لا تريدين إخباري بها، لكن يهمني أن يكون ما نخبر به بعضنا بالفعل هو الحقيقة.

قلت:

- حسنًا.

وانتابني الشعور نفسه الذي كان يساورني وأنا طفلة، على الشاطئ، عندما لا يكون هناك أي شخص آخر تقريبًا، ويمكنني أداء إحدى شقلباتي الرديئة ومؤخرتي تبرز للخارج، من دون أن يلاحظ أحد. تابعت قائلة:

- هل هناك أي حجر عثرة آخر قد يحول دون اتفاقنا؟

قال:

- لا أعتقد ذلك.

ثم مد يده، وصافحتها. من الغريب أن تصافح يد شخص ما وكلاكما عاريان،

حيث يبدو الأمر غير مناسب في ذلك السياق. لكنه نجح في الإفلات بالأمر، كما هي الحال في حركة رفع القبعة التي يؤديها.

* * *

كرر قائلًا الآن:

- لقد تصافحنا، فلتخبريني الحقيقة.

نظرتُ إلى كتاب طهي ديليا، ثم نظرت إليه وإلى عينيه الزرقاوين كالبحر، وقلت:

- لقد حدث شيء ما جعلني أشعر... بالتوتر. ليس ثمة خطب، لكنني فقط لا أشعر بالرغبة في الذهاب إلى أي مكان. لا أستطيع الابتسام والتعرف على أشخاص جدد. أحتاج إلى وقت للتفكير في... هذا الشيء.

أومأ برأسه وسأل:

- هل أزعجتك؟

- لا، فأنت لست محور الكون.

أطلق ضحكة خفيفة، وقال:

- هل ستتحدثين معي عن الأمر؟

قلت:

- لا أعرف بعد.

قد يكون ذلك ما يُعدُّ من الناحية العملية كذبة بيضاء.

- هل هو شيء يمكنني مساعدتك فيه؟

- لا أعتقد هذا.

كانت المكتبة هادئة، ووقف آرتشي خارج الباب مباشرة، يلقي التحية على المارة بحرارة، كما لو أنه فاز بجائزة الأوسكار عن أفضل ممثل لشخصية (فئة أصحاب المكتبات).

- هل ستكونين على ما يرام هنا؟ وهل ما زلت تنوين أخذ إجازة بعد الظهيرة؟

قلت:

- سأكون بخير. أعتقد أنني سأعمل، فلديَّ الكثير حقًّا مما يلزم القيام به.

لا ينتهي الأمر أبدًا، وهذا هو ما يعجبني فيه: دائرة حياة الكتب. يأتي أشخاص للبحث عنها، بينما يُحضِر أشخاص آخرون تلك الكتب التي استنفدت فائدتها في تلك الحياة، لكن يمكنها أن تولَد من جديد في حياة أخرى. وأساعد أنا النظام برمته على العمل، كما لو أنني القديس بطرس الخاص بفردوس الكتب، أو... أوه، لا أدري، الخراف والجداء، والقمح والتبن، اختر الكناية الإنجيلية التي تعجبك عن التخلص من الهراء.

قال:

- حسنًا.

وقبَّلني كما لو أنه يعني ذلك بالفعل، ثم رحل. وصل إلى الباب ثم عاد، وقال:

- هل ستتصلين بي؟

قلت:

- أجل، فلتنصرف وتوقف عن طرح الأسئلة عليَّ.

ضحك، وأدى حركة رفع القبعة، التي بدأت أجدها محبَّبة. رغمًا عني، بدأت أتطلع بشدة إلى قضاء الوقت مع ناثان. أحببت كوننا نستطيع قضاء أمسية معًا ونحن نقرأ فحسب. وعندما كان يأتي للقائي عند المكتبة في نهاية اليوم، بدا كما لو أنه يجلب معه نوره الخاص. أعرف أنني كنت أتصرف بسخافة. وبينما راقبت ناثان وهو يرحل، شاهدت روب يمر أمام النافذة، متوجهًا نحو المقهى. رفع يده، وتظاهرت بأنني لم أرَه. وجود غرة للشعر أمر رائع للغاية عندما تكون شديد التدقيق فيمن تختار التحدث إليه. أحيانًا كنت أرى الهدف من قبعة ميلودي. تساءلت عمَّا إذا دس روب الكتاب، وعمَّا إذا كان يعرف بالأمر بطريقة ما، حيث قال إنني أتحدث في أثناء نومي. الناس يدخلون ويخرجون من المكتبة طوال الوقت، بينما الكتب التي تنتظر الفرز موجودة على الأرض أو الطاولة. لكن مع ذلك، لا أعرف كيف يمكن أن يكون قد حصل على كتاب الطهي الخاص بوالدتي. ولو أراد روب إخافتي، فمن المرجح أكثر أن يضع فأرًا ميتًا في صندوق البريد.

جلست وقد أدرت ظهري للمكتبة التي سادها الهدوء، ولم يكن هناك أحد ظاهر في المرآة، لكنني شعرت بأنني مراقَبة، ولم يعجبني ذلك حقًّا.

تناولت الغداء مبكرًا، وأخذت كتاب ديليا سميث، وجلست على الكرسي أمام مخرج الطوارئ فترة طويلة. تأملت البطاقة البريدية، وعندما ركزت على الصورة، تمكنت من إقناع نفسي أن المكتوب على الخلف كان بخط يد مختلفة. لكن عندما قلبتها أدركت أنني مخطئة، وأنه لا يوجد سوى شخص واحد فقط يمكن أن يكون قد كتب الرسالة على تلك البطاقة البريدية. كانت الكلمات والحروف والمداد والقلب أدلة شرعية دامغة، وكنت أعرف ذلك. حسنًا، ربما تكون أدلة ظرفية، لكنها لا تزال ساحقة.

وضعت البطاقة البريدية على الرف بجانب الكرسي وبدأت أقلِّب الصفحات ببطء، ولم أعد أدَّعي لنفسي أن الكتاب ليس كتابنا.

جفلت عندما أتى آرتشي إلى الجزء الخلفي من المكتبة، وسألني عندما رأى وجهي:

- هل أنت بخير يا لافداي؟

أعتقد أنني كنت أبكي، ودفعتني فكرة ترتيب الأرفف والتحدث مع العملاء إلى الرغبة في البكاء بدرجة أشد. علاوة على ذلك، كان هذا عصر أحد الأيام التي تأتي فيها ميلودي، ولم أرغب في سماع شيء عنها هي وروب. كل ما أردته هو العودة إلى المنزل.

قلت:

- في الواقع، لا أشعر بأنني على ما يرام.

فكرت في استخدام آلام الدورة الشهرية كذريعة، لكن آرتشي كان يستحق ما هو أفضل من ذلك، وعلى أي حال، ربما سيبدأ في استعادة ذكرياته عندما كان طبيب أمراض النساء الخاص بمادونا، أو شيئًا من هذا القبيل. أخذت نفسًا عميقًا، وقلت:

- هذا الكتاب، أعتقد أنه كان نسختي، أعني نسخة والدتي، وجعلني هذا

أفتقدها.

قال:

- أوه، يا لافداي.

ووقف ينظر إليَّ بهدوء.

قلت:

- لا أعرف أين هي.

ثم علا رنين الجرس فوق الباب الأمامي، ونادى شخص ما باسم آرتشي، فنهضت قائلة:

- هل تمانع إذا عدت إلى المنزل؟

قال آرتشي:

- بالطبع لا، سنتحدث عن هذا الأمر في وقت لاحق، يا لافداي.

لم أذهب إلى الأمسية الشعرية، وأرسل إليَّ ناثان رسالة نصية لاحقًا للترتيب للذهاب ومشاهدة فيلم في عطلة نهاية الأسبوع، من دون طرح أسئلة ولا ترهات. قد يظن المرء أن ذلك أفضل من أن يكون حقيقيًا.

التاريخ

٢٠١٣

يوجد هنا طعام

أعتقد أنني أحببت حينها كون روب غير مثالي، على الرغم من كل سِمات السيد روتشستر التي يتسم بها. وأظن أن هذا هو السبب الذي دفعني إلى الخروج معه مرة أخرى، على الرغم من تلميعه لحذائي. أعرف، أعرف، لكن عندما تكون أنت نفسك غير مثالي، وتصادِف شخصًا يبدو من الواضح أن لديه عيوبًا أكثر منك، فهذا أمر مشجع ويبعث على الارتياح. مشجع لأنه يمنحك - حسنًا، فلتتحمَّلي المسؤولية، يا لافداي - منحني شعورًا بأنني أستطيع تحقيق المزيد إذا أردت ذلك. يمكنني الحصول على شهادة، بداية. ويمكنني أن أجعل مستقبلي مختلفًا عن ماضيَّ. وقد أحسست بالارتياح أيضًا لأنني شعرت كما لو أنه واحد من أفراد عشيرتي، لو كانت لي عشيرة، وبصراحة، لن يكون ناثان كذلك أبدًا. ربما لا أتناول حفنة من الأدوية يوميًّا مثلما يفعل روب، لكنني كنت أعلم أنني لن أفوز أبدًا بأي جوائز في مجال الصحة. لذا كانت هناك تلك الأمور، كما أنه تحدَّث عن الكتب، وعندما بدأ في قراءة مذكرات فلورنسا، تحدث كثيرًا عن «الثراء» و«البنية» لرسالة الدكتوراه خاصته. حسنًا، أعتقد أن هذا أصابني بالغرور، لأنني لم أعُد بائعة في مكتبة، بل كنت أجري أبحاثًا مهمة. أشعر بالحرج عندما أفكر في الأمر الآن.

أولًا، يجب أن أعرف أنا، من بين جميع الناس، أنه لا يوجد شيء أفضل وأكثر أهمية من الكتاب، وقد أنقذني العمل لدى آرتشي إلى حدٍّ كبير، لذا ما كان يجب

عليّ الاعتقاد أنه لا أهمية للأمر. ثانيًا، ليس ثمة ما يعيب في العمل بمكتبة. ومن الناحية الإحصائية، وبالنظر إلى طبيعة الحياة التي عشتها، يُعدُّ هذا إنجازًا هائلًا، حيث يجب أن أكون، في أحسن الأحوال، عاطلة عن العمل، وفي أسوأ الأحوال، أشرب النبيذ المقوى من الزجاجة مباشرة، أو أتعاطى المخدرات في مدخل محطة السكة الحديد بينما يمر الناس مسرعين بجانبي خوفًا من أن أسرقهم. أو في السجن بالطبع. أنا لست غبية، وأعرف أن آرتشي وكتبه هما العاملان اللذان أحدثا فرقًا. لذا أشعر بالحرج عند التفكير بأنني ظننت أن روب، بكل حديثه الذي لا نهاية له عن كون دافنشي هو الأعلى قامة من بين أقرانه، بدلًا من مجرد عبقري غريب الأطوار، جعلني شخصًا أفضل بطريقة ما.

أظن أنني أردت الاعتقاد أنني مهمة، وربما كنت قد وصلت إلى تلك النقطة التي توقفت عندها عن انتظار مرور الأيام، وبدأت في التطلع إلى المستقبل، وأردت أن يكون في الحياة ما هو أكثر من أربعين عامًا من انتظار صدور قوائم القراءة للمرحلة الثانوية حتى أتمكن من إعداد رزم صغيرة تحوي كل النصوص، جاهزة لسيل الآباء الذين يأتون للبحث عنها (لا سمح الله أن يتولى البالغون من العمر ستة عشر عامًا أداء مهامهم الرتيبة بأنفسهم). على الأقل ساعدني روب على إدراك ما أنعم به.

من المغري القول إن الأمور ساءت بسبب الوشم الجديد، لكن الحقيقة هي أنها لم تكن جيدة قَطُّ، وكل ما في الأمر هو أن السوء أخذ يكشف عن نفسه تدريجيًّا، وكانت مسألة الوشم هي أول مرة يظهر فيها الأمر بوضوح للعيان.

قرأت رواية «الرجال الأحرار الصغار» قبل ثلاثة أشهر، وظللت أعاود قراءتها، لذا ذهبت لوشم العبارة الافتتاحية على فخذي اليمنى.

يستغرق الأمر ما يقرب من ساعة لوشم عبارة مكتوبة، في حال كنت مهتمًّا، نعم، الأمر مؤلم، لأنه عبارة عن إبرة تدخل وتخرج من جلدك مثل مثقاب الحفر. لكنه ألمٌ اخترته طواعية بالطبع، مما يجعله مختلفًا بعض الشيء، لكنه ليس مثيرًا

بأي حال من الأحوال، بصرف النظر عما تقوله إي. إل. جيمس[1]. لكن الألم يبدو أقل إذا كان الوشم في مكان ممتلئ من الجسد، والشيء الجيد في كونها عبارة واحدة هو أنه يمكنك الشعور بالتقدم الذي يُحرز، وأتصور أنه في حالة الوشوم الملونة لا توجد طريقة لمعرفة كم تبقّى أمامك من الوقت. أتناول الباراسيتامول سابقًا، وفي أثناء قيامهم بالعمل، أعد حتى الألف ثم أعود إلى الصفر، ببطء، في ذهني. ويستغرق الاحمرار بضعة أيام ليختفي.

كان روب هو أول شخص يراها جميعًا، ولم يعلق في الواقع. شاهدني أرتدي ملابسي في الصباح، وقرأ بعض الكلمات على جسدي كما لو كان يقرأ عناوين الصحف، لكن لا شيء أكثر من ذلك.

وصلتُ متأخرة عن موعدنا ليلة السبت التالي.

ظننت أنني غادرت في الوقت المناسب، لكن فاتتني الحافلة واستغرقت الحافلة التالية عشرين دقيقة للوصول. بعد ذلك، وقع ازدحام مروري على الطريق الدائري بالمدينة. أخبرني روب أنه سيُعد طبق الأوسوبوكو الخاص به، الذي يجب أن يُنقع في التوابل يومين، ثم يُطهى على مهلٍ ليوم ثالث، لذلك افترضت أنه لن يفسد. تأخرت نصف ساعة عن الموعد الذي حددته، ولم أرسل رسالة نصية... حسنًا، لأن ذلك لم يخطر على بالي. فأنا لست شخصًا يمكن عدُّه خبيرًا في المواعدة، وأعتقد أنني افترضت أنه نظرًا إلى كون روب يعلم أنني قادمة بالحافلة، فهو يعرف أيضًا أن الحافلات تتعطل، وكانت لدينا نكتة متكررة بشأن المواصلات العامة. لا بد أن هذا كان موعدنا السادس تقريبًا، وهي فترة طويلة بما يكفي لأن تكون لدينا نكات متكررة، ولإجراء محادثة للاعتراف بمشكلات الصحة العقلية، وعلى ما يبدو، للشعور الزائف بالأمان.

---

(١) إي. إل. جيمس: كاتبة بريطانية، صاحبة سلسلة الروايات المعروفة «خمسون درجة من الرمادي»، التي صورت فيها جوانب من الألم واللذة المرتبطَيْن بالعلاقات الجنسية. (المترجمة).

قلت عندما فتح الباب:

- آسفة لأنني تأخرت.

بدأتُ التوضيح بشأن الحافلة، لكنه قاطعني بإيماءة من رأسه بدا من الواضح للغاية أنها لا تعني «قبلت اعتذارك».

قال:

- حسنًا، لا أعتقد أنه فسد تمامًا، على الرغم من أنني لا أستطيع قول الشيء نفسه عن طبق الريزوتو بالزعفران.

ثم استدار، وتبعته إلى داخل الشقة. خلعت حذائي عند الباب: كان حذاء من طراز دوك مارتنز بلون معدني، شبه مهترئ بفعل سنوات من الاستهلاك، لكنني نظفته قبل مغادرة منزلي. صففت الحذاء في زاوية قائمة مواجهة للحائط، بحيث لا تلامس مقدمته إزار الحائط تمامًا.

أعد روب الطاولة وأضاء الشموع، وبدا من الواضح أنه بذل كثيرًا من الجهد، لذا كررت الاعتذار، ثم أدركت أنني نسيت النبيذ الذي كان موجودًا في كيس على الطاولة في منزلي، وقلت إنني سأحضره. هز روب كتفيه وقال إن الأمر لا يهم، لكنني رأيت أنه يهمه بالفعل. أخذ ينفخ وهو يبحث عن النبيذ في مطبخه، وفكرت: «أنا في غنى عن هذا».

قلت:

- روب، أنا آسفة لأنني تأخرت وآسفة لأنني نسيت النبيذ. هل عليَّ الرحيل؟ إذا فسدت الأمسية، فمن الأفضل أن نقلل من خسائرنا.

لم أقل ذلك بغضب، بل سألت فحسب، لأنني بصراحة لا أمانع في تناول بيتزا في المنزل وقراءة كتاب. ولا أكترث بشأن الأشخاص الذين لا يعبِّرون صراحة عما يعنونه، وكان روب يعلم ذلك.

أعتقد أنه أدرك أنني لا أتحدث بدافعٍ من الغضب، لأنه جاء وقبَّلني قائلًا:

- أنا آسف يا لافداي، كل ما في الأمر هو أنني خططت لكل شيء.

بدا مضطربًا، وعند العودة بذاكرتي إلى تلك اللحظة، أرى أنه كان بالتأكيد

مختلفًا عن طبيعته المعتادة، وأعني بذلك أنه بدا مختلفًا بدرجة أكبر مما كان يمكن أن يحدث بسبب تأخري، حتى مع فساد الريزوتو بالزعفران على الموقد بينما تجاهد حافلتي للتحرك وسط الازدحام المروري.

لم يخطر ببالي أنه قد لا يكون على ما يرام. وأعتقد أنني ظننت أنه سيلقي بالمنشفة (المجازية) فحسب، وهو أمر لا مفر منه.

قلت:

- أرى ذلك.

وكدت أضيف قائلة: «لم أطلب منك هذا»، لكن ذلك كان سيبدو بغيضًا، وعلى أي حال، لم أكن متأكدة ما إذا أشعل أي شخص شمعة من أجلي على الإطلاق من قبل في سياق لا يشتمل على كعكة عيد ميلاد.

بدا أن الأمسية ستتحسن، وكان طبق الأوسوبوكو رائعًا، ومن الواضح أن روب أدرك أنني أحببته. استغرق في شرح مفصَّل لتاريخ الطبق، لكن هذه هي طبيعة الأكاديميين، ولم أمانع كثيرًا. وكان الشيء الذي أدركته من مواعدة روب هو أنه إذا امتنعت عن الحديث عن ماضيك، وكنت تعمل في مكتبة، فسوف تنحصر موضوعات حديثك بالأساس في التالي:

١- الكتب التي قرأتها وأعجبتك، والسبب في ذلك.

٢- الكتب التي قرأتها ولم تعجبك، والسبب في ذلك.

٣- الكتب التي ترغب في قراءتها لكنك لم تفعل بعد، والسبب في ذلك.

٤- الكتب التي قررت عدم قراءتها، والسبب في ذلك.

٥- العملاء.

٦- آرتشي.

٧- (ميلودي).

وكلها موضوعات شائقة تستحق الاستكشاف، كي أكون منصفة، لكنها ذات نطاق محدود، لذا لم أكن لأعترض على حديث روب عن تقاليد الطهي

الإيطالية وأطباق الأوسوبوكو التي تناولها، على الرغم من أنها بدأت تتداخل جميعًا بعد فترة من الوقت وبدت كوجبة واحدة كبيرة. ثم بدأ بالحديث عن أبحاثه وكتابته.

قال:

- كنت أعمل طوال الليل.

وبدت كلماته تتواثب فوق بعضها بفعل الإثارة. تابع قائلًا:

- كدت أصل إلى جوهر الموضوع، أعرف هذا، وسيشكل هذا تقدمًا كبيرًا.

ذهبنا إلى الفراش، وكان ذلك أمرًا مفروغًا منه. كنت قد حلقت ساقَي، وأزلت الضمادة عن وشمي الجديد. كان لا يزال عليه بعض الدماء المتخثرة، لكن درجة الاحمرار قلَّت، وصار في الإمكان رؤية الكلمات.

عندما مرَّت يد روب على فخذي، توقف وقال:

- ما هذا؟ هل آذيت نفسك؟

قلت:

- لا بأس، إنه وشم جديد.

قال:

- أود القول إن هذا إيذاء للنفس.

أضاء النور. دائمًا ما كنا نمارس الجنس في الظلام، وكان هذا هو ما فعلته أيضًا في مغامرتي التي فقدت فيها عذريتي. فحتى ذلك الحين، لم تكن علاقاتي تدوم طويلًا بما يكفي لأشعر بالراحة عند ممارسة الجنس خلال النهار، وممارسة الجنس في الصباح، أو ممارسة الجنس يوم الأحد حيث تقضي اليوم كله في الفراش، على نحو تعده الأفلام والتلفزيون هو القاعدة. دحرجني نحو المصباح - دفعني في الواقع - وألقى نظرة.

قال:

- لا أستطيع قراءته.

قلت:

- «بعض الأشياء تبدأ قبل غيرها». إنها العبارة الافتتاحية من «الرجال الأحرار الصغار».

قال:

- حسنًا.

قلت:

- أحب هذا، وبداية، يعجبني كون الكتاب مليئًا بالنساء القويات، والشيء العظيم في براتشيت هو أنه...

- أوه، لقد حصلتِ على درجة الدكتوراه في أعمال براتشيت، أليس كذلك؟

بدت نبرة صوت روب ساخرة مائة بالمائة.

كان ذلك كافيًا، فنهضت من الفراش - مد يده نحوي، لكنه كان أبطأ من اللازم - وبدأت أرتدي ملابسي.

- ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

قلت:

- أنت الذي على وشك الحصول على درجة الدكتوراه، فلتخبرني بذلك.

نهض - وكان لا يزال يرتدي سرواله - وغادر الغرفة. ارتديت ملابسي بأسرع ما يمكن، وعدت إلى غرفة المعيشة.

ظننت أنه ربما يضع الغلاية على الموقد، أو شيئًا من هذا القبيل، حيث أود الاعتقاد أنه يمكن للبالغين إجراء محادثات، حتى بخصوص الأشياء التي بدأت بردود أفعال طفولية مبالغ فيها حيال وشم، ولو أنه عرض الشاي أو الاعتذار، كنت سأقبل. لكنه وقف فحسب، متكئًا على إطار الباب، بتلك الابتسامة المتكلفة التي سأعرفها جيدًا لاحقًا. كان فمه يبدو وسيمًا في وضع الاسترخاء، لكنه كان يلويه في أشكال قبيحة. وبدت ابتسامته تلك كأنها تظهر من جانب خزانات الكتب قبل أن يظهر هو، مثل ابتسامة قط شيشاير. وأود الاعتقاد أن هذه كانت المرة الأولى التي واجهت فيها تلك الابتسامة، لأنني أحب الاعتقاد أنني كنت أكثر حكمة من إضاعة وقتي مع شخص يتكلف الابتسام.

سألني:
- هل سترحلين؟
قلت:
- كنت سأسألك عن السبب في كل ذلك، بحق الجحيم، لكن لا مانع لديَّ من الرحيل.
قال روب:
- ظننت فحسب أنه كان في إمكانك أن تخبريني أنك ستحصلين على وشم.
قلت:
- لماذا؟
وضحكت، لأنه حتى حينها لم أكن قد فهمت طبيعته تمامًا بعد.
- هل كان من المفترض أن أطلب إذنك؟
رأيت من ملامحه أن هذا بالضبط ما كان من المفترض أن أفعله، لكنه لم يصرح بذلك بالطبع. قال:
- ظننت فقط أنك ستتحدثين معي بهذا الشأن. إذا كنا... معجبين ببعضنا، أفترض أن هذا ما سنفعله.
قلت:
- لقد تحدثنا بالفعل بشأن الوشوم.
كان ذلك عندما تناولنا العشاء بعد الحديث عن الهندسة المعمارية. بدأ روب بالقول إنه لم يشعر قَطُّ بالحاجة إلى الحصول على وشم، وسألني عن معايير الاختيار لديَّ. قلت: الأشياء التي تعني لي شيئًا. ولم أذكر الباقي، وهو أن تلك كانت وسيلة لتذكير نفسي بأن الأسطر الافتتاحية لا تحدد الصفحات الأخيرة في الحياة الواقعية كما هي الحال في الكتب. شعرت بأن تلك المعلومات زائدة على الحد، ولا تخصه في شيء. ولو أنني فكرت في ذلك من قبل، لما وقفت هناك في شقة في ضواحي يورك وحمالة صدري في جيبي، منشغلة بالتفكير في الساعة التي كنت على وشك قضائها مع السكارى في الحافلة في طريق عودتي إلى المنزل.

- هل تذكرين؟

قلت:

- حسنًا، نعم.

شعرت بالاضطراب فجأة. بدا الأمر أشبه بالاستجواب من قِبَل الشرطة أو المحامين: بدا كل شيء متحضرًا بما فيه الكفاية، وكانوا لطيفين كغيرهم من الناس، لكن جزءًا منك كان يعلم أنك إذا أخطأت، فستُوقِع شخصًا ما في مشكلة حقيقية. وفي هذه الحالة، مع روب، كان الشخص هو أنا. بدت عيناه تلتمعان أكثر من اللازم. التقطت حقيبتي.

قال روب، متظاهرًا بالهدوء:

- قلت إنني لا أحب الوشوم في الواقع.

ابتلعت عبارة «أوه بحق الجحيم، ليس لديَّ وقت لهذا» التي كانت على طرف لساني، وقلت بدلًا من ذلك:

- لهذا ليس لديك أي وشوم، وهذا الخيار متروك لك، كما أن ما أختاره متروك لي.

ارتسم على ملامحه تعبير بمعنى «حسنًا، إذا كان هذا هو ما تعتقدينه»، بينما توجهت نحو الباب. ظننت أنه سيعترض طريقي، لكنه لم يفعل. خرجت إلى الردهة، وأدركت لماذا سمح لي بالرحيل بهذه السهولة. التفتُّ إليه قائلة:

- أين حذائي، يا روب؟

ظهرت تلك الابتسامة المتكلفة مرة أخرى.

- لا أعرف، يا لافداي.

قلت:

- أوه، بحق الجحيم، كم تبلغ من العمر، اثني عشر عامًا؟ أعطني حذائي.

تحوَّلت ملامحه من التظاهر بالتسلية إلى التجهم، وضربني.

حسنًا، صفعني في الواقع، فترنحت جانبًا، لكنني لم أسقط، وعندما وقفت مجددًا، شعرت بلسعة في بشرة وجنتي. دفعتني غريزة المقاومة المتوازنة تمامًا

لديَّ إلى الرغبة في رد الضربة له - تشكَّلت كفي على هيئة قبضة بالفعل - والهرب، لكن المحصلة النهائية كانت الشلل التام. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرفع فيها أحدهم يده في وجهي، وكان الأمر مؤلمًا بعدة طرق.

نظرت إليه، وأظن أنني افترضت أنه سيكون هناك اعتذار مضطرب، ففي عالمي، يبدو العنف شعلة يتبعها الندم على الفور. لكنه قال:

- عودي إلى الفراش، ولن نتحدث عن ذلك مرة أخرى.

قلت:

- عليك اللعنة.

يقول آرتشي إنني أصير أنجلوسكسونية تحت تأثير الضغط.

هز روب كتفيه واستدار وعاد إلى غرفة النوم. أعتقد أنه ظن أنه ليس لديَّ خيار سوى أن أتبعه. ومن الواضح أنه لم يكن يعرفني جيدًا مثلما لم أعرفه أنا أيضًا جيدًا.

غادرت الشقة من دون حذائي. كنت أرتدي جوربَي ولم أضطر إلى الانتظار فترة طويلة حتى تصل الحافلة، لكن حتى السير إلى محطة الحافلات، ثم السير إلى المنزل جرحني في ثلاثة أماكن بقدمَي، وجعلني أشعر بالقذارة. عقب وصولي - كان ذلك بعد الساعة الواحدة في صباح اليوم التالي - استحممت ثم نقعت قدمَي في الملح في وعاء الغسيل، لأني ظللت أشعر بأنها ليست نظيفة، ومسحت وجهي بمنشفة باردة.

لم أظهر في اليوم التالي، وتوقعت أن يأتي روب، لكنني لن أسمح له بالدخول. لم أعطِه عنواني، لكنني أخبرته أنني أعيش في شقة فوق فرع جديد لمتجر «تيسكو»، وكان هناك مكان واحد على وجه التحديد في يورك ينطبق عليه هذا الوصف، بحيث يمكنه العثور عليَّ بسهولة. وقد قال إنه يعرف المكان الذي أقصده.

شعرت بالغضب الشديد: لقد ضربني، ولم يكترث لأنه ضربني، ولم تكن هناك ولو كدمة ناتجة عن ذلك، حتى إنني إذا قررت الذهاب إلى الشرطة، فلن يكون لديَّ أي دليل.

فكرت في الشرطة بالفعل. فكرت في ذلك كثيرًا. لم أتوهم أن روب سيُتهم

بأي شيء - كان هذا هو السيناريو الكلاسيكي نفسه: كلمتي ضد كلمتك، وجميعنا نعرف كيف سينتهي ذلك - لكنني لم أرِده أيضًا أن يعتقد أنه لا بأس في الأمر. ثم فكرت في كونه مريضًا، وشعرت بالقلق بسبب الإحساس بالمسؤولية. قال إن الأمور تصبح غريبة إذا لم يتناول أدويته، وافترضت أنه يعني ازدواج الرؤية، أو شيئًا من هذا القبيل، لكن ربما كان يعني تلك الغرابة التي تصرف بها الليلة الماضية. وهنا بدت الأمور متشابكة، لأنه من المؤكد أن الأمر ليس بهذه البساطة: هل تناوُل قرص من الدواء يمنعك من ضرب الناس؟ شعرت برأسي يؤلمني على نحو لا علاقة له بالصفعة.

فكرت في إخبار آرتشي، لكن ذلك سيثير نوعًا آخر من الدراما، ولم أكن على استعداد حقًّا للتعامل مع الأمر، على الرغم من أنني كنت أود أن أرى وجه روب عندما يفتح بابه الأمامي ويلتقي بآرتشي، والحشد الذي جمعه من لاعبي البريدج ومحبي الكتب وأصحاب المطاعم في يورك.

في يوم الأحد ذاك، كان أكثر ما فكرت فيه هو والدتي، وكم ألحق بها والدي الأذى. ولا أتحدث حتى عن مدى الألم الذي تستشعره عندما تتعرض للخيانة من قِبَل الشخص الذي تحبه، بل أتحدث عن الألم الجسدي الخالص والبسيط، الناتج عن التعرض للضرب، والتعرض للكدمات، وكسر الأعضاء التي من المفترض أن تبقيك قويًّا. بصراحة، كانت الصفعة التي وجَّهها إليَّ روب أشبه بصفعة فتاة صغيرة بغيضة مستبدة. فهو يزن ستين كيلوجرامًا تقريبًا، ويتسم بالرخاوة، وأي قوة لديه تأتي من رفع الكتب الثقيلة من فوق الأرفف العالية. ومع ذلك كانت تلك الصفعة مؤلمة. كانت مؤلمة بالفعل. أعتقد أن ذلك يرجع جزئيًّا إلى الصدمة الناتجة عن الضربة، ثم توقُّف كل أطرافي العصبية وهي تعوي في الوقت نفسه، يلي ذلك الشعور بالإذلال. لا أعرف لماذا شعرت بالخزي إلى هذا الحد. شعرت بالذنب كما لو كنت المعتدي بالضرب.

كان والدي رجلًا ضخم الجثة، مفتول العضلات. قبض على ذراعي ذات مرة عندما ظن أنني سأركض وسط الطريق. نعم، كانت خطوة مرتبكة وغير مدروسة

من جانبه، لكنني ما زلت لا أعتقد أنه استخدم قوة أكثر مما ينبغي. كان واقفًا بجواري، وكل ما فعله في الحقيقة هو أنه مدَّ يده وأمسك بي. أصابني ذلك بكدمة زرقاء، وضحكت والدتي ومزحت بشأن إخفاء الأمر عن الخدمات الاجتماعية. ومن الواضح أن ذلك كان قبل وقت طويل من وصول الخدمات الاجتماعية.

لذلك عندما فعل والدي الأشياء التي فعلها، بقوة وغضب، لا بد أن ذلك آلمها حقًّا. بالطبع كنت أعرف ذلك في ذهني، والآن اختبرت ذلك جسديًّا، وشعرت بنوع من الشفقة حيال والدتي بأثر رجعي. لم أشعر بالصفح، بل بالشفقة.

جلست في شقتي يوم الأحد ذاك، وقد أمسكت بكيس من البازلاء المجمدة وضممته إلى وجهي، ووازنت فوق ركبتَي رواية فيكرام سيث، «صبي مناسب». وعلى الرغم من أنه كان من المفترض أن أقرأ، فإنني ظللت أفكر في والدتي وهي تتألم، ووالدي الذي كان يؤذيها، وكيف لم يكن شيء من ذلك بسيطًا وواضحًا كما أردت. وقررت أن العلاقات لن تكون مناسبة لي أبدًا في الواقع. لن أقضي الليلة في شقة أي شخص مرة أخرى في أي وقت قريب، بصرف النظر عن مدى إعجاب هذا الشخص بأساليبي البحثية.

جاء روب إلى المكتبة يوم الثلاثاء. وكان وجهي قد تعافى، وبدأت الخدوش في قدمَي تتماثل للشفاء. لم يلاحظ آرتشي شيئًا، مما فاجأني، لأنني شعرت بالتوتر أكثر مما ظننت، ولم أستطع تصديق أن ذلك لم يظهر عليَّ.

أحضر لي روب الزهور، واستطعت شم رائحتها قبل أن أتمكن من رؤيته، وقد تألفت الباقة في الأساس من الزنابق. بدت رائحتها أقوى مما يجب، ودفعتني إلى الرغبة في البكاء. لكن مع ذلك لن أبكي. لن أفعل أي شيء من شأنه أن يجعله يظن أنني أهتم، لأنني لا أكترث في الواقع، لكنني لا أعرف كيف يعتقد الحمقى من أمثاله أنه لا بأس فيما فعله.

قال:

- لافداي.

على الأقل لم يتكلف الابتسام، ومدَّ يده بالزهور.

قلت:

- لا أريدها، شكرًا.

حاولت أن أقول ذلك من دون حدة، كتصريح بالحقيقة. فبصرف النظر عن الرسالة المقصودة من الزهور، لم أرغب في أن تبدو رائحة شقتي كأنها من رواية لأنجيلا كارتر[١] خلال الأسابيع الثلاثة المقبلة.

قال:

- لا تتصرفي على هذا النحو، فأنا أحاول تقديم الاعتذار.

توقعت أنه قد يأتي إلى المكتبة، وفكرت كثيرًا فيما سأقوله. وتراوحت ردود الفعل المحتمَلة ما بين الانتقادات الغاضبة إلى المحادثات اللطيفة حول ما هو مقبول وما هو غير مقبول، والاستفسارات اللبقة حول ما إذا كان يرى طبيبه ويتناول أدويته كما يجب.

ومع ذلك، عندما نظرت إليه، أدركت أنني لم أقرر أي طريق سأسلكه. اتضح أنه الطريق الذي يتطلب أقل قدر من الكلمات. ليس ثمة مفاجآت في هذا، يا لافداي.

دفع روب الزهور نحوي، وبدا نادمًا، لكن الخلاصة هي أنه أخطأ اختيار الفتاة التي ضربها.

تراجعت خطوة إلى الوراء، وقلت:

- قبلت اعتذارك، لكنني لا أعتقد أن ما فعلته كان صائبًا، ولا أريد الزهور، شكرًا لك.

نظر إلى الزهور، وإليَّ، وقال:

- هذا ليس لطفًا منك، يا لافداي.

قلت:

- دعنا لا نخوض فيما هو غير لطيف.

---

(١) الإشارة هنا إلى الأجواء المميزة في أعمال الكاتبة الإنجليزية أنجيلا كارتر، المعروفة بوصفها الغني والمكثف والمليء بالرموز. (المترجمة).

وأخذت نفسًا عميقًا، وتراجعت خطوة أخرى.

قال:

- فلتتناولي معي القهوة على الأقل. يمكنني الانتظار في المقهى المجاور حتى تنتهي من عملك.

قلت:

- لا، حقًّا، ليس لديَّ ما أقوله.

تنهد، وكانت التنهيدة سيئة تمامًا كالابتسامة المتكلفة. وقفت هناك أتساءل لماذا كلفت نفسي العناء من الأساس.

قال:

- هل ستتخلين عن كل شيء حقًّا بسبب خطأ واحد صغير؟

وقفت ونظرت إليه مع زهوره، وما اعتقدت أنه يعدُّه تعبيرًا جذابًا على الأرجح. ظننت أنه ربما يشعر بالخجل من تصرفاته، وإذا تناولت القهوة معه فمن المحتمل أن يقول ذلك. لكن لم يكن هناك «شيء» لأتخلى عنه، حيث كنا نتواعد بالكاد، أما بالنسبة إلى عدِّه «خطأ صغيرًا»، حسنًا أيتها الرفيقات، جعلني ذلك أشعر بالغضب الشديد.

قلت:

- نعم.

ووجدت جزءًا من أحد خطاباتي المعدَّة سابقًا ملائمًا للموقف، فتابعت:

- سأتخلى عن كل شيء، لأنه كما ذكرتُ، لم يكن ما فعلته صائبًا، ولم يكن «خطأ صغيرًا». وإذا كنت تعتقد ذلك، فلديك مشكلة.

حاولت أن أجعل صوتي لطيفًا، وقلت:

- ربما يجب عليك التحدث مع شخص ما حول ما حدث.

لم يكن يستمع إليَّ.

- ظننتك أفضل من هذا، يا لافداي. أخبرتك أنني مريض، وظننتك ستكونين أكثر تفهمًا.

قلت وأنا أحاول أن أكون منصفة حقًّا:

- من باب الإنصاف، حتى لو كنت مصابًا بالأنفلونزا، أو كسر في الورك، وصفعتني، لأجرينا هذه المحادثة أيضًا.

تبادلنا النظر إلى بعضنا مباشرة لحظة، ثم استدرت وولجت من الباب الذي كُتب عليه «خاص»، ولأول مرة منذ وقت طويل، تساءلت أين يمكن أن تكون والدتي.

عندما غادرت المكتبة ذلك المساء، كانت الزهور على الرصيف بجوار الباب. كنت سأضعها في سلة المهملات بجوار المقهى، لكنها كانت ممتلئة، لذا وضعتها بجانب السلة. فكرت أن أطلب منه إعادة حذائي، لكنني قررت ألا أفعل، حيث كان الحذاء في حالة يُرثى لها على أي حال، وبعض الأشياء لا تستحق تجشم العناء حقًّا.

اختفى روب فترة من الوقت: كان قد أخبرني أنه سيقضي بعض الوقت في إيطاليا، وافترضت أن هذا هو المكان الذي ذهب إليه. وعندما عاد، كان يأتي أحيانًا ويدفع الزهور عبر صندوق البريد، أو يفرغ الهواء من إطار دراجتي، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك سوى مرة واحدة. وفي السنوات الثلاث التي تلت الصفعة، كنت أقضي أحيانًا أسابيع وأشهرًا من دون رؤيته، وبعد ذلك كان يواصل الظهور فجأة فترة من الوقت.

ربما جعله وجود ناثان أسوأ حالًا.

أكره الاعتراف بذلك، لكني كنت خائفة منه.

الجريمة

١٩٩٩

لا يوجد كتاب بلا قيمة

أعتقد أن موظفي الخدمات الاجتماعية خططوا لتوقيت الزيارة بعناية شديدة، على الرغم من أنني لم أفكر في الأمر حينها. كان ذلك في إجازة منتصف الفصل الدراسي في أكتوبر، وكنت سأتم العاشرة من عمري بانقضاء العام. لم تعجبني معلمتي الجديدة، وقضيت كثيرًا من الوقت في المكتبة. ولم نعد نذهب إلى متجر الكتب.

كان والدي في مكتب التوظيف، ووالدتي في المطبخ. لم تعُد تخبز كثيرًا في تلك الأيام، حيث كان سعر الزبدة على ما يبدو «إجراميًّا»، وكانت تقول: «لا أومن بالسمن الصناعي»، كما لو أنها تتحدث عن التحليق خلال ممارسة اليوجا، أو عن الأشباح. لكن أيًّا كان السبب، كانت تصنع كعكة. ربما كان ذلك بسبب العطلة، أو ربما لإسعاد والدي عند عودته من مكتب التوظيف. كنت سأذهب إلى منزل ماتيلدا لاحقًا لقضاء الليلة، وشعرت بالحماس بدرجة أكبر من أن أتمكن من القيام بأي شيء. على أي حال، كان هناك طَرْق على الباب الأمامي، فذهبت لفتحه. وجدت امرأتين واقفتين هناك، إحداهما طويلة والأخرى قصيرة، وكلٌّ منهما ترتدي سروالًا وسترة أنيقة. بدت القصيرة متوردة نوعًا ما، كما لو أنها صعدت تلًّا.

قالت المرأة الطويلة:

- مرحبًا، هل والدتك موجودة؟

وبالطبع، نظرًا إلى أن الباب الأمامي كان على بُعْد ست أقدام تقريبًا من المطبخ، ظهر وجه والدتي بالفعل في مدخل المطبخ، وهي تنظر لترى من هناك. ومنذ أن أُصيبت بكدمة أخرى في عينها قبل بضعة أسابيع، صارت منعزلة بدرجة أكبر بعض الشيء، وأرسلتني إلى المتجر لشراء الطلبات، وسمحت لوالدات صديقاتي باصطحابي إذا كنت سأذهب إلى منازلهن، وكانت تطلب من والدي إعادتي إلى المنزل.

قالت:

- مرحبًا.

جاءت لتقف بجانبي، ووضعت يدها على كتفي للحظة، فتركت أثرًا كَيَد شبح بسبب الدقيق.

ذكرت السيدتان اسميهما، وتأكدتا من اسم والدتي، ثم سألتا إن كان في إمكانهما الدخول. سمعتهما تقولان إنهما من الخدمات الاجتماعية. لم يبدُ أنهما ستكونان لطيفتين، على الرغم من أنهما ظلتا تنظران نحوي وتبتسمان، كما لو أنه أول يوم دراسي لهما، وترغبان في صداقتي. بدا الأمر مخيفًا.

سعدت بإرسالي إلى الطابق العلوي، وحاولت ألا أستمع إليهن. كنت قد اكتشفت سلسلة كتب «مدرسة سويت فالي الثانوية» في مكتبة المدرسة، وانشغلت بالقراءة أكثر من أي وقت مضى. لكني سمعت والدتي ترفع صوتها بجملة معقدة وغير واضحة تحتوي على اسمي وعبارة «آمنة تمامًا» و«ليس لديكما الحق». وبعد فترة وجيزة، أُغلق الباب الأمامي. توجهت إلى النافذة، وعندما سارت المرأتان إلى نهاية الطريق، استدارتا ونظرتا إلى المنزل، حيث شاهدتاني ولوَّحتا بيديهما.

نادتني والدتي للنزول إلى الطابق السفلي، وبدت كما لو كانت تبكي. أخبرتني أنها لا تريدنا أن نبلغ والدي بقدوم تلكما المرأتين للزيارة، وقالت:

- يشبه الأمر قدوم السياسيين إلى حدٍّ ما، وأنت تعرفين كم يثيرون غضبه.

كنت أعرف بالفعل. كان والدي، لفترة وجيزة، نجمًا بارزًا في الأخبار التلفزيونية

المحلية عندما طرق مرشح المحافظين بابنا في الفترة السابقة للانتخابات الفرعية، برفقة طاقم تصوير. سُئل عمَّا إذا كان سيصوت للمحافظين، فقال:

- بكل تأكيد.

وسارع المرشح للابتسام، قبل أن يقول والدي:

- عندما يتجمد الجحيم. اخرج من حديقتي.

وقبل أن يتفوه بكلمة «حديقة»، كانت هناك لحظة تحرك خلالها فمه، لكن كل ما أمكن سماعه هو صوت صفارة. بعد ذلك، كانت هناك لقطة مقربة ليده المكورة على شكل قبضة بجانبه.

قلت:

- حسنًا.

ولم أشِر إلى شعار «من الخطأ الاحتفاظ بأسرار» الذي كانت والدتي تستخدمه، حيث تعلمت أن هناك قواعد جديدة في هذا العالم الجديد، وقد سايرتُ فحسب كل ما يجعل حياة الجميع أسهل.

قالت:

- كما أن هناك شيئًا آخر: صديقاتك، يا إل جيه، وأمهاتهن، فقط... كوني حذرة بخصوص ما تقولينه لهن.

تحدثت والدتي ببطء، كما لو أن كلماتها تتحسس طريقها فوق الأحجار. تابعت قائلة:

- تختلف جميع العائلات بعضها عن بعض، وأحيانًا يعتقد الأشخاص الذين تختلف أسرهم عن أسرتك أنهم يعرفون أشياء عنك، لكنهم لا يعرفون ذلك.

نظرت إليَّ وداعبت شعري، وواصلت:

- يأخذ الناس انطباعًا خاطئًا، لأننا نتجادل أحيانًا أنا ووالدك، وقد يعتقد بعض الناس حينها أننا لسنا سعيدين، أو... أو أننا نؤذي بعضنا.

أومأت برأسي، لأنها وصفت للتو ما ظننته بالتحديد.

- لذا علينا التزام الحذر كي لا يأخذ أحد انطباعًا خاطئًا عن أسرتنا. إذا سألك

أي من معلميك أو الأمهات الأخريات عمَّا إذا كان كل شيء على ما يرام في المنزل، أريدك أن تخبريهم أن كل شيء على ما يرام، لكن والدك لا يزال يعمل بجد للعثور على وظيفة. اتفقنا؟

أومأت برأسي، على الرغم من أنني أردت أن أهزه بالنفي. تساءلت عمَّا قالته لها المرأتان اللتان ترتديان السترات، لجعلها تتحدث بهذه الطريقة. كنت أعرف أنني طفلة، وهذا يعني أنني لا أفهم كل شيء دائمًا، حتى عندما أظن أنني أفهم. لكنني كنت أعرف أيضًا، في أعماقي، أن ما تقوله والدتي كان خطأ. وأعتقد أنها هي أيضًا كانت تعرف ذلك، لأن عينيها بدتا حزينتين، ولم تجرؤ على النظر إلى وجهي.

- هل تفهمين؟

وضعت يدها على رأسي ونظرت إلى شعري وهي تداعبه.

قلت:

- نعم، لكن...

قالت:

- هذا يكفي، يا إل جيه.

لم تكن نبرتها غاضبة، لكنها لم تكن لطيفة أيضًا، وعلى الرغم من أنني أمسكت بيدها، فإنها ابتعدت.

فعلت ما طلبته مني، لكنني انفجرت في البكاء في منزل ماتيلدا لاحقًا. جاءت والدتها إلى غرفة النوم لترى سبب الجلبة، واحتضنتني وأخبرتني أن كل شيء سيصبح على ما يرام. بدت كنزتها خشنة على وجهي، وفكرت في نعومة والدتي، فبكيت بشدة أكبر.

تحوَّلت حياتنا إلى هدوء مميت فترة من الوقت. ولم يتبادل والداي الحديث كثيرًا، لكنهما توقفا عن الصياح أيضًا. قضيت كثيرًا من الوقت في غرفتي، أرتب أصدافي، وأعيد قراءة رواية «أطفال السكة الحديد».

ثم تدرب والدي للعمل كسائق رافعة شوكية. تذمر من اضطراره إلى حضور

دورة تدريبية، لكن عقب عودته إلى المنزل حكى لنا كثيرًا عن الأمر. ثم حصل على عمل لفترة تجريبية لمدة أسبوعين في أحد المستودعات، وقال إنه قد يعود إلى التدخين مجددًا، وعندما حدقت إليه والدتي بغضب ضحك، وأطلق عليها لقب «داو»، وقال إن ذلك هو ما يطلقونه على «العجائز الغاضبات» في كورنوال. فقالت والدتي إنها «ليست عجوزًا»، وابتسما لبعضهما كما اعتادا من قبل.

حصل على وظيفة بدوام كامل في المستودع، ودار حديث عن هدايا عيد الميلاد، وكيف أن ذلك العجوز لا يزال يتمتع ببعض الحيوية. تمنيت أن هذا قد يعني أننا سنحصل على جرو. سأطلق عليه اسم بوبي لو أننا فعلنا. عادت والدتي تخبز مرة أخرى، وكانا يضحكان كثيرًا في المساء، عندما أذهب إلى الفراش. شعرت كما لو أن المنزل تنفس الصعداء.

تناولنا السمك والبطاطس على الشاطئ، على الرغم من أننا كنا في شهر نوفمبر وكانت الرياح قارسة البرودة. لم يكن هناك سوانا، وشخصان اصطحبا الكلاب للمشي، وبدت السماء بلون قميص المدرسة الذي غُسل مع ثوب والدتي الأسود. عندما عدنا إلى المنزل، أشعلنا المدفأة الكهربائية، ولعبنا «السكرابل». فزت في اللعبة، ولا أظن أنهما تركاني أفوز.

أعتقد أن يوم السبت ذاك كان آخر يوم نعمنا فيه بالسعادة.

* * *

في مساء اليوم التالي، كنت سأذهب إلى منزل إيما لتناول العشاء ومشاهدة فيديو «حكاية لعبة». مرَّت فترة ما بعد الظهيرة ببطء، وكان والدي يشاهد فيلمًا حربيًا، وتظاهرت بمشاهدته معه، لمجرد أنه كان من اللطيف الجلوس معه، وأحببت شرحه لأمور متعلقة بالتاريخ. خبزنا أنا ووالدتي الكعك، وذهبت هي إلى المتجر وقالت إنها لن تتأخر.

لم يكن فيلمًا مثيرًا للاهتمام، أو أن والدي لم يكن يتحدث كثيرًا كالمعتاد، أو ربما بعد أشهر من بقائه في المنزل، لم يعد وجوده هناك عصر كل أحد أمرًا مثيرًا. توجهت إلى رف الكتب. لم نستأنف رحلاتنا إلى متجر الكتب مجددًا، ولم أذهب

إلى المكتبة في ذلك الأسبوع، لذا فتشت في كومة كتبي التي بدأت تبدو طفولية للغاية بالنسبة إليَّ، أو التي أعدت قراءتها كثيرًا إلى درجة لم أعد مهتمة بقراءتها ثانية. فقدت سلسلة «الغامضون السبعة» سحرها، وكذلك «كابتن أندربانتس».

جاءت الإعلانات، وتحول انتباه والدي من الشاشة نحوي، وقال:

- ربما عليك أن تجربي أحد كتب والدتك.

مدَّ يده إلى الرف العلوي وسحب «جين إير»، الذي كان أقرب كتاب يسهل عليه الوصول إليه، على الرغم من أنني أعتقد أنه كان يمكن أن يكون أي كتاب منهم. قال وهو يقلب الصفحات:

- هناك الكثير من الكلمات هنا، يا صغيرتي. من الأفضل أن تقرئيها أنت، لا أنا.

ثم توقف عن الحديث وعاد يقلب الصفحات، وأخرج من بينها ورقة نقدية من فئة عشرة جنيهات. قلَّب الصفحات مجددًا، وعثر على ورقة مالية أخرى. نظر إلى النقود التي في يده، وجسده كله ساكن تمامًا. ثم رفع إليَّ نظره، وابتسم ابتسامة مصطنعة، وقال:

- حسنًا، حسنًا، يوجد كثير من المال هنا.

وضع المال في يدي، وألقى الكتاب عند قدميه، ثم تناول كتابًا آخر من الرف وقلَّب صفحاته. وجد ورقة نقدية من فئة عشرين جنيهًا، وورقة من فئة خمسة جنيهات، وأخرى من فئة عشرة جنيهات. انضمت «مدام بوفاري» إلى «جين إير» على الأرض. وهكذا واصلنا البحث في الكتب، وتجمع المزيد والمزيد من الأوراق المالية بين يدَي. لم يسبق أن رأيت مثل هذا القدر من المال من قبل.

عندما صار الرف خاليًا، نظر إليَّ والدي وقال:

- حسنًا، هذا قدر كبير من «الأرجان».

أومأت برأسي. عادة ما كان يعجبني الأمر عندما يستخدم كلمات من كورنوال، لكن استخدامه هذه المرة لكلمة «أرجان» التي تعني فضة في لهجة كورنوال، دفعني إلى الشعور بالبرودة. أحصيت المال، وكنت أحمل ما يقرب من ثلاثمائة جنيه، وهو أكبر من أي مبلغ رأيته من قبل، وبدا مبلغًا كبيرًا جدًّا بحيث لا يمكن

الاحتفاظ به على رف صغير في غرفة معيشتنا الضيقة. دار كثير من الحديث عن المال حينما كان والدي عاطلًا عن العمل، وتصيدنا العملات المعدنية من الحقائب وجيوب المعاطف في أمسيات الأحد حينما كان والداي يعدان الخطط، ويكتبان قوائم بالمبالغ على ظهر الأظرف. كان من المفترض أن تكون هذه الكومة الكبيرة من العملات النقدية - مئات الجنيهات! - أمرًا رائعًا، لكنني أدركت أنها ليست كذلك.

أخذ والدي ينقل نظره ما بين الكتب إلى المال، وإليَّ، وسألني:

- هل كنت تعرفين بوجود هذه الأموال هنا؟

قلت:

- لا.

وتساءلت لاحقًا ما إذا كان يجب عليَّ أن أقول نعم. لفترة طويلة، ظللت أعتقد أن هذه إحدى النقاط التي كان يمكن أن أساهم فيها بالتأثير في النتيجة. لو قلت إنني أعرف، لصارت تلك الأموال المخبأة مجرد لعبة، سر لا ضرر منه، لا أكثر ولا أقل. لكنني قلت لا، لأنها كانت الحقيقة، وقد تعلمت عادة الصدق وقيمته طوال حياتي. فكرت كثيرًا في المرأتين اللتين ترتديان السترات، وفي كل مرة انشغلت فيها بالتفكير فيهما، شعرت بأنني على يقين من وقوع أشياء سيئة، كما لو كنت أقرأ قصة أشباح. حتى اللحظة التي جاءت فيها تلك الطَّرقة على الباب، ظننت أن الحقيقة ثابتة وبسيطة، كأنها جدار ميناء، بدلًا من كونها مدًّا وجزرًا.

سمعنا الباب يُفتح ويُغلق. صاحت والدتي:

- القشدة! اضطررت إلى البحث في مكانين، لكنني اعتقدت أننا نستحق المتعة.

صدرت الأصوات اليومية المألوفة وهي تضع حقيبة التسوق على طاولة المطبخ، وتعلِّق معطفها خلف الباب. أطلت برأسها من الباب وقالت:

- كل شيء هادئ للغاية هنا.

وعندما رأتنا نحن الاثنين، والكتب، والمال لا يزال في يدي، قالت:

- أوه.

واتسعت عيناها ونظرها مثبت على المال.

تأملنا وجهها، أنا ووالدي، ولم يكن فمها مغلقًا تمامًا.

قال والدي:

- يوجد كثير من المال المخبأ هنا. فوجئنا به، ولم نعرف ماذا نقول، أليس كذلك يا لافداي؟

عجزت عن الكلام. كانا يناديانني باسمي كاملًا في المناسبات فقط، مثل لقاءات المعلمين مع أولياء الأمور، أو عند زيارة الطبيب. اعتاد والداي مناداتي باسم إل جيه، اختصارًا لاسم لافداي جينا، وكان والدي ينادي والدتي باسم إس جيه، اختصارًا لاسم سارة جين، إلا إذا كان غاضبًا منها. لذا حتى من دون ذلك الشعور بأنني أقرأ قصة أشباح، كنت سأعرف أن الأمر خطير.

هززت رأسي ونظرت إلى والدتي، وتمنيت أن تقدم تفسيرًا بسيطًا - لأنه من المؤكد أن هناك تفسيرًا بسيطًا - من شأنه أن يصحح الوضع.

لكنها جلست مقابلنا على الأريكة، ونظرت إلى يديها، وأخذت نفسًا، وقالت:

- ليس الآن يا بات. دعنا نتحدث عن ذلك لاحقًا.

قال والدي:

- في الواقع، أعتقد أننا سنتحدث الآن.

كان صوته هادئًا، وبدا ذلك مخيفًا أكثر مما لو صرخ.

قالت والدتي:

- انتظر حتى تذهب.

كانت تهمس تقريبًا، وهي لا تزال تنظر إلى يديها.

- لا تستخدميها كذريعة.

أخذ والدي ينقر على ساقه، في طرقعة من الأصابع على القماش الجينز، وشعرت بالخوف بقدر أكبر مما شعرت به حينما كانا يتجادلان.

- إنها تريد أن تعرف أيضًا. تريد معرفة لماذا اضطرت إلى تناول اليخنة المطهوة باللحم الرديء، وقد ضاقت عليها ملابسها، في حين أن لديك ما يكفي من المال لتسهيل الأمور هنا؟

قالت والدتي:

- من منا الذي يستغلها الآن؟

مدت إليَّ يدها وحاولت أن أتحرك، لكن والدي طوَّق خصري بذراعه الأخرى، مما قيدني على نحو قوي لم أستطع التحرر منه بسهولة. لم أستطع النهوض، ولا أعتقد أنه أدرك أنه كان يمسك بي.

قلت:

- أريد الصعود إلى الطابق العلوي.

قالت والدتي:

- لقد سمعتها.

تزايد الضغط على خصري عندما شدَّد والدي قبضته، ثم أرخاها. توجهت إلى الدرج، على الرغم من أنني لم أعد متأكدة فجأة ما إذا كان عليَّ مغادرة الغرفة. فكرت كيف كنت أساعد والدي في ربط حذاء عمله، وإصبعي على العقدة، وكيف سيفسد كل شيء لو أنني رفعت إصبعي قبل الأوان.

لم يكن نظرهما موجهًا إليَّ، وصعدت الدرج ببطء.

- لا تحاولي أن تجعلي مني الشرير هنا.

بعد أن غبت عن الأنظار، أخذ صوت والدي يزداد ارتفاعًا. في العادة كنت سأفعل شيئًا للتأكد من أنني لا أستطيع سماعهما. أعطاني والدي مشغل أسطوانات السي دي المحمول الخاص به عندما توقف عن العمل بعيدًا عن المنزل، لأنه قال إنه لم يعد في حاجة إليه، واشترى لي الأسطوانة رقم ٤٣ من سلسلة الأسطوانات الموسيقية «هذا هو ما أطلق عليه موسيقى»، عندما حصل على وظيفته لقيادة الرافعة الشوكية. كان في إمكاني أن أضع سماعات الرأس.

سمحت لنفسي بالتنصت عليهما. أعتقد أنني أردت أن أعرف أيضًا مصدر

المال، والغرض منه. لا أعرف كم يتكلف حفل لعيد الميلاد، لكنني كنت متأكدة أنه أقل من ثلاثمائة جنيه.

صعدت تنهيدة والدتي الدرج مباشرة، ودخلت عبر الباب حيث تركته مفتوحًا.

- كنت أعمل، يا بات، قليلًا فحسب، بين حين وحين، منذ بدء الفصل الدراسي.

- ماذا كنت تفعلين؟

قالت:

- الكي، في الغالب. أماندا كارتر، من مجلس الآباء والمعلمين، لديها مشروع تجاري. شاهدتني أكوي الملابس الخاصة بمسرحية «باجزي مالون»، وطلبت مني إبلاغها إذا أردت الحصول على وظيفة. اعتقدت أنه ربما يمكننا قضاء عيد ميلاد سعيد، هذا كل ما في الأمر.

- لماذا لم تخبريني؟

- أردت أن يكون الأمر مفاجأة.

في الطابق العلوي، تنفست الصعداء. بالطبع، كان هذا هو التفسير المنطقي. تعلمت خلال الأشهر القليلة الماضية أن عيد الميلاد كان أحد الأشياء التي تكلِّف المال، إلى جانب الرحلات المدرسية، وتذاكر السينما، والزبدة، والهامبرجر، والذهاب إلى مصفف الشعر، والأحذية الجديدة. حصلت على حذاء جديد لبدء العام الدراسي كالمعتاد، وعندما أريته لوالدي، قال إن الورنيش والأربطة هي ما تبقي حذاءه متماسكًا.

ساد الهدوء في الطابق السفلي، وتساءلت ما إذا كانا يتبادلان القبلات.

ثم قال والدي بصوت منخفض:

- لم أرَكِ تكوين الملابس.

- كنت أفعل ذلك في منزلها.

- متى؟

كانت فترات الصمت بين ما يقولانه طويلة للغاية، وبدا الأمر كما لو أنهما يلعبان الشطرنج، ويفكران في كل حركة قبل القيام بها.

- في صباح بعض الأيام.
- صباح أي أيام؟
- صباح بعض الأيام فحسب، ليس هناك شيء ثابت...
قاطعها والدي:
- هل تعتقدين أنني وُلدت بالأمس؟ ربما ظننتِ أنني لا أستطيع العثور على العمل، لكنني لست غبيًّا.
علا صوته، فوضعت يدَي على سماعات الرأس، لكنني لم أستطع الامتناع عن سماع صوت والدَي.
أتى الجزء التالي من الحديث مندفعًا بسرعة:
- صباح الأيام التي قلت فيها إنني في اجتماعات مجلس الآباء والمعلمين، أو عندما كنت أعرف أنك لن تكون موجودًا في المنزل. أذهب إلى أماندا، حيث نقف ونكوي الملابس بضع ساعات، وتعطيني أجري، ثم أعود إلى المنزل. لم أخبرك بالأمر، حسنًا؟ لقد كذبت بشأن مكان وجودي وأخفيت المال. لكنني لن أسمح لك باستجوابي يا بات. أرفض تحمُّل اللوم نظير محاولتي أن...
كان هناك صوت غريب، واستغرق الأمر دقيقة أو دقيقتين لأدرك أنه صوت والدي وهو يبكي، ثم قال:
- محاولة ماذا؟
- لا يهم.
- بل أعتقد أنه يهم. ما الغرض من هذا المال؟
- هل أنتَ في حاجة إلى السؤال؟
تحولت لعبة الشطرنج إلى لعبة الداما، بسرعة، كما هي الحال في نهاية المباراة.
تك، تك، تك، ثم تخسر اللعبة.
- هل هذا رصيدك الاحتياطي للهروب؟
- سمِّه كما تشاء.
- إذن كل ما تحدثنا عنه...

امتلأ صوت والدتي بالغضب فجأة.

- إياك أن تفكر حتى في التعالي الأخلاقي، يا بات. إن كي الملابس مع الإصابة بكسر في الضلوع ليس شيئًا سيقدِم عليه أي شخص إلا إذا شعر بأنه مضطر إلى ذلك. وإذا ازدادت الأمور سوءًا، حسنًا، كنت في حاجة إلى التأكد من أنني أستطيع إخراجنا من هنا.

- إخراجكما من هنا؟

- إذا ظننت أن لافداي في خطر...

أتت كلمات والدتي في غاية الهدوء، وأطلق والدي أنينًا مرَّ عبري مثل رياح الشتاء على رصيف الميناء.

- لم أكن لأوذيها أبدًا.

- لا أعتقد أنك ظننت يومًا أنك ستؤذيني.

خفتت أصواتهما، وأدركت فجأة أنني صرت واقفة عند الباب أتنصت بدلًا من الجلوس على الفراش، لكنني لم أتذكر أنني تحركت.

- أنت تعلمين أنني لم أقصد...

توقف في منتصف الجملة، وتخيلت والدتي ترفع يدها، مثل شرطي المرور في كتاب مصور. كانت تفعل ذلك معي أحيانًا وهي تتحدث إلى شخص ما، عندما أحاول مقاطعتها.

قالت بهدوء:

- لا أريد أن أتحدث عن ذلك.

كدت أسترخي، لكن لم يمضِ كثير من الوقت قبل أن يعلو صوت والدي:

- حسنًا، الأمر كله يدور حول ما تريدينه أنت، أليس كذلك يا سارة جين؟ هذا هو كل ما يهم.

نظرت خارج باب غرفتي في اتجاه الدرج.

قالت:

- أردت أن أنعم بالأمان، ولافداي أيضًا. هذا هو كل ما في الأمر.

جلست والدتي على الأرض، ويداها ممدودتان أمامها، وكفَّاها إلى الأعلى، ورأسها محني، وسمعتها تبكي. لا أعتقد أن كلمة «اليأس» كانت جزءًا من قاموسي حينها، لكن عندما أصادفها الآن، أفكر في ذلك الصوت، وأرى والدتي جالسة على الأرض تبكي، ووالدي يرتدي معطفه. وعندما عاد قادمًا نحوها ليلتقط النقود من على الأريكة، تراجعت إلى الوراء مبتعدة عن طريقه بحركة سريعة.

لم يصِح، لكنني أدركت أنه يريد أن يفعل، وهو يقول:

- بحق السماء! لن أوذيك.

وقف لحظة من دون حراك، ورأيت كتفيه ترتفعان وتنخفضان، مما جعل سترته الجلدية السوداء تتحرك، وتعكس الضوء. عندما أتى صوته مجددًا، بدا أكثر انخفاضًا، لكنه لم يكن هادئًا، بل بدا مثل كلب بولدوج يجذب الرسن مقاوِمًا إياه، وقال:

- سأشتري سجائر «مارلبورو» وأشرب البيرة.

صفق الباب خلفه، ونزلتُ إلى الطابق السفلي.

في العادة، كانت والدتي ستختلق عذرًا، وتقول إنها متعبة أو إنه لم يقصد ذلك، لكنها نظرت إليَّ فحسب، وقالت:

- أوه، يا لافداي، أنا آسفة جدًّا.

قلت:

- علينا أن نتناول الكعك، فهو أفضل بينما لا يزال دافئًا بعض الشيء.

كان هذا ما اعتادت قوله دائمًا عن الكعك. أعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير فيه: التصرف الوحيد الذي في استطاعة طفلة تبلغ من العمر عشر سنوات تقريبًا. لم أتمكن من ملاحقة والدي، لأنني لم أكن أعرف من أين سيشتري السجائر أو يشرب البيرة، وعلى أي حال، لم أكن أعتقد أن والدتي ستسمح لي بالذهاب. لم أعرف ماذا أقول لها بشأن المال، ولم أرغب في سؤالها عن سبب اعتقادها أن منزلنا ليس آمنًا. لكنني كنت أعلم أن الكعك يكون ألذ عندما يكون دافئًا.

قالت والدتي بصوت خالٍ من التعبير:

- أجل، القشدة في حقيبتي.

لكنها لم تتحرك.

ذهبتُ إلى المطبخ وأحضرت ثلاثة أطباق خزفية جميلة، واحد منها لوالدي في حال عودته في الوقت المناسب. لم أكن أعرف كم من الوقت يستغرق شُرب البيرة. أخذتُ الأطباق إلى غرفة المعيشة ووضعتها على الطاولة، ثم عدت لأُحضر القشدة والكعك والسكاكين والمربى. نهضت والدتي وأعادت الكتب إلى الرف، على الرغم من أنني لاحظت أنها لم تضعها بالترتيب الصحيح. فكرت في رسالة الرحلة المدرسية التي أخفيتها عن والدَي.

عندما جهزتُ الطاولة، قالت:

- حسنًا، فلنبدأ، قد يتأخر والدك لبعض الوقت.

وعانقتني، لكنني وقفت متصلبة بين ذراعيها. لم أعرف فيمَ أفكر. حسنًا، ربما يكون من الأدق القول بأن تلك كانت بداية عدم معرفة ما يجب التفكير فيه، وما زالت هذه هي حالي الآن على الأرجح. أعني، لقد فكرت في أشياء - الكثير من الأشياء - بخصوص والدتي ووالدي منذ ذلك الحين، لكنني لا أصل إلى نتيجة في الواقع، وأتمنى أن أصل إلى شيء ما.

الشعر

٢٠١٦

لا يملك أحد المفتاح

من العبث محاولة معرفة كيفية وصول كتاب إلى المكتبة، لكن ذلك لم يمنعني من أن أجرب. لا تستغرق المسافة بين ويتبي ويورك رحلة طويلة على وجه الخصوص، لكن الأمر استغرق خمسة عشر عامًا كي يقطع كتاب «دورة ديليا سميث المصوَّرة للطهي الشامل» تلك الرحلة، مما يدفع المرء إلى التساؤل عمَّا حدث خلال تلك السنوات. حسنًا، كان عليَّ أن أفعل ذلك. حاولت تجنب الأمر، لكنني فعلته.

اشتريت قالبًا للكعك ووعاء خلط، وحضَّرت كعك البراونيز الذي اعتدنا صُنعه أنا ووالدتي. إذا وضعتها في الميكروويف، ستصبح لزجة تمامًا. وإذا وضعت عليها آيس كريم الفانيليا وهي لا تزال دافئة، وتناولتها على الأريكة مع حبيبك، فسوف يتبيَّن أن الذكرى المرتبطة بنكهتها قوية جدًّا بحيث لا يمكنكِ إلا أن تبكي مثل طفلة حمقاء، ولا يمكنك حتى التظاهر بأن بكاءك له علاقة بالبرنامج الذي تشاهدينه، إذا كان فيلمًا وثائقيًّا عن رينيه ديكارت.

أحاطني ناثان بذراعه، وقال:

- لافداي، ما الذي يمكنني أن أفعله؟

قلت:

- لا شيء، ليس بالأمر الجلل.

- لا يبدو كأنه ليس بالأمر الجلل.

امتلأت نبرته بالقلق إلى درجة أنني بكيت بشدة أكبر.
ثم قلت:
- ذكَّرتني البراونيز بوالدتي. أشعر بأنني أفتقدها.
ضمَّني إليه بإحكام أكثر، وقبَّلني أعلى رأسي وسألني:
- أين هي؟
وهنا تكمن مشكلة التحدث مع الناس. فهم يطرحون الأسئلة، وقبل أن تدرك الأمر، توشك على إخبارهم بكل شيء.
قلت:
- سأغسل وجهي.
هذا ما توصلت إليه فيما يتعلق بالكتب. بعد وفاة والدي، ظل المنزل خاليًا حتى استعاده صاحبه. لا أذكر أنني سُئلت عمَّا إذا كنت أرغب في العودة إلى هناك، لكنني لم أذهب مرة أخرى قَطُّ. ومرَّ أكثر من عام قبل أن ينتهي بي المطاف في منزل أنابيل. عقب عودتي من المدرسة ذات يوم، بعد أسبوعين فقط من انتقالي إلى هناك، قابلتني عند الباب.
قالت:
- لقد وصلت أغراضك.
أعتقد أنها اعترضت طريقي حتى لا أتعرض لصدمة. كانت الصناديق مكدسة أسفل الدرج، وقد حرَّكت حامل القبعات بعيدًا لتفسح لها المكان. قالت:
- لم آخذها إلى الطابق العلوي، في حال أردتِ إلقاء نظرة عليها أولًا. وإذا كانت هناك أشياء لا تريدينها في غرفتك، فيمكننا وضعها في المرأب.
فتحتُ الصندوق الأول، لكن مجرد رؤية ما بداخله - صندوق مجوهراتي المليء بالأصداف، ودمية فوربي، وبعض القصص المصورة - جعلني أرغب في البكاء، وقررت أنني سئمت البكاء.
قلت:
- لا أريد أيًّا من هذه الأشياء.

وصعدت إلى الطابق العلوي.

وبعد مرور ثمانية أشهر تقريبًا، وفي عيد ميلادي النصفي (الذي مرَّ من دون أن يلاحظه أحد بالطبع)، قضيت اليوم في تفحص الصناديق. كانت أنابيل هي الشخص الوحيد الذي أعرفه الذي يوقف سيارته في مرأبه - كانت جميع السيارات الأخرى في المنطقة السكنية تبقى في الممرات الخاصة بالسيارات - لكنها فتحت باب المرأب للسماح بدخول ضوء النهار، وقادت سيارتها من طراز فيات باندا بعيدًا عن الطريق لتفسح لي المجال. وبحلول ذلك الوقت، لم يعُد الحزن كحريق يستعر في غابة، بل كشعلة دائمة، لا تنطفئ أبدًا، ولكنها ثابتة وتمكن السيطرة عليها.

أعتقد أنني كنت أحاول إيجاد طريقة للتفكير في والدتي: أردت العثور على مفتاح من شأنه أن يفتح قفلًا ما، فيجعل كل شيء منطقيًا. لكن ما كان سيجعلني أسامحها كان مكتوبًا على جسدها، أو محفوظًا في قلبها، وكل ما وجدته في الصناديق كان دليلًا على حياتنا العائلية السعيدة. كانت الأطباق التي صنعناها جميعًا في مقهى الفخار، التي تحمل بصمات أيدينا موجودة هناك. أصررت على أن يصنع كلٌّ منا واحدًا، وجلس والدي بين الأطفال والنساء الثرثارات وطلى يده باللون الأزرق بكل جدية قبل أن يدعني أضغطها فوق طبق عشاء. وكانت هناك صور متفرقة لنا على الشاطئ، أو متكدسين فوق الأريكة في عيد الميلاد، إلى جانب بطاقات أعياد الميلاد، وشهادات لهذا وذاك، وبطانيات، وأكياس من الخزامى تفوح منها رائحة الغبار. لم يكن هناك شيء من شأنه أن يساعدني على مسامحتها. السعادة القديمة، علاوة على البؤس الجديد الذي اضطررت إلى مواجهته وحدي - دورتي الشهرية الأولى، والتنمر البسيط في المدرسة، والعيش في منزل غريب مع امرأة لطيفة ليس لديها سبب لمعاملتي بلطف، والحزن - كل ذلك جعلني على يقين من أن مسامحة والدتي كانت أكثر مما تستحق. لقد حاولتُ، في عطلة نهاية ذلك الأسبوع، لكنها خذلتني.

لم تكن أيٌّ من كتب والدتي في المرأب. أعتقد أنه من الناحية النظرية، ربما

تكون قد طلبَت من الاختصاصية الاجتماعية إحضارها لها، خلال المرحلة التي كانت لا تزال تُعدُّ فيها بريئة حتى ثبت العكس. أتذكر أنها كانت ترتدي ملابسها الخاصة عندما اصطُحبتُ إلى رؤيتها. وقبل حادثة بطاقة ويتبي البريدية قبل خمسة أيام، افترضت أن الكتب قد فُقدت، أو أن مَن أخلى المنزل تخلص منها، لكن يبدو أن هذا لم يحدث.

لذا لنفترض، من الناحية النظرية، أن شخصًا ما تولى العناية بها من أجلها، وقد اهتمت بها بما فيه الكفاية، وسط كل الجحيم الذي خاضته، لتطلب من أحدهم الاحتفاظ بها من أجلها. أعتقد أنها ظنت أنها ستحظى بمزيد من الوقت للقراءة. لم تطلب الصور. ربما أرادت تركها لي، أو ربما لم تتحمل النظر إلى وجوهنا وتذكر مدى سعادتنا.

لم أستطع مجرد التفكير في وجهَي والدَي سنوات وسنوات، ولم أُحضِر الصور التي كانت لديَّ في منزل أنابيل عندما انتقلتُ إلى يورك. وعندما أفكر فيهما الآن، أتذكر كيف أن والدي لم يحب أن نقضي وقتًا مع أي شخص آخر في أثناء وجوده في المنزل، وأتساءل ما إذا لم يكن ذلك مجرد نزوة صغيرة أو علامة على الحب، بل ربما كان - أكره قول هذا - شيئًا يُظهر ذلك الجانب من شخصيته الذي جعل الحياة شاقة للغاية بالنسبة إلى والدتي. قد أبدأ في التساؤل عمَّا إذا نعما بالسعادة قَطُّ، في الواقع.

إذن، تولى أحدهم العناية بالكتب من أجلها. إما أنها تمكنت من استعادتها من ذلك الشخص، وإما لم تستطع ذلك. وهنا جوهر المسألة: إذا تمكنت من استعادتها، فلماذا سلَّمتها الآن لشركة إخلاء منازل؟ والأهم من ذلك، إذا كانت قادرة على استعادتها، فلماذا لم تستعِد الأشياء الأخرى التي اضطرت إلى أن تخلِفها وراءها، مثل ابنتها؟ في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، في زيارة متفق عليها للسجن عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، وعدتني أنها ستأتي وتبحث عني. صاحت وأنا أسير مبتعدة، كما لو أنه تهديد تقريبًا: «سوف آتي للبحث عنك، يا إل جيه، سواء أردتِ ذلك أم لا».

لكن إذا استعادت الكتب بنفسها، فهي لم تفِ بوعدها ذاك. ربما أكون قد اختبأت، لكن لا بد أن هناك أثرًا يمكن تتبُّعه. كان في وسعها العثور عليَّ، عندما تصبح جاهزة لذلك. وقد وعدتني أنها ستفعل، على الرغم من أنها لم تعرف متى.

قالت في واحدة من تلك الرسائل المملوءة بخط يدها حتى أطراف الصفحة إنها لا تريدني أن أفقد كلا والدَي، وكنت أقرأ تلك الرسائل وأبكي، حتى بدأتُ أنحي رسائلها جانبًا من دون فتحها، بعد شهر من تلك الزيارة الأخيرة، عندما قررت، مع الشعور بكل القوة التي يمكن أن تتمتع بها فتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، أنني سئمت من عائلتي المحطمة والمروعة، وأنني سأكون أفضل حالًا وحدي.

في تلك الرسالة الأخيرة التي فتحتها، كتبتْ أنها تفهم أنني لا أريد رؤيتها الآن، لكن ربما في يوم من الأيام، عندما تهدأ الأمور، سأفهم أكثر قليلًا عن الكيفية التي وصلنا بها إلى الوضع الذي نحن عليه الآن. وقالت إنها تمنت لو أنها تصرفت بطريقة مختلفة. كنت أعيش في دار رعاية، وبدا امتلاك غرفة خاصة بي هو الشيء الأكثر وحدة في العالم. لم يسبق أن أحسست بذلك الشعور من قبل، فدائمًا ما كان لديَّ خيار الاستلقاء في فراش والدَي بعد الكوابيس، أو في صباح عطلة نهاية الأسبوع، أنعم بالدفء مثل حصاة في مواجهة خط مد الموج الصيفي.

لا يمكن أن تكون والدتي قد استعادت الكتب، لأنها لو فعلت، لجاءت من أجلي أيضًا. ربما كان الشخص الذي احتفظ بها من أجلها قد فقدَ الاتصال بها، أو انتقل إلى سكن جديد، أو مات، وفي خضم إخلاء المنزل لم يدرك أحد لمن تعود تلك الكتب. بدا ذلك منطقيًّا. لكن بالطبع، إذا كان الأمر كذلك، ألم يكن من المفترض أن تصل معًا؟ بدلًا من صندوق من الروايات ذات الغلاف الورقي في أسبوع، ثم كتاب قديم لوالدي بعد ثلاثة أسابيع، يلي ذلك كتاب ديليا سميث بعد شهرين. ومن بين جميع مكتبات بيع الكتب المستعمَلة في العالم، وجميع المحلات الخيرية الواقعة على مرمى حجر من المكتبة، لماذا انتهى بها المطاف في مكتبتي؟

سألت آرتشي عمَّن أحضر كتب الطهي، لكنه لم يتذكر بالطبع. قال إنه يعتقد أنه ربما كان شخصًا يرتدي معطفًا أزرق، أو ربما تُركوا على الدرج. كأن ذلك يساعد على حصر نطاق البحث! تحدثت إليه بحدة، فبدا متألمًا. كنت أعرف أنه يجب عليَّ ألَّا أنفِّس عن غضبي فيه، ولهذا يجب ألا أفكر في الماضي. حسنًا، هذا واحد من بين أسباب عديدة. سألت بِن أيضًا، فهز كتفيه وقال:

- كلها مجرد صناديق كتب بالنسبة إليَّ، يا عزيزتي.

عظيم!

كنت في حالة مزاجية سيئة، إلى درجة أنني كدت أوفر على نفسي عناء الذهاب إلى الأمسية الشعرية في ذلك الأربعاء. لكن شقيقة ناثان كانت قادمة، وربما لا أعرف كثيرًا عن العلاقات، لكنني أعرف التالي: لا تُغضِب شقيقة أحد.

لذا فعلت ما اعتدت القيام به، على الرغم من أنني لم أضطر إلى القيام بذلك منذ سنوات. جلست في المقعد بجانب مخرج الطوارئ، وأغمضت عينَي وتخيلت قرصًا في المكان الذي يجب أن يكون فيه قلبي، وقد ضُبط القرص على مقدار الألم الذي أشعر به. يمكن أن يتراوح عند أي نقطة ما بين واحد وعشرة، لكن عليَّ أن أكون صادقة بشأن نقطة ضبطه. واليوم، كان مضبوطًا بمقدار ست نقاط، فأخذت نفسًا عميقًا، وتخيلت القرص يُصدِر تكة وهو يتراجع من ستة، وأخذت نفسًا، خمسة، ثم نفسًا آخر، أربعة، ونفسًا آخر، ثلاثة، ونفسًا آخر. تركته يتوقف عند ثلاثة، وهذا هو القدر المعتاد على الأرجح. لا أعتقد أنه يمكن أن يصل إلى الصفر أبدًا. نعم، أعلم أنها ليست حقًّا أفضل طريقة للتعامل مع الأمور على نحو صحيح، لكن يمكنها مساعدتك على اجتياز الساعتين التاليتين، وفي بعض الأحيان يكون هذا هو كل ما تحتاج إليه.

لم أقابل شقيقة ناثان، لكنني كنت أعلم أن لديه شقيقة ووالدين، وكلاهما على قيد الحياة، وقد مضى على زواجهما أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، وما زالا يمسكان بأيدي بعضهما عندما يشاهدان التلفاز في المساء، وكثيرًا ما يلعبان الطاولة بجوار الموقد، أو يحلان الكلمات المتقاطعة الغامضة بعد العشاء. حسنًا، لقد

اختلقتُ الأمر كله بعد «خمسة وثلاثين عامًا»، لكن يمكنك التخمين، بمجرد النظر إلى ناثان، أنه ينتمي إلى عائلة سعيدة لن يؤلف عنها أحد كتابًا لأنه لا يحدث أي شيء أبدًا، باستثناء النزهات وحفلات الزفاف، والأشخاص الذين ينجبون أطفالًا وِسامًا مبتسمين بشعر كستنائي مجعد وأعين خضراء بلون البحر.

تبلغ شقيقة ناثان من العمر ثمانية وعشرين عامًا، أي أنها أصغر منه بسنتين. عندما سألني عن عائلتي، اكتفيت بالقول بأن آرتشي هو عائلتي، وهذا صحيح، إذا طبقت مبدأ أن عائلتك هم الأشخاص الذين يتذكرون عيد ميلادك ويتولون العناية بك عندما تكون مريضًا. لم ينظر إليَّ بوصفي يتيمة أو أي شيء من هذا القبيل، مما كان أمرًا جيدًا، لكنه تحدث كثيرًا عن شقيقته. بدت لطيفة بما فيه الكفاية، لكنني لم أخطط حقًّا للقائها. ولا يعني ذلك أنني أمانع هذا، لكن المشكلة في مقابلة أشخاص جدد هي أنهم يطرحون عليك كثيرًا من الأسئلة، وعندما يتعلق الأمر بالإجابة عن هذه الأسئلة، فليس لديَّ كثير من الخيارات.

إما أن تلتزم الصدق، وهو ما يبدو أكثر مما تتحمله محادثة من نوعية «سعدت بلقائك»، وإما أن تكذب. ولا تهم الأكاذيب بدرجة كبيرة إذا كنت لن تقابل الشخص مرة أخرى أبدًا، لكن إذا كنت ستقابله، فعليك أن تكون كاذبًا بارعًا حقًّا، وأنا لست كذلك، وإلا سينكشف أمرك، مما سيؤدي إلى المحادثة التي كنت تحاول تجنبها في المقام الأول، لكن مع وجود موسيقى تُنذِر بالسوء في الخلفية.

لو أنني أكثر مهارة في التواصل الاجتماعي، لتمكنت من الدردشة وتغيير مسار الحديث، «أوه، لنتحدث عنك أنت»، على ذلك النحو الذي شاهدت آخرين يفعلونه، لكن الحقيقة هي أنني لا أحب معظم الناس، وهذا يظهر إذا حاولت الإقدام على أي تصرف ذكي.

وكنت لا أزال في حالة صدمة بشأن كتاب الطهي، بالطبع، الأمر الذي لم يساعد مهاراتي الاجتماعية قَطُّ. ألن تشعر أنت بالقلق؟ لو كنت مكاني... أوه، لا عليك، فلن تكون في مكاني أبدًا. هذا هو ما يمثله الكتاب: إذا لم يكن قد وصل بمحض

المصادفة التامة عقب إخلاء أحد المنازل، فإن شخصًا ما يحاول أن يقول لي: «أعرف كل شيء عمَّا كنت تحاولين إخفاءه، وما قضيتِ ستة عشر عامًا تهربين منه. ما رأيك، يا لافداي؟ الأمر ليس سرًّا، وكل ما عليك الآن هو الانتظار كي ترَي ما سيحدث». تساءلت عمَّا إذا كان الشخص الذي أرسل الكتب لديه نيات حسنة، لكن من المؤكد أن أي شخص لديه نيات حسنة سوف يأتي إليَّ، ويقدم نفسه، ويشرح الهدف من كل هذا، بحق الجحيم.

يمكن أن تكون المصادفة هي التي أتت بالكتب، لكننا جميعًا نعرف أن هذا ليس ما حدث. كلاسيكيات بينجوين - الكتب نفسها التي أخفت فيها والدتي رصيدها الاحتياطي المخصص للهروب - وكتاب كيت جريناواي، وكتاب ديليا الذي يحوي داخله البطاقة البريدية؟ بدا من المؤكد أن تكرار الأمر ثلاث مرات يعني أن أحدهم يحاول تأكيد شيء ما. شعرت كما لو أنني مراقَبة، وهو ليس شعورًا غريبًا بالنسبة إلى طفلة غريبة الأطوار، لكن هذا لا يعني أنني اعتدته على الإطلاق.

عندما ولجت الغرفة، تقدم نحوي ناثان مباشرة وعانقني، وعلى الرغم من أنني، من حيث المبدأ، أعارض إظهار المشاعر علنًا - فهذا مجرد استعراض، في نهاية المطاف - فإنني بادلته العناق. دائمًا ما يتصرف بدفء أكثر مني، ويُشعِرني بالأمان، على الرغم من أنني قبل أن أجد ذلك الكتاب على الرصيف، كنت سأفضِّل اقتلاع مقلتَي وأكلهما بدلًا من الذهاب إلى أمسية شعرية، ناهيك بالوقوف هناك بنفسي لأقوم بالإلقاء. لكن لا تعتقدوا أنني أتحدث عن «قوة الحب»، فلا يوجد من يوجه إليَّ تلك الكلمة، ويعتقد أنها تعني شيئًا أو تُحدث فرقًا، لكنني شعرت فحسب كما لو أنه فتح لي بابًا، بطريقته اللطيفة، وعبَرت من خلاله.

نظر إلى وجهي مباشرة، وهز رأسه قائلًا:

- لافداي، هناك شيء ما بك. عندما دخلتِ للتو...

وضع يده على صدره، وتابع قائلًا:

- مجرد رؤيتك تجعلني...

راودني الشعور نفسه، لكنني لم أستطع أن أقول ذلك. لم يكن لديَّ أي فكرة ماذا أقول، لذا وضعت يدي على وجنته وقبّلته، مجرد قبلة سريعة، لكنه ابتسم.

قال:

- تعالَي، لتقابلي شقيقتي.

قلت:

- أوه، حسنًا.

لم تتأخر لعذر قهري إذن. أخبرني ناثان أنها مصففة شعر، وكنت قد صبغت شعري مرة أخرى باللون البورجندي في يوم الأحد السابق، لذا شعرت بأنني على استعداد لمقابلة مصففة شعر.

كانت جميلة بالطبع، كما قال. بدت عيناها زرقاوين هادئتين كعينيه، لكن فمها بدا أعرض، وكان لديها ذلك النوع من الابتسامة التي يبتسمها الناس عندما يجدون الطبعة الأولى من كتاب يبحثون عنه، لكن بنصف السعر الذي توقعوا دفعه. وكان شعرها قصيرًا، ومقصوصًا على نحو غير متساوي الطول نوعًا ما، وألوانه رائعة: الأشقر والأحمر والخوخي، وكلها ممتزجة، بحيث انعكس عليها الضوء. من المؤكد أنها لم تصبغه في المنزل فوق الحوض، مثلما فعلت أنا.

قالت:

- لا بد أنك لافداي. أشعر بالغيرة من اسمك! إنه مميز للغاية. أنا فانيسا.

رسمت على ملامحها تعبيرًا ينم عن الاعتذار، كما لو أن هناك خطبًا في اسم لن يجعل الناس يطلبون منك تكراره.

قلت:

- مرحبًا.

قال ناثان:

- ناثان ونيس.

وضحكا معًا، ثم قال:

- هذا هو ما كان يُطلق علينا عندما كنا صغيرين، مما أثار غضب فانيسا. غضبت للغاية...

أدارت فانيسا عينيها في محجريهما، وقالت:

- غضبت إلى درجة أنني عندما صرت مراهقة، أصررت على أن يناديني الناس باسم فان، وهو ما لا يزال شقيقي يجده مضحكًا. لكنه سيذهب الآن ليُحضِر لنا الشراب، وسأخبرك بأشياء عنه عندما كان مراهقًا، وسيستحق هذا العقاب.

سألني ناثان:

- جيمليت؟

فأومأت برأسي، ثم نظر إلى شقيقته، وقال:

- جين وتونيك، مع مكعب ثلج واحد، وشريحتين من الليمون، من دون أن أدعهم يسكبون التونيك كله دفعة واحدة؟

قالت فانيسا:

- هذا صحيح، ولا تدعهم يضعونه في جرة مربى أيضًا.

عندما رحل، ابتسمتْ مرة أخرى، ووصلتُ أنا إلى اللحظة التي كنت سأشعر فيها بالفزع. بدا الأمر كما لو أنني ذهبت إلى المدرسة، ولم تتجاهلني أو تسخر مني كيتي وسكارليت، التوأمان اللتان تتمتعان بالشعبية في مدرستي الإعدادية، بل أحضرتا لي مقعدًا عند طاولتهما، وسألتاني ما إذا كنت أرغب في تقديم النصائح لهما بشأن الأولاد. كان هذا الأمر برمته مختلفًا تمامًا عن طبيعتي.

لكنني أدركت حينها أن فانيسا الجميلة اللطيفة، بشعرها الرائع وقلادتها الذهبية التي يتدلى منها قلب صغير، والتي أعلم أنها تكلفت أكثر من إيجار أسبوع، كانت ترتدي حمالة صدر سيئة. شكَّلت الخِياطات التي ظهرت من خلال بلوزتها خطوطًا منحنية نحو الأسفل، لذا وعلى الرغم من كل جمالها الباهظ، بدا ثدياها كما لو أنهما يعبسان في وجهي، فشعرت بتحسن، ليس لأنني كنت سأطلق عليها الأحكام، لكن لأنني أستطيع التعامل مع عدم الكمال. والآن، بعد أن فكرت في

الأمر، وجدت أنه سيتعين على ناثان العمل على ذلك الأمر، لأنه بدأ يبدو رائعًا إلى درجة يصعب تصديقها.

قالت فانيسا:

- هل تعملين في مكتبة؟ سأحب ذلك، لكنني سأرغب في القراءة طوال اليوم، لذلك سأُطرد من العمل في غضون أسبوع.

سألتها:

- أين تعملين؟

ولم أكن مهتمة حقًّا، حيث كنت أقص شعري بنفسي: أجمعه على شكل ذيل حصان كل ستة أسابيع، وأقص منه مقدار بوصة من الأسفل. لكن إذا كان لديَّ شقيق، فسأرغب في معرفة كل شيء عن صديقته، ولم أرِد الخوض في ذلك الحديث.

قالت:

- أوه، أنا أسافر من مكان إلى مكان.

قلت:

- معذرة، ظننتك مصففة شعر.

ضحكت فانيسا، وقالت:

- أنا مصففة شعر بالفعل، لكنني أعمل لدى عملاء خصوصيين، لذا أذهب إلى حيث يوجدون.

قلت:

- فهمت.

على الرغم من أنني لم أفهم في الواقع. كنت أظن أن مصففي الشعر يبقون في مكان واحد، ما لم يكونوا من أولئك الذين يذهبون إلى منازل السيدات المسنات لغسيل وتصفيف شعرهن، وهو أمر بدا واضحًا أنه ليس من اهتمامات فانيسا، ما لم أكن قد أخطأت قراءتها على نحو فادح. وقد ثبت على ما أعتقد، أنني لا أجيد الحكم على الناس، لكنني كنت واثقة إلى حدٍّ ما من هذا الأمر.

لوَّحت بيدها في لفتة تعني «ما سأقوله ليس على هذا القدر من الأهمية».

- أنا خبيرة في الألوان، لذا كثيرًا ما يوظفونني في الأفلام وما شابه.

فكرت: «اللعنة، يا ناثان». تعمل فانيسا مصففة شعر تمامًا كما يعمل الأمير تشارلز مزارعًا. مددت يدي إلى شعري، وأردت تغطيته.

قلت:

- أقص وأصبغ شعري بنفسي، ولطالما فعلت ذلك. حسنًا، تولت والدتي قصَّه عندما كنت طفلة.

نظرت إلى شعري، كأنها لم تلاحظه من قبل، على الرغم من أنني متأكدة أنها لاحظته، وقالت:

- بورجندي وردي، أليس كذلك؟

قلت:

- بلى.

أعددت نفسي لسماع حديث حماسي من نوع ما، بخصوص صباغة الشعر في المنزل، وكيف يجب علينا نحن الهواة أن نكون أكثر تعقلًا من ذلك.

لكنها قالت:

- إنه خيار جيد، ويناسبك. لون شعرك الطبيعي بني فاتح، ويتحول إلى اللون الأحمر في الشمس، أليس كذلك؟

كررت قائلة:

- بلى.

وقد أثارت إعجابي بعض الشيء، ولم أرغب في التعرض للخداع والخوض في الحديث عن والدتي مرة أخرى، لذا سألتها:

- كيف أمكنك معرفة هذا؟

قالت:

- بشرتك.

كما لو كان ذلك جوابًا، ثم أضافت:

- أتمنى لو أن لديَّ بشرة جيدة مثل بشرتك.

لـم يكن لديَّ أي فكرة عمَّا أقول للرد على ذلك. هناك اقتباس فظيع تقوله ميلودي، «ارقص كأن لا أحد يراقبك، إلخ إلخ»، لكنه ينتهي بعبارة، «أحب كما لو أنك لـم تتأذَّ قَطُّ»، وفكرت، عندما نظرت إلى فانيسا ثم إلى ناثان عندما عاد بالمشروبات، هذه هي حالكما. أنتما مثل جروين صغيرين يلعبان في الشمس، وحياتكما سهلة للغاية.

ترك ناثان المشروبات ثم ذهب مرة أخرى ليتجول في المكان، وشاهدناه وهو يبتعد. لـم ينوِ الأداء في ذلك المساء، وقال إنه يستحق ليلة للراحة.

قالت فانيسا:

- أشعر بأنني فخورة به للغاية حينما أراه الآن، عندما أفكر فيما عانى منه في المدرسة. هل أخبرك بذلك؟

قلت بحذر:

- لقد ذكر الأمر.

ولـم تكن هذه كذبة تمامًا، فقد أخبرني على الأرجح، على نحو غير مباشر. كنا نتحدث بالطبع، لكن معظمه كان حديثًا عن الحاضر، وعن الشعر، والكتب، والسحر، ويورك، حسنًا، والدردشة. أحب الحاضر (في الغالب)، وقد بنيته بالقدر نفسه من العناية التي بنيت بها مكتبتي الصغيرة في المنزل، وأحاول البقاء في هذا الحاضر.

نظرتْ إلى مشروبها، وإلى ناثان، ثم إليَّ.

- لقد تعرض للتنمر في المدرسة، بشدة إلى درجة أن والدينا تحدثا عن إخراجه من نظام التعليم الرسمي. وحينها بدأ في ممارسة السحر، وكان الأمر نوعًا من الهوس بالنسبة إليه. بدا الأمر مخيفًا للغاية لبعض الوقت، لرؤيته على تلك الحال. كان يتحدث بالكاد، وأمضى أيامًا كاملة في عطلة نهاية الأسبوع وهو يخلط أوراق اللعب.

حاول أن يعلِّمني خلط أوراق اللعب، وأن أنقل الأوراق من يد إلى أخرى،

صانعة منها قوس قزح، لكنني لم أجد لديَّ الموهبة، وقال إن كل ما يتطلبه الأمر هو الوقت. لكنه لم يذكر كم من الوقت، ولا من أين أتى ذلك الوقت.

قلت:

- إنه يحاول أن يعلِّمني.

وشعرت بالسوء بعض الشيء، حيث افترضت أن السبب الوحيد الذي يجعلك تنتهي بممارسة الألعاب السحرية هو أن عمك العجوز الطيب قد دلَّلك برحلات لمشاهدة السحرة، وهدايا من ألعاب السحر للمبتدئين التي تأتي مع قبعة بلاستيكية عالية. واجه ناثان أوقاتًا عصيبة بقدر أكبر مما صرح به. لكن مرة أخرى، على الرغم من أن لا أحد يذكر ذلك، لا يتعلق الأمر بكيفية سقوطك، بل بعدد الأشخاص الموجودين هناك ليعينوك على النهوض، ويمسحوا ركبتك بالمطهر، ويدَعونك تستلقي على الأريكة مع بعض الشوكولاتة الساخنة وكتاب حتى تشعر بالتحسن.

- عندما أنظر إلى شقيقي الآن، أشعر بالفخر الشديد.

فكرت: «آه، ها هو التحذير الموجه إليَّ». ضاجعي شقيقي إذا شئتِ، لكن لا تفسدي حياته، لأنه عانى بالفعل من الفظائع، ويحتاج إلى الحماية كي لا يعترض طريقه أي مكروه آخر.

أدركت حينها، وأنا جالسة مقابل فانيسا، أن علاقتنا أنا وناثان لن تستمر. حسنًا، لطالما عرفت ذلك. منذ البداية، شعرت كما لو أنني أخدعه، من خلال التظاهر بأنني شخص يمكنه أن يقيم علاقة طبيعية. حتى إنني بدأت أخدع نفسي في الآونة الأخيرة. كنت أعلم أن علاقتنا محكوم عليها بالفشل، لكنني تجاهلت ذلك، فأنا أجيد تجاهل الأمور. حسنًا، على الأقل خلال النهار، لكن الكوابيس يمكن أن تكون سيئة. أقف في مدفن الكنيسة في ويتبي، والبحر يرتفع، بينما الكنيسة تشتعل خلفي. إذا قفزت فسأغرق، وإذا بقيت فسأحترق. لذا أقف هناك، وأنتظر لأرى ما سيحدث أولًا، وأصرخ منادية والدتي، لكنها ليست في أي مكان.

كنا أنا وناثان مختلفَين تمامًا. في عالمه، تأتي المشكلات ومعها فرق الإنقاذ،

وكانت الحلول هي الأرانب البيضاء والتعليم المنزلي. تخيلته، طويلًا ونحيلًا، ومصابًا بحب الشباب، جالسًا أمام نافذة كبيرة ومعه مجموعة من أوراق اللعب، ويتدرب على حيله مرارًا، بينما تضع والدته بجانبه بين حين وحين فنجانًا من الشاي وشريحة من كعكة الليمون المصنوعة منزليًّا.

وقف في مقدمة الغرفة، وصفق بيديه خمس تصفيقات مدوية.

الشعر

٢٠١٦

مكشوف

دائمًا ما يتظاهر آرتشي بأنه لا يكترث بعيد ميلاده، لكنه أسوأ من طفل مدلل. قبل ذلك الموعد بشهر تقريبًا، يدور بين جميع الأصدقاء الذين يتعاملون مع المكتبة والمقهى بوصفهما امتدادًا لمنازلهم، قائلًا لهم إنه سيدعوهم «لتناول بعض المشروبات» كي «يودِّع عامًا آخر»، وإن الأمر لن يكون «شيئًا مميزًا»، كما كان بعض العملاء المُختارين يحظَون بدعوة أيضًا.

بعد ذلك، يتوجه إلى مكتب البريد حاملًا حقيبة مليئة بأظرف سميكة لها لون كريمي، داخلها دعوات مطبوعة، لكن العناوين مكتوبة بخط اليد، وكل اسم عمل فني بخط منمق. سبب آخر لحبي لآرتشي هو أن اهتمامه بالإنترنت أقل مني، فلم يكن لدينا حتى بريد إلكتروني عندما أطلقنا الموقع الرسمي للمكتبة.

في السنة الأولى، صدقت بالفعل خدعة أنه لن يكون هناك «شيء مميز»، ووصلت متأخرة نصف ساعة، مرتدية الملابس التي ارتديتها في أثناء العمل. يعيش آرتشي في منزل قديم ضخم في بيشوبهيل، وفي طريقي عبر الممر الخاص بالسيارات، مررت بثلاثة رجال يرتدون ربطات عنق سوداء وامرأة ترتدي زي راقصة كنكان. ثم فتحت لي الباب امرأة أخرى ترتدي فستان حفلات وفي قدميها حذاء لامع، فأدركت خطئي. وكي نكون منصفين، كانت المرأة صاحبة فستان الحفلات ترتدي ملابس مبالغًا فيها، لكن ربما كانت أقرب إلى المتوسط العام المطلوب لقواعد اللباس مما كنت أنا.

يُحضِر آرتشي متعهدي الطعام، ويرتدي إحدى صدرياته القديمة المطرزة البشعة - أخبرته ذات مرة أنه يشبه أوسكار وايلد سمينًا، فضجَّ بالضحك وقال إنه لا يعرف إلى أيهما أوجه الإهانة - كما أن هناك كثيرًا من النبيذ والكثير من الطعام، مما يعني أنك ستشعر بأنك لا تتوقف عن الأكل طوال الليل، لكن عندما تعود إلى المنزل عليك أن تُعِد لنفسك بعضًا من الخبز المحمص لأنك تتضور جوعًا. في السنة الأولى، بقيت في المطبخ، وفي السنة التالية بقيت بجانب آرتشي. لكنني بت أعرف بعض أصدقائه الآن، لذلك عادة ما أتمكن من العثور على شخص يمكنني إجراء محادثة لطيفة معه، وهو أمر يصبح أسهل نظرًا إلى حقيقة كونها المحادثة نفسها كل عام: «أحب العمل في مكتبة»، و«أليس آرتشي شخصية مميزة؟»، وأشياء من هذا القبيل. وإذا لم يفلح أي شيء آخر، يمكنك دائمًا أن تسأل الناس كيف التقوا بآرتشي. ولا يكون الجواب أبدًا شيئًا عاديًّا مثل، حسنًا، «في مكتبة»، بل عادة ما يكون: «لقد تشاركنا في زنزانة عندما حوكمنا عسكريًّا»، أو «لقد عرفنا بعضنا منذ كنا عضوَين في جمعية مخربي حملات الصيد»... كما أن آرتشي لديه مكتبة، حيث يمكنني الاختباء إذا زادت الأمور على حدها بالنسبة إليَّ.

بعد أول عام، بدأت أشتري شيئًا جديدًا كي أرتديه للحفلة. لم أبحث عن شيء مبهرج - لا أهتم حقًّا بكون الملابس متأنقة أو بسيطة، فالمرء إما يرتدي الملابس وإما لا يرتديها فحسب، في رأيي - لكنني ظننت أن شراء ملابس جديدة سيُظهر أنني بذلت جهدًا. لا يلاحظ أحد الأمر، ومهما حاولت التغيير، دائمًا ما ينتهي بي الأمر بشراء فستان أسود، وعلى الرغم من أنني أحب وشومي، فإنني لا أُظهرها أكثر من اللازم، لأن أي أحمق تناول كأسين من النبيذ سيعتقد حينها أنه لا بأس بالسؤال عنها. وأعني «بالسؤال عنها» أنهم يبدأون في الحديث عن الوشم الذي لديهم، أو الذي يخشون من الحصول عليه، أو يسألونني إذا كنت قلقة من أن يحكم الناس عليَّ، مما يعني أنهم هم أنفسهم يطلقون الأحكام، لكنهم يعتقدون أنهم لا يفعلون ذلك عندما يسألونني عن الأمر.

لكنني رأيت شيئًا أعجبني هذه المرة، إلى درجة أنني حدت عن القاعدة.

كنت في طريقي إلى الشارع الرئيسي في أثناء استراحة الغداء عندما رأيت فستانًا في نافذة متجر خيري. كان بلون داكن كالبرقوق، وله صدرية مخملية وأكمام شفافة، وفكرت على الفور: «نعم». كان ذلك أقرب شعور يشبه الإثارة لشراء شيء أحسست به بعيدًا عن مكتبة. دفعت عشرين جنيهًا مقابله، لكن من الملصق استنتجت أنه سيكلفني مائتي جنيه لو كان جديدًا.

أخذته وعدت به إلى المكتبة. كانت فترة ما بعد الظهيرة هادئة، وموعد الحفلة في اليوم التالي. كنا أنا وآرتشي نعمل جنبًا إلى جنب على سبيل التغيير - كنت أرتب الكتب على الأرض، ثم أناوله إياها ليرتبها على الرف - وقبل أن أفكر في الأمر، سألته السؤال الذي أعتقد أنه كان يدور في ذهني منذ أن التقيته.

- آرتشي، كيف تفعل ذلك؟

- أفعل ماذا، يا متشردتي الصغيرة الضالة؟

نظر إليَّ، وجلست القرفصاء.

قلت:

- مساء الغد، ستكون... مسترخيًا تمامًا، كما هي حالك هنا. سيمكنك التحدث مع أي شخص. تبدو كما لو أنك... تتحرك عبر الأمور بانسيابية، نوعًا ما.

وضع يديه أسفل ظهره، وجفل وهو يفرد عموده الفقري، وقال:

- أعتقد أن أيام تحركي بانسيابية قد ولت.

- أنت تعرف ما أعنيه. مكتبة سُر مَن قرأ

جلس على أقرب كرسي، وأدركت أنني قدمت له عذرًا ليتوقف عمَّا كان يفعله، فنهضت وأخذت مكانه. يمكنني الاستماع وأنا أعمل.

قال:

- كُوني على طبيعتك.

فكرت: «أوه، رائع، لقد كنت على طبيعتي طوال هذه السنوات وانظر إلى أين قادني ذلك: مستوى من الحرج الاجتماعي يستحق جائزة الأوسكار، وليس لديَّ أصدقاء». قلت:

- إذا أقمتُ حفلًا، فستكون شقتي كبيرة جدًّا بالنسبة إلى عدد المدعوين، بينما سيكون منزلك أنت صغيرًا للغاية بالنسبة إلى عدد مدعويك.

سألني:

- هل تقولين إن هذا مقياس لقيمتنا النسبية؟

قلت:

- بالطبع لا.

ظل صامتًا فترة طويلة حتى ظننت أنه يأخذ قيلولة، لكنه قال بعد ذلك:

- ساعدت جون جيلجود(١) ذات مرة كي يبني فرن خبز في حديقته. وفي منتصف اليوم الثاني، قال لي: «آرتشي، يا صديقي القديم، هذا ليس ما يمكن أن يعدُّه المرء عملًا يستغرق دقيقتين». امنحي نفسك الوقت.

قلت:

- الوقت؟

شعرت بأن نبرتي خالية من التعبير بفعل خيبة الأمل. أردت أن تكون هناك إجابة أفضل.

- وكوني شجاعة، يا لافداي. اطرحي الأسئلة التي تريدين طرحها، وابحثي عن الأشخاص الذين تريدينهم في حياتك. قد لا يكون الأمر بالصعوبة التي تعتقدينها.

بعد ذلك، أخلد إلى النوم بالفعل. فكرت فيما قاله. لن أكون شجاعة أبدًا. ثم تذكرت أنني ألقيت بعض الشعر، وأن لديَّ ما يمكن أن يطلق عليه البعض مسمًّى علاقة، في حين أنه قبل عام، كان كلا الأمرين غير واردين على الإطلاق. لأستخدم إحدى عبارات آرتشي: «ربما لست غرة ساذجة بقدر ما أبدو».

* * *

كان ناثان ذاهبًا إلى الحفلة، لكنه سيقابلني هناك، لأنني سأعود إلى المنزل كي

---

(١) السير جون جيلجود: ممثل ومخرج مسرحي إنجليزي بارز، يُعدُّ واحدًا من أعظم ممثلي المسرح البريطاني في القرن العشرين. (المترجمة).

أبدل ملابسي وأحضر فطيرة ميرانغ الليمون التي خبزتها في صباح إجازتي. قد يكون حبيبي، لكن هذا لا يعني أنه يتعين علينا الذهاب إلى كل مكان معًا. وقد طلب منه آرتشي أداء بعض الخدع السحرية لكسر الجمود في بداية الحفل، وعرض الدفع، لكن ناثان رفض حتى مناقشة أمر المال.

ولم أفكر بالطبع في كيفية وصولي إلى منزل آرتشي ومعي مخبوزات هشة نوعًا ما، حتى وقفت في الشارع بجانب دراجتي، وفستاني مرفوع بالكامل، وأدركت أنه من المحال أن تبقى الفطيرة سليمة خلال الرحلة، لأنني لم أتمكن من وضعها على نحو مستوٍ في سلة دراجتي. اضطررت إلى ركوب الحافلة، لذا تأخرت. لكن مع ذلك، كما كانت والدتي تقول، (أو ربما لا تزال تقول)، «لا بد دائمًا أن يكون شخص ما هو الأخير».

يبدو المنزل في صلابة آرتشي نفسه، حيث إنه مبني من الحجر. أعتقد أنه على الطراز الجورجي، فهو يحتوي على نوافذ كبيرة وغرف مربعة واسعة ذات أسقف عالية ودرج منحنٍ. وهو في الأساس منزل فخم صغير. هناك أربع درجات تؤدي إلى الباب الأمامي، وهو باب بالغ الضخامة، في حال ما كانت المرأة ترتدي أكبر فستان منفوش لديها، على ما أعتقد. لكن بمجرد الدخول، يبدو المكان مريحًا، ويعبق برائحة دخان الغليون والخبز، وهناك كومة من المعاطف والقبعات عند الباب، وصحيفة الأمس على طاولة المطبخ.

توجهت مباشرة إلى البحث عن آرتشي، الذي كان يبدي إعجابه بشيء غريب فكَّ غلافه للتو. وعندما رآني أدخل، ترك الأشخاص الذين كانوا بصحبته، وجاء وقبَّلني على وجنتي، وضغط على أعلى ذراعي بقوة.

قال في أذني:

- تبدين جميلة.

سررت برؤيته، وسررت بعناقه، حيث أشعرني بالأمان. كل ما أحسست به هو الأعين المحدقة إلى ظهري، وخطر لي وأنا قادمة في الطريق أن الشخص الذي ترك لي كتب والدتي قد يكون حاضرًا هنا. كان في حاجة إلى معرفتي جيدًا

بما يكفي لمعرفة أين أعمل، وإذا كان يعرف ذلك، فهو يعرف آرتشي. وإذا كان يعرف آرتشي، أليس من المرجح أن يكون حاضرًا في حفلته أيضًا؟ أخذت نفسًا.

التقطت الشيء الغريب من يد آرتشي، وسألته:

- ما هذا؟

قال كما لو كان ذلك شيئًا معروفًا:

- قاطعة سيجار.

لم يثِر أي ضجة أو يقدمني لأي شخص، بل ظل بجانبي فحسب، وأحاط كتفي بذراعه. قدمت له العلبة التي تحوي فطيرة ميرانغ الليمون، وعندما أدرك أنني صنعتها بنفسي، ظننت أنه على وشك البكاء. قال:

- متشردتي الصغيرة الضالة.

نظر حوله في المطبخ، الذي امتلأ بأصوات سعيدة، وقال:

- أتعلمين؟ هناك شيء يدعو إلى الإعجاب في كل شخص موجود هنا. كل شخص.

ضحكت، ونظرت حولي بحثًا عن أشخاص يمكنني التعرف عليهم كي أختبره.

- ميلودي؟

- الثقة، والإيمان بالنفس، وذوق ممتاز في القبعات.

- فيكتور، ذلك الذي من المقهى؟

- إنه يتسم بالصبر، وربلتا ساقيه رشيقتان، كما أنه بارع على نحو استثنائي فيما يتعلق بالمنطق. هل تعلمين أنه فاز بأكثر من خمسة آلاف جنيه في مسابقات السودوكو؟

قلت:

- لا.

كيف يمكنك اكتشاف ذلك في أثناء شراء القهوة والشاي وقطعتين من فطائر الموز؟ رأيت وجهًا مألوفًا آخر، لكنني أدرت رأسي بعيدًا قبل أن يتمكن من رؤيتي.

- روب؟

شهق آرتشي من بين أسنانه.

- كدت أمتنع عن دعوته، لأكون صادقًا. هناك شيء ما به لا يبدو صائبًا تمامًا، إلا أن آرتشي العجوز يفضِّل أن يرجح كفة اللطف. لكنه يتسم بالمثابرة.

قلت:

- لست متأكدة من أنني سأعد المثابرة صفة تستحق الإعجاب.

ثم أضفت قائلة:

- وماذا عني أنا؟

ضحك قائلًا:

- لا تتصيدي المجاملات، يا لافداي.

قلت:

- أنا لا أتصيد المجاملات.

وحقًّا لم أكن أفعل. فأنا أعمل بجد، لكنني أعلم أيضًا أنه من الصعب التعامل معي، ولا أعرف على الإطلاق كيف أسعدني الحظ بالحصول على وظيفتي والحفاظ عليها في هذا المجال الذي يتطلب التعامل مع عملاء.

اعتصر آرتشي ذراعي مرة أخرى، وقال:

- أنت ذكية، ولا تقدمين التنازلات، ويبدو أنك تعتقدين حقًّا أنك غير مرئية. كما أنك جميلة وتسرين الأنظار، إذا كان المرء يحب الفتيات الشاحبات المثيرات للاهتمام. لا عجب أن ساحرنا البارع مفتون.

لم أكن أعرف ما الذي ظننت أنه سيقوله، لكنني عجزت عن الحديث. ولحسن الحظ لم أكن في حاجة إلى الرد، حيث أنقذني وصول الضيوف التالين الذين حملوا معهم لعبة ضخمة محشوة على شكل قرد، وهم يصيحون قائلين شيئًا ما عن الوقت الطويل الذي انقضى منذ بورنيو، فانفجر آرتشي بالضحك عندما رآه. تركني وانطلق ليحييهم، لكن ليس قبل أن يقبِّلني على قمة رأسي ويقول:

- أحبي، يا لافداي. هذه هي نصيحتي لك.

* * *

ذهبت لأُحضِر مشروبًا. كان هناك بار في غرفة الطعام، وصارت في يدي كأس من الجيمليت قبل أن أتذكر حتى أنني طلبته. ثم ذهبت لأطل من النافذة وقد أدرت ظهري للغرفة، متمنية لو أنني حقًّا غير مرئية.

بعد الأمسية الشعرية في الأسبوع السابق، تناولنا أنا وناثان وفانيسا مشروبين آخرين، ثم ركبنا جميعًا سيارة فانيسا التي من طراز ميني كوبر، وأصر ناثان على حشر نفسه في المقعد الخلفي، الأمر الذي ربما لم يكن مضحكًا كما بدا في ذلك الوقت، لكن هذا هو تأثير الكحول. على الرغم من أنني أتذكر عند التفكير في الأمر الآن أن فانيسا تحولت إلى شرب الماء عقب تناول كأسها الأولى من الجين والتونيك، لذا ربما لم يكن الكحول فقط هو ما دفعنا إلى الضحك.

أوصلتني أولًا، ثم قادته إلى منزله. لم أطلب منه الدخول، ولم يأخذ هو الأمر بوصفه مسلَّمًا به، وهذه إحدى سماته اللطيفة حقًّا التي تثير أعصابي، لأنه إذا تعين عليك الشروع في كراهية شخص ما، أو على الأقل إخراجه من حياتك، فسيكون من المفيد أكثر أن يثير غضبك بين حين وحين. لم أرِده أن يصفعني، بالتأكيد، لكن القليل من عدم المراعاة البسيطة كان من شأنه أن يساعد في التعجيل بالأمور.

منذ الأمسية الشعرية وأنا أفكر كثيرًا في الطريقة التي دخل بها إلى حياتي. حسنًا، لتتحملي المسؤولية، يا لافداي: الطريقة التي سمحت له بها بالدخول إلى حياتي. أعتقد أنه تسلل تدريجيًّا، وإلا لما وصل الأمر إلى هذا الحد. في الليلة الأولى التي قضاها معي، ذهب إلى متجر «تيسكو» واشترى فرشاة أسنان وتركها في حمَّامي. كان الأمر مجرد واحدة من تلك التفاصيل: بالطبع أراد تنظيف أسنانه، وسيكون من الفظاظة التخلص من الفرشاة. وماذا عن شرائي الشوفان اللازم لصنع العصيدة، لأنه قال إنه دائمًا ما يُعد لنفسه العصيدة في الصباح عندما يكون في المنزل، حتى خلال الصيف؟ لا أستطيع أن ألوم أي شخص آخر على ذلك. كما أنه اشترى لي القهوة أكثر مما اشتريت أنا له، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى كونه يزورني وأنا في العمل، إلى جانب كونه يتصرف بلطف، لكن كان في إمكاني أن أعطيه المال، أو أطلب منه عدم القيام بذلك، ولم أفعل.

تركت ليلة واحدة أسبوعيًّا تتسلل لتصل إلى ليلتين وثلاث. وقد أخبرته أن والدي مات، وأنني أفتقد والدتي، كما قابلت شقيقته. لكن الأهم من ذلك كله هو الكيفية التي نتبادل بها النظر، وكيفية شعورنا.

إذا لم أتوخَّ الحذر، فسأتورط في الأمر بشدة. سأقع في حبه، ولم أستطع الاعتراف بذلك، لنفسي أو له. ربما تمتع آرتشي بطبيعة حياة كان الحب فيها هو القاعدة، لكن هذه لم تكن حياتي أنا. كنت أواجه خطر نسيان أن هذا الأمر مع ناثان لن ينتهي إلا بطريقة واحدة فقط، وهي ليست الطريقة التي سيقضي بها عطلات نهاية الأسبوع في بناء منزل على الشجرة لأطفالنا. سيتعين علينا تبادل الحديث.

لم يسبق أن انفصلت عن أي شخص قَطُّ، ما لم تُعد العودة إلى المنزل في منتصف الليل مرتديًا جوربيك طريقة ملتوية للغاية لتوضيح أنك لا ترى مستقبلًا لهذه العلاقة. هل من الخطأ الانفصال عن شخص ما في أثناء حفلة؟ كنت أكثر انشغالًا من أن أتعلم كل هذه القواعد خلال تلك الفترة من المراهقة التي يُفترض فيها أن يلم المرء بكل هذا الهراء. لكنني أعلم أنني سأضطر إلى القيام بذلك، وأن تأجيله لن يجعل الأمر أسهل، ولهذا فإن الليلة لا تختلف عن أي ليلة أخرى.

ذهبت للبحث عن ناثان، ووجدته فيما أعدُّه زاويتي الخاصة من المكتبة. أخبرته أنني سأكون هناك عندما ينتهي من كسر جمود الحفل من خلال تكسير الساعات، وسحب عملات الشوكولاتة من صدور النساء. والمكتبة عبارة عن غرفة طويلة وضيقة، اقتُطعت على الأرجح من غرفة أخرى في وقت ما، ولا تزيد على كونها مجرد ممر في الواقع، لكن هذا لم يمنع آرتشي من تركيب أرفف ممتدة من الأرض حتى السقف على كلا الجانبين. وهناك أريكة من طراز تشيسترفيلد تسَع فردين، وطاولة فوقها مصباح في طرف الغرفة البعيد عن الباب، وإذا لم يكن المصباح مضاء، يصير المرء غير مرئي تقريبًا، وهو أمر مفيد إذا كان هذا هو ما تريده، لكنه يصبح أقل فائدة إذا أردت القراءة. كانت أمسية دافئة، لذا كان معظم الناس في الخارج في الفناء. يسميها آرتشي «شرفة»، وعندما أقول «فناء»، فهو يصحح لي دائمًا، على الرغم من أنني لست متأكدة من أنني أعرف الفرق.

وصل ناثان إلى هناك قبلي، وكدت أجلس فوقه تقريبًا، حيث وجد الأريكة بالفعل. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف ما يجب أن أتحدث معه بشأنه، وأنه لن يعجبه، فإنني ضحكت عندما اكتشفته هناك. ضحك هو أيضًا، ثم أسكتني وسحبني إلى جانبه.

قال:

- أنا مختبئ هنا، حيث يريد الجميع معرفة كيف أؤدي تلك الحيلة بالبصلة، وهناك حدٌّ لعدد المرات التي يمكنك القول فيها إنك ستضطرين إلى قتلهم إذا أخبرتِهم، قبل أن تصبح النكتة مكررة.

قلت:

- هل تقصد ولا مرة على الإطلاق؟

فلكزني.

ثم نظر إليَّ بتمعن، ولمس فستاني، وقال:

- تبدين جميلة.

قلت:

- إنه مجرد فستان.

قال:

- لم أقل إن الفستان يبدو جميلًا، بل قلت إنك أنت تبدين كذلك. الفستان مجرد... إطار.

لم أقل شيئًا، فما الذي يمكنك قوله للرد على ذلك؟ كان خط عنق الفستان أوسع قليلًا وأكثر انخفاضًا من أي شيء أرتديه عادةً، لذلك ارتديت قلادة صغيرة على شكل دمعة اشتراها لي والدي في عيد الميلاد، وقالت والدتي إنني لا أزال صغيرة جدًّا بالنسبة إلى المجوهرات المخصصة للكبار، وكانت على حق، ولهذا وضعتها جانبًا ولم أرتدِها إلا مؤخرًا. أخرجتها مرة أخرى بعد أن طلب مني آرتشي التحلي بالشجاعة.

ظننت أن ناثان يدقق النظر إليها، وأخذت أقلب بين خياراتي («لا أعرف ممَّ

صُنعت؟»، «هدية من والدي؟»، «اشتريتها من متجر خيري؟»، «عثرت عليها داخل كتاب؟»)، لكنني أدركت حينها أن بداية أحد الوشوم الموجودة على ترقوتي ظاهرة، حيث انزلقت كتف فستاني بعيدًا، وهذا ما كان ينظر إليه ناثان.

وضع إصبعه عليه، وقال:

- «كان الكتاب سميكًا وأسود ومغطًى بالتراب»، ما زلت أفكر في هذا الاقتباس.

اتكأت عليه، فقبَّل أعلى رأسي.

امتلأ المنزل بهمهمات الناس، وبين حين وحين كان صوت آرتشي يرتفع فوق الضجيج العام، وهو يهدر بشيء ما، فتتعالى الضحكات وترتفع إلى مستوى نبرة صوته. ظل المكان الذي جلسنا فيه هادئًا، وأعجبتني السكينة بعيدًا عن الصخب، والظلام المنزوي بعيدًا عن ضوء شمس منتصف الصيف المحتضرة.

أحاط ناثان خصري بذراعيه، وأسندت مؤخرة رأسي إلى أعلى صدره. غمرني التعب فجأة، ولم أرغب في التحدث إلى أي شخص، ولم أرغب في الذهاب والضحك مع أشخاص لن أتمكن من مسايرتهم أبدًا في السُّكْر. شعرت بنفسي أتنهد. ربما لا تكون الليلة مناسبة لإخبار ناثان أنني لا أستطيع رؤية مستقبل لعلاقتنا، وأنني لست حبيبته.

قبَّل أعلى رأسي مرة أخرى، وقال:

- كنت أفكر في أننا يجب أن نذهب في إجازة.

- ماذا؟

لم يكن ذلك جيدًا. اعتدلت جالسة وحدقت إليه، متسائلة عمَّا يمكن أن أكون قد قلته أو فعلته لأجعله يعتقد أن هذه فكرة جيدة.

قال:

- أعتقد أن هذا يعني «لا»؟

استخدم نبرة صوته المغرورة، وفكرت أن هذا منصف بما فيه الكفاية، حيث يمكنني التعرف على الأساليب الدفاعية عندما أواجهها.

قلت:

- لماذا تعتقد...

أطلق ضحكة مصطنعة، وقال:

- حسنًا، هناك كل ذلك الوقت الذي قضيناه معًا، والأحاديث المتبادلة، والجنس، والطريقة التي تنظرين بها إليَّ عندما أدخل إلى المكتبة. وقد سمحت لي بالتدرب على القصائد معك، وتحمَّلتِ شقيقتي لأمسية. وأحيانًا ما ترسلين إليَّ رسائل نصية يزيد طولها على أربع كلمات، وتستجيبين لأربعين في المائة تقريبًا من الرسائل النصية التي أرسلها إليك. ربطتُ بين كل ذلك، وجعلني هذا أعتقد أنك ربما ترغبين في... لا أدري... ربما قضاء أسبوع معي.

فكرت في القول بأن حساباته خاطئة، لكنني قررت ألا أفعل. شيء آخر يعجبني في ناثان، هو أنه يمنحك الوقت للتفكير.

قلت:

- لم أذهب حتى إلى منزلك.

قال:

- لم أكن أقترح قضاء عطلة في منزلي.

قلت:

- أعني...

لكنني توقفت عن الحديث. كان يعرف ما أعنيه.

قال:

- ظننت أنك ستأتين إلى منزلي عندما تصبحين مستعدة. واعتقدت أنه إذا ذهبنا في عطلة، فقد يساعدك ذلك على...

- على ماذا؟

الغضب، العصبية، سمِّها ما شئت، فقد ثارت كلها، وأردت معرفة أي نوع من المساعدة تلك التي ظن أنني في حاجة إليها.

قال بهدوء:

- أن تثقي بي.

فتحت فمي وأغلقته مرة أخرى. شعرت بجسدي يرتخي، وكذلك ناثان، وجذبني بالقرب منه. وكنت أحاول التفكير فيما سأقوله، عندما شرع في الحديث، وصوته لا يزال هادئًا. شعرت كما لو أن كلماته، بدلًا من أن تنطلق في الهواء، تساقطت من حافة شفته السفلى، وسقطت في شعري، وانزلقت من على جانب رأسي إلى أذني.

قال:

- أنا لست غبيًّا، يا لافداي. أعلم أن هناك... شيئًا ما، ولا أعتقد أن له علاقة بي. ظننت... لم أقصد الضغط عليكِ. أنا آسف. يمكنني الانتظار.

كنت أعرف ما يتعين عليَّ قوله بعد ذلك. حسنًا، كنت أعرف الخلاصة. كانت هناك مجموعة من العبارات المتاحة للاختيار من بينها: «لا أعتقد أن هذا الأمر سينجح...»، «كنت أفكر، و...»، «أنت لطيف حقًّا، ولكن...»، «لقد قضيت وقتًا ممتعًا، لكن...»، «أشعر بأنني تورطت في الأمر أكثر مما يجب، لذا...»، «هذا ليس الوقت المناسب حقًّا بالنسبة إليَّ لبدء علاقة، و...»، «أنت إنسان رائع، لكن...»، «أعتقد أنني أفضل حالًا وحدي، لذا...»، «المشكلة لا تتعلق بك أنت، بل بي أنا...». (ربما عليَّ الحصول على هذا كوشم بعد ذلك، بعرض جبهتي مباشرة).

لم أقُل أي شيء من ذلك القبيل، بل قلت:

- شكرًا لك.

كانت تلك هي المشكلة مع ناثان. فعندما أكون بصحبته، أشعر بأن أي شيء ممكن. شعرت كما لو أنني إنسانة عادية، وكما لو أنه لا يوجد شيء لا يمكن التغلب عليه، وأن السعادة، والشعور بالسعادة الفعلية معظم الوقت أمران معقولان يمكن توقعهما. أصابني بالارتباك، وفي الوقت نفسه تساءلت عمَّا إذا كان قضاء مزيد من الوقت معه مؤلمًا. ليس إجازة بالطبع، لكن ربما أسبوع آخر من التصرف على نحو طبيعي.

وعندما أنهي الأمر - بافتراض أنه لم يسأم مني أولًا، وهو ما كان، بطريقة ما، سيناريو أحلامي - فلن ينتهي عالمه حينها. قد تتدنى معنوياته بعض الشيء، لكنه سيطل من نافذته بعد ذلك، وستكون هناك سيارة تخييم بالخارج، سيخرج منها جميع أصدقائه وقد جلبوا معهم مشواة وبعض البيرة، وسيشوي أحدهم النقانق العضوية، بينما يخرج أحدهم جيتاره، وستقطف فتاة ذات عظام وجنتين ناحلتين ومؤخرة لطيفة وردة، وتضعها خلف أذن ناثان، فيبتسم بحزن بعض الشيء، وسيعرف الجميع أن الأمر سيكون على ما يرام.

قلت:

- لا أعرف ما الذي تراه فيَّ. ما الفائدة التي تعود عليك أنت من هذا الأمر؟

قال:

- لافداي جينا كاردو، هل تتصيدين المجاملات؟

(أخبر كل منا الآخر باسمه الأوسط، ومن المخيب للآمال أن اسمه كان أندرو).

قلت:

- لا.

اتُّهمت بتصيد المجاملات مرتين في الليلة نفسها، وبدا الأمر غير عادل إلى حدٍّ ما، فأنا حريصة على عدم التحدث عن نفسي مطلقًا إذا استطعت تجنب ذلك. تابعت قائلة:

- أشعر بفضول حقيقي.

صمت لبعض الوقت، ثم قال:

- حسنًا، لا أعتقد أن هناك كلمة واحدة تكفي للتعبير عن ذلك. كل ما في الأمر هو... عندما أكون بصحبتك... أكون على طبيعتي. لا أشعر بأنني مضطر إلى التظاهر أو التباهي بأي شيء. أشعر بأنني أستطيع أن أثق بك. أنتِ تجعلينني... صالحًا... وتجعلينني حقيقيًّا.

قلت:

- يا إلهي.

لم يكن من الممكن أن تكون هناك مجاملة أكثر جمالًا لتجعلني أشعر بالضآلة وعدم الجدارة وعدم الاستحقاق، وبأنه لم يكن عليَّ الشروع في هذه العلاقة في المقام الأول.

قبَّلني كما يجب، وسمحت له بذلك، لأنني لم أستطع التفكير في أي شيء لأقوله، ولأن تقبيل ناثان أمر رائع. كنت أعرف أنه لن يكون هناك مزيد من القبلات على هذا النحو، لذا كنت أستمتع بها إلى أقصى حدٍّ.

بعد ذلك، قال:

- أنا منهك.

سألته:

- بسبب كل ذلك السحر؟

ضحك، لكنه قال بعد ذلك بهدوء:

- كنت أعاني من نوبات الهلع. وأحيانًا، في بعض الأماكن مثل هذه، يمكنني الشعور بها وهي تعاودني مجددًا، وأحتاج إلى أن... أستعد لمواجهتها، نوعًا ما.

أمسكت بيديه، وقلت:

- كنت أعاني منها، إنها فظيعة.

تذكرت المقعد الخلفي في سيارة الاختصاصي الاجتماعي عند اصطحابي لرؤية والدتي، وكيف كانت معدتي تتقلص وأنفاسي تتسارع، وكيف توقف الزمن، ولا تنفتح عيناي عندما آمرهما بذلك، وكيف أنه في وقت لاحق صار مجرد ذكر زيارة والدتي يثير رد الفعل نفسه. كنت في الخامسة عشرة تقريبًا، ودافعت أنابيل عني عندما لمَّح الاختصاصي الاجتماعي أنني أتظاهر بالأمر، لكن والدتي البديلة كانت أكثر حكمة من ذلك. تعلمت أن أتجنب الهجمات من خلال التنفس البطيء، وتخيل قرص التحكم في ذهني، أو ربما كانت حقيقة الأمر هي أن الجميع باتوا حذرين بشأن ذكر والدتي، وأخذوني على محمل الجد عندما قلت إنني لا أريد رؤيتها.

عاودتني الهجمات عندما كنت في السابعة عشرة من عمري. أخبرني الاختصاصي الاجتماعي أن والدتي قد أُطلق سراحها من السجن، وكانت نوبة الهلع شديدة للغاية، إلى درجة أنه اتصل بسيارة إسعاف. بعد ذلك، جعلتُ أنابيل تعدني بألا يحاول أحد إجباري على رؤية والدتي، وأنها لن تسمح لها بالحضور. وعدتني أنابيل، وأخبرتني أن والدتي لا تعرف مكان إقامتي، مما كان صحيحًا بالطبع، على الرغم من أنني لم أفكر قَطُّ في حقيقة أن رسائلها دائمًا ما أتت باسمي مكتوبًا بخط يدها، بينما كتب شخص آخر العنوان. لذا كنت في مأمن من والدتي. وعلى الرغم من ذلك، ففي أثناء الليل، وخلال السير إلى المدرسة ذهابًا وعودة، وفي فترات ما بعد الظهيرة التي بدت كأنها بلا نهاية في أيام السبت، حاولت العثور على طريقة تجعلني أرغب في رؤيتها، لكنني لم أتمكن من ذلك. لم أستطع اتخاذ تلك الخطوة. شعرت بالخوف الشديد من أن... حسنًا، أن يتغير شيء ما. سطرت في ذهني نسختي الخاصة من الأحداث، ورويت حكايتي. لكن الصفح عن والدتي سيجعل الأمر مختلفًا، وصعبًا وغير آمن. سأضطر إلى إعادة الكتابة وإعادة التفكير، وسيتعين عليَّ محو ذاتي وكتابة ذات جديدة، وقد فعلت ذلك مرة من قبل، لذا أعلم مدى الألم الذي سيسببه ذلك. من الأفضل أن أظل أيًّا كان ما أصبحت عليه، ومن الأفضل أن أبقى في مكان أعرف أين تقع حدوده.

ومن المؤكد أن ناثان لم يكن في حاجة إلى معرفة كل هذا. لذا تركته يتحدث، وسألته:

- متى؟

شعرت به يتنهد، وقال:

- منذ عدة سنوات، قدمت عرضًا سحريًّا في مكان يقع فوق إحدى الحانات - عرضًا صغيرًا، استمر أسبوعًا فحسب - لكنه حظي بتقييمات جيدة، وطُلب مني القيام بجولة، كعرض مرافق لممثل كوميدي. لذلك انتقلت من الأداء أمام خمسة وعشرين شخصًا في الحانة إلى الأداء أمام سبعمائة شخص في المسرح. كان حلمًا تحقق، حقًّا، فهذا هو ما يريده كل شخص

يقدم عرضًا في غرفة تقع فوق حانة: مستكشف مواهب، أو مدير أعمال، أو شخص يتمتع ببعض النفوذ، يذكر اسمك لشخص يختارك من بين الآخرين الراغبين في الشهرة، و...

هز رأسه، وتابع قائلًا:

- لم أستطع القيام بذلك فحسب. أُصبت برهاب المسرح، وارتعشت يداي وأسقطت الأشياء. وذات ليلة، تعرضت لنوبة هلع تامة على المسرح. نظرت إلى الجمهور ولم أعرف كيف أبدأ. أغمضت عينَي، ولم أتمكن من فتحهما. بدا رأسي... خاويًا، ولم أكن قادرًا حتى على ذكر اسمي. وطوال الوقت تسارعت أنفاسي بشدة، إلى درجة أنني تصبَّبت عرقًا من الجهد، واضطر أحد أفراد طاقم العمل بالمسرح إلى أن يأتي ويقودني من يدي.

قلت:

- هذا فظيع.

وكنت أعني ذلك. تذكرت ما قاله آرتشي، في المرة الأولى التي دخل فيها ناثان إلى المكتبة، وكيف أنه كان «شابًّا واعدًا».

- بدأت التركيز على ألعاب السحر عن قرب، لأن الجمهور حينها يقتصر على خمسة أو ستة أشخاص.

قلت:

- يبدو هذا منطقيًّا.

عليك أن تصنع العالم الذي يلائمك. ربما كانت هناك قواسم مشتركة بيني وبين ناثان أكثر مما ظننت.

جلسنا في هدوء دقيقة أو دقيقتين، ثم شرع يتحرك.

قال:

- يوجد طعام في المطبخ، دعيني أذهب لأجلب بعضًا منه لكلينا. انتظريني، يا فتاة ريبون.

قلت:

- سأفعل، ما دام هناك جُبْن.

سيكون من الفظاظة الانفصال عن شخص خلال حفلة.

نهض ناثان من فوق الأريكة، وراقبته وهو يبتعد. تساءلت عمَّا إذا كان عليَّ أن أشعل الضوء وأقرأ كتابًا، لكنني علمت أنني قانعة بالجلوس والانتظار فحسب، فرفعت قدمَي.

سمعت ناثان يقول وهو يغادر الغرفة:

- أوه، معذرة.

جاء الرد:

- لا عليك.

بدا الصوت مألوفًا، وصاحبه يشق طريقه عبر الغرفة نحوي. استغرق مني الأمر لحظة للتعرف عليه.

أوه، رائع، كان روب.

قال:

- لافداي.

قلت:

- مرحبًا، يا روب. لم أدرك أنك قادم، حتى رأيتك في المطبخ.

قال:

- حسنًا، أنا صديق لآرتشي. كما كنت صديقًا لكِ أيضًا، لكن يبدو أنه لم يعُد لديكِ كثير من الوقت من أجلي.

قلت:

- لا تكن أحمق، يا روب.

لم أكترث حقًّا. قد يبدو من المغري اختلاق الأعذار لروب، نظرًا إلى كونه يعاني من الاضطراب ثنائي القطب، لكن في الواقع، من المحتمل أنه يتصرف على هذا النحو لأنه أحمق فحسب. أعتقد أن معاملة روب بالطريقة التي سأعامل بها أي شخص صفعني هو أمر ملائم أكثر من التماس الأعذار.

قال:

- أفسحي لي مكانًا.

كان صندلي على الأرض، وساقاي على الأريكة، بحيث شغلت كل المساحة.

قلت:

- لا أعتقد أنني سأفعل، إذا لم يكن لديك مانع.

وقف فوقي، وظننت أنه ينظر إلى صدري، لكنني كنت مخطئة.

قال وهو ينظر إلى قلادتي:

- حجر ليجنيت من ويتبي؟

تأخرت جدًّا في الرد، ونطقت بأسرع مما ينبغي، قائلة:

- لا أدري.

ثم وضع إصبعه على كتفي، قرب أسفل حلقي، عند طرف الكلمات الموشومة هناك. قاومت الرغبة في دفع يده بعيدًا، وشعرت بالخوف. لم أرغب في ذلك، لكن هذا هو ما أحسست به.

قال:

- رواية «التملك». «كان الكتاب سميكًا وأسود ومغطًّى بالتراب». لم أركِ ترتدين أي مجوهرات أخرى سوى تلك القلادة، كما أن رواية «التملك» لها علاقة كبيرة بويتبي. قد يعتقد البعض أن ذلك المكان ذو أهمية بالنسبة إليكِ.

قلت:

- حقًّا؟

صار جزء مني على استعداد للإصابة بالهلع، لكنني ذكَّرت نفسي أن الربط بين الأمور لا يمثِّل بالنسبة إلى روب أكثر من مجرد تمرين أكاديمي، لا أكثر. يمكنني أن أهدأ. أو يمكنني المحاولة على الأقل.

- أتساءل، كم وشمًا لديكِ الآن؟

ابتسم نصف ابتسامة، وأردت أن أسحب قدمَي تحتي وأنكمش، لكن في الوقت

نفسه لم أرِد أن أُظهِر له أنني لا أشعر بالارتياح، وعلى أي حال، إذا أفسحت مكانًا، فسيعده دعوة إلى الجلوس، وسينظر إلى الأمر بوصفه لينًا من جانبي.

قلت:

- روب، أنا في انتظار شخص ما.

تكورت يده في هيئة قبضة بجانبه، ولا أعتقد أنه فعل ذلك عن وعي، لكن ذلك دفعني إلى التساؤل عن دورة مرضه، وما إذا كان يتناول أدويته. لم أستطع السؤال.

قلت:

- أنت وميلودي تشكلان ثنائيًّا لطيفًا.

تمنيت أن يشكل ذلك موضوعًا آمنًا للحديث، أي ليس عني أنا.

قال:

- إنها ليست من النوع الذي أفضِّله في الواقع.

تراجعت عن طرح السؤال البديهي، لأنني ظننت أنه تعمَّد أن يجعله يبدو بديهيًّا بالنسبة إليَّ. فإذا سألته لماذا، فسيقول لأنك أنت النوع الذي أفضِّله. وإذا سألته لماذا تواعدها إذن، فسيقول أرأيتِ؟ ما زلت تهتمين بي بالفعل. كنت أعرف أن روب ليس معجبًا بي حقًّا، بل أراد أن يحرز بضع نقاط للفوز فحسب.

قلت وأنا أحاول التخفيف من الأمر:

- لا أعتقد أنني من النوع الذي تفضِّله أيضًا.

- أو أنني لست من النوع الذي تفضِّلينه. يبدو أنك تفضلينهم...

شعرت بالرغبة في إكمال الجملة نيابة عنه. أكثر جاذبية؟ غير أكاديميين؟ أقل إثارة للخوف؟ لا يوجهون الصفعات؟

قال:

- من النوع الشاعري.

هزرت كتفي، وقلت لنفسي: لا تتفاعلي معه.

قلت:

- حسنًا، من الجيد أننا قلبنا الصفحة. أريدك أن تكون سعيدًا.

وكنت أريد ذلك بالفعل، على نحو لا يتطلب مني لعب أي دور، ومن الأفضل أن يكون ذلك بعيدًا تمامًا عني وعن مكتبة الكلمات المفقودة.

فكرت أنه لا يمكن أن يتأخر ناثان أكثر من ذلك بكثير، ثم تذكرت كم يبدو مميزًا وهو يرتدي زي الساحر، وكيف سيوقفه الجميع ويطلبون منه أن يعرض عليهم خدعة أو أخرى مجددًا، وكيف أنه لن ينسى أمري، لكنه لا يتحمل التصرف بوقاحة مع أي شخص أيضًا.

وعندها، تغير تعبير وجه روب.

ابتسم، لكنها كانت ابتسامة غريبة، ولو كان في كتاب، لجاءت تلك الابتسامة عند نهاية أحد الفصول، مع ذكر أنيابه. وجدت نفسي أحبس أنفاسي.

قال:

- أعتقد أن الأمر أصعب بالنسبة إلى من هن مثلك، ولهن مثل ماضيك.

- ماذا تقصد؟

وعندما قلت ذلك، سمعت كيف بدا صوتي حادًّا، وشرعت بالفعل أقول لنفسي: توقفي. هو الذي يتصيد الآن، في حفلة صيد آرتشي المزعجة هذه. إنه يحاول استفزازك، وقد منحته ما يريده للتو.

لكن تبين أنه لم يكن عليَّ الشعور بالقلق، حيث كان يعرف بالفعل.

قال:

- أقصد أنني أعرف كل شيء عنك، يا لافداي. كنت أعاني من الأرق، وشرعت أتساءل عنك ذات ليلة. ربطت بين المعلومات التي أعرفها، والتي لم تكن كثيرة - بدا الأمر كما لو أنك تحاولين إخفاء الأسرار - لكن محركات البحث شيء رائع، يا لافداي. كاردو، وويتبي، هذا هو كل ما تحتاجين إليه حقًّا.

قلت:

- روب...

لم أعرف ما الذي سأقوله بعد ذلك، لكن ذلك لم يهم، لأنه واصل الحديث.

- يمكنني أن أفهم لماذا أنت... مشوهة إلى حدٍّ ما. لا بد أن كل ما مررتِ به

مع والدَيك... حسنًا، مع والدتك فقط، على ما أعتقد، ومع نظام الرعاية البديلة. كل ذلك يشوه الناس بالفعل. هل تعلمين أن الأطفال الذين من خلفيتك نفسها هم أكثر عرضة...

رفع أصابعه، ليعد قائمة الإخفاقات المحتمَلة، وتابع قائلًا:

- للحمل غير المخطط له، أو لأن يصبحوا مدمني مخدرات، أو لأن ينتهي بهم المطاف في السجن؟

أخذت أرتجف، بفعل الخوف أو الغضب أو كليهما، وبسبب انكشاف أمري. تمكنت من القول:

- هل تعلم أن الأطفال الذين من خلفية تشبه خلفيتي أكثر عرضة لأن يسعوا خلف علاقات تنطوي على العنف؟

لكن الكلمات تطايرت في الهواء، ولم تعِش طويلًا، ولا أعرف ما إذا سمعها روب حتى. تبادلنا النظر إلى بعضنا.

ثم خطرت لي فكرة واحدة بوضوح، وقلت:

- الكتب، هل أنت من أرسلها؟

كان جسدي ثابتًا في مكانه، ولا أعتقد أنني كنت سأستطيع التحرك حتى لو اشتعلت الأريكة بالنيران، لكن ذهني أخذ يدور حول فكرة جديدة. ماذا لو حصل روب على الكتب؟ سبق أن طردت تلك الفكرة من ذهني، لكنني لم أكن أعرف أنه يعلم حكايتي. وبالإضافة إلى ذلك، ألا يُعَد إرسال تلك الكتب إليَّ كي يخيفني، مجرد امتداد طبيعي لما جعله يُخفي حذائي، أو يضع الورد في صندوق البريد، أو حتى يهددني في ركن مظلم خلال حفلة، بينما ذهب حبيبي للبحث عن بعض الطعام؟

هل يمكن أن يكون قد حصل بطريقة أو بأخرى على الكتب؟ إذا كان يعرف من أكون، فهو يعرف من تكون والدتي، ولا أعتقد أنه سيكون من الصعب العثور عليها. جزء من السبب الذي جعلني لا أجرؤ على البحث عنها هو أنني كنت أعلم أنها ستجعل العثور عليها سهلًا على فيسبوك وفي دليل الهاتف. كل

ما كان على روب أن يفعله هو التظاهر بأنه صديق قديم لديه حكاية مؤثرة، أو محاضر جامعي يريد التواصل بخصوص فرصة عمل، وكانت والدتي سترحب به بذراعين مفتوحتين، وتدعه يأخذ أي شيء يريده. كيف تصرفتُ بمثل هذا الغباء؟ كنت أعرف أن روب بارد ومتلاعب، وأعرف أنه يمكن أن يحمل ضغينة. لم أدعه يرى أنه يزعجني، ببوره وملاحقته، لذا فإن كل ما فعلته هو إلهامه للعثور على طريقة أكثر تطرفًا تجعلني أشعر بعدم الارتياح. شعرت بمدى برودة أناملي، وبالقشعريرة تنتشر عبر ترقوتي.

كان هناك صوت لا علاقة له بالحفل، صادر من مكان قريب، والتفت روب ليرى من القادم.

سألني بصوت نصف هامس، بدا مخيفًا أكثر من الصياح:

- هل يعرف حبيبك؟

قلت:

- لا، لا يعرف.

- حسنًا، أعتقد أن السؤال الوحيد إذن هو هل ستخبرينه، أم ستنتظرين حتى أخبره أنا؟ لا أحد يحب الشخص الكاذب، يا لافداي. وحتى الأشخاص الذين يمكنهم التعامل مع خلفيتك لن يتقبلوا حقيقة أنك كذبت، وواصلت الكذب بذلك الشأن طوال أشهر.

ومن دون الانتظار حتى يرى رد فعلي، أخذ ابتسامته المتكلفة، و(على ما أعتقد) عضوه المنتصب بفعل الإثارة، واستدار ومشى مبتعدًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجريمة

١٩٩٩

انكسار

صنعت الأضواء الوامضة أشكالًا في السماء، ورأيت سيارتَي شرطة وسيارة إسعاف على الأقل خارج منزلنا عندما أعادتني والدة إيما إلى المنزل في ذلك المساء. توقفنا عند نهاية الطريق، نطالع المشهد.

حلَّ الظلام، على الرغم من أن الوقت لم يكن متأخرًا. كانت ليلة الأحد، ولدينا مدرسة في اليوم التالي، فاتفقت والدتانا على أن أعود إلى المنزل بحلول الساعة الثامنة، وقد أضافت والدتي شرطًا بأن أذهب مباشرة إلى الفراش بمجرد وصولي، لذلك كنت قلقة بشأن عدم العودة في الموعد المحدد.

لم أستطع معرفة ما يحدث. أزعجت الأضواء عينَي، وأضاءت وجوه الجيران فبدوا كالأشباح. لم يسبق أن رأيت سيارة إسعاف عن قرب إلى هذا الحد.

كانت مقدمة سيارة الإسعاف تواجه أعلى الطريق، لذا لم يكن هناك مجال لرؤية مَن بالداخل. ما زلت أتخيل والدتي جالسة على الدرج، مغطاة ببطانية، تبكي وهي شاحبة، كما يظهر الناس على شاشة التلفزيون. ويجب أن أذكِّر نفسي أن هذا خيال، وليس حقيقة.

وكان من الممكن أن يكون الواقع أسوأ بالطبع. كان من الممكن أن تصرخ، وربما كانت هناك دماء على وجهها، وشعرها، ويديها، دمه، ودمها. أو كان من الممكن أن تبدو هادئة، وكان من الممكن أن تبتسم. لست متأكدة أي صورة لوالدتي أريدها على درجات سيارة الإسعاف تلك. رأيتها بعد ذلك

في حالات عديدة، ولم أعد أن أيًّا من تلك الحالات هي «أمي» بالفعل: ثقيلة اللسان بفعل الدواء، وكثيرة الحركة بفعل توتر الأعصاب، وصافية الذهن لكنها مضطربة بفعل مشاعر الحب والندم. كلها صور مختلفة، ولم تكن أي منها هي الأم التي خبزت وضحكت وجعلتني أصدق أنني الشيء الوحيد الذي يهمها حقًّا.

لا بد أنه كان هناك طوق من الشرطة، أو شيء من هذا القبيل، أو ربما توقفت والدة إيما فحسب عند رؤية ما هو غير متوقع. على أي حال، أتى شرطي على الفور تقريبًا، وسمعت توضيح والدة إيما، واسم والدَي ورقم منزلي. بعد ذلك، أحكمت قبضتها بشدة حول يدي، كما لو أنها تقلصت، وقالت:

- نعم، بالطبع، سأنتظر.

وهنا انتهت حياتي الطبيعية.

جاءت شرطية لتنضم إلينا، وتحدثت إلى والدة إيما على عجل بصوت شبه هامس، لذا كان كل ما تمكنت من سماعه هو هسيس فحسب. بعدها على الفور، عدنا عبر الطريق، وقالت السيدة ميدلاند بصوت غريب، كما لو أن الريح حملت كلماتها بعيدًا، على الرغم من عدم وجود ريح:

- سنعود إلى المنزل يا عزيزتي، وبعد ذلك ستأتي الشرطية لرؤيتنا.

قلت:

- ليست لديَّ بيجامة.

قالت والدة إيما:

- لا تقلقي بشأن ذلك.

وانفجرتْ في البكاء. لذا قدتها أنا إلى المنزل وطرقتُ الباب، ونظر زوجها إليها هي عندما فتحه.

قال:

- ماذا حدث؟

ونقل نظرته منها إليَّ، قبل أن يعاود النظر إليها مجددًا. ومن النظرة الحادة

المتسمة بالجدية التي بدت عليه، كان من الصعب تذكُّر أن لديه أظفارًا وردية في إحدى قدميه، وصفراء في القدم الأخرى، حيث سمح لنا أنا وإيما بطلائها.

أجهشتْ بالبكاء بشدة أكبر، وقالت:

- لا أدري، تحديدًا...

وأتذكر أنني فكرت، كم هو من السخيف أن تبكي وتبكي على هذا النحو، من دون معرفة السبب. أعتقد أن الشرطية أخبرتها بخلاصة الموضوع، ولا أعرف ماذا قالت تحديدًا. وعندما أفكر في الأمر، أعتقد أنها علمت أن شخصًا ما قد مات، أو يحتضر، وظنت أنها والدتي على الأرجح. حسنًا، كان من الطبيعي أن تفعل ذلك، حيث إن ناتج جمع اثنين واثنين يساوي أربعة في معظم الأحيان.

غذَّوني بالتفاصيل مثلما يُغذَّى مريض في العصر الفيكتوري بالخبز المنقوع في الحليب[1]، شيئًا فشيئًا، بلطف وهدوء، كأن ذلك سيحدث فرقًا.

تقاسمت شرطية، واختصاصية اجتماعية، والسيدة ميدلاند مهمة إبلاغي بموت والدي. كانت إيما في المدرسة، وأعتقد أن ذلك كان في اليوم التالي. شعرت بالاستياء لأنه لم يُسمح لي بالذهاب إلى المدرسة، ولأنني لم أتمكن من العودة إلى المنزل أيضًا. أمسكت والدة إيما بيدي، وأطلقوا عليه اسم «أبيك». لم أدعُه «بابا» قَطُّ - كان «والدي»، ولطالما كان كذلك - لذلك استغرق الأمر لحظة لإدراك ما يقلنه. شعرت كما لو كنت أحاول تناول الطعام، بينما أمسكت بالسكين والشوكة على نحو خاطئ.

أعتقد أنني أومأت برأسي، وسألت:

- أين والدتي؟

قالت الشرطية:

---

(١) في العصر الفيكتوري، كان يُقدم للمرضى طعام بسيط وسهل الهضم، مثل الخبز المنقوع في الحليب. وكان يُعتقد أن هذا النوع من الغذاء يساعد المرضى على الشفاء لأنه خفيف على المعدة ويسهل هضمه. (المترجمة).

- نتولى العناية بها، ولا يمكنها العودة إلى المنزل بعد، حتى ننتهي من تسوية كل شيء. لكن على الرغم من ذلك فهي بخير، ولم تتعرض للأذى.

فكرت في أمر المال، والسجائر، والبيرة. ربما خاض شجارًا آخر، مثلما فعل على منصة النفط عندما فقد عمله. سألت:

- هل ضربه أحدهم؟

مات، كما تموت شخصية في أحد الكتب. شعرت بالحزن، لكن في الوقت نفسه كنت متأكدة من أن الأمر ليس حقيقيًّا. لم أدرك أنني لا أستطيع إغلاق الكتاب، والعودة إلى الحياة كما كانت من قبل.

سألتني الاختصاصية الاجتماعية:

- لماذا تسألين ذلك السؤال، يا لافداي؟ من الذي تعتقدين أنه قد يكون ضرب أباك؟

كانت تتحدث إليَّ، لكنها وجهت نظرها نحو الشرطية.

قلت:

- لا أدري.

أردت والدتي بشدة، إلى درجة أن الألم التهمني من الداخل تمامًا، وتابعت قائلة:

- متى يمكنني العودة إلى المنزل؟

* * *

لا أتذكر كثيرًا من تلك الفترة، كما لو أنني ذهبت إلى النوم في اليوم التالي لوقوع الحادث وعندما استيقظت في العام التالي كنت في منزل والدتي البديلة، أنابيل، الذي ظللت فيه مدة طويلة. لكن ما أتذكره يشبه تلك اللحظات في الليل، عند الاستيقاظ من كابوس، أو عند بداية الإصابة بالإنفلونزا، عندما تصحو دقيقة أو دقيقتين، بينما بقايا الحلم في ذهنك تبدو واقعية للغاية.

أتذكر عودة إحدى الاختصاصيات الاجتماعيات إلى منزل إيما. كانت نحيلة، وتضع عطرًا قويًّا برائحة الياسمين. وحتى اليوم، تعيدني رائحة الياسمين إلى ذلك

المنزل، وإلى صوت التلفزيون المفتوح كي يشوش المحادثة التي يجريها الكبار عند الباب، والسيدة ميدلاند تقول:

- مهما طال الأمر.

وعندما أتذكر ذلك أشعر بوخز من الأمل، إلى جانب رائحة الياسمين، لأنني ظننت أنهم يتحدثون عن بقائي هناك حتى تعود والدتي إلى المنزل. لكن عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، أرى أنهم كانوا يتحدثون عن بقائي هناك حتى يجدوا لي مكانًا في النظام.

أتذكر أنني اصطُحبت إلى زيارة والدتي عندما كانت رهن الحبس الاحتياطي، وشعرت بالخوف منها، حيث بدا مظهرها سيئًا، وكانت رائحتها مختلفة، وأخذت تبكي. بدا وجهها متورمًا بفعل الأدوية أو الدموع أو كليهما معًا. مدت ذراعيها عندما رأتني، وعندما لم أتوجه إليهما مباشرة خفضت رأسها بين كفيها، وقالت «لا» بصوت هامس، ومدت أحرف الكلمة.

أذكر أن عمتي جاني أتت للزيارة، وأذكر همهمتها ونبرة صوتها التي من كورنوال. بدا ذلك اليوم أشبه بعطلة، وكان تغييرًا مبهجًا من كآبة وبؤس مشاعر افتقادي لوالدَي، وإجراء مقابلات مع أشخاص يحاولون إخفاء مدى أهمية المحادثة. رافقتها لأريها أرجاء ويتبي، فنظرتْ إلى نوافذ المتاجر عند الشاطئ، وعدَّت معي درجات السُّلم، وتناولنا الشاي بعد الظهيرة، ولعقت الكريمة من إصبعها وقالت إن وزنها سيزداد، لكنها لا تكترث كثيرًا. وعندما التقينا بالاختصاصية الاجتماعية الطويلة مرة أخرى في منزل إيما، سمعتُ واحدة أخرى من تلك المحادثات التي لم أفهمها إلا بعد فترة طويلة: أخذت عمتي جاني تبكي وهي تقول «لا أعتقد أنني أستطيع ذلك»، بينما الاختصاصية الاجتماعية تحاول تهدئتها. أفترض الآن أن سبب وجودها هو كي ترى ما إذا كانت ستأخذني، ومن الواضح أن الجواب كان لا. لا ألومها، وأعني بذلك أنني ألومها بالفعل. كنت في العاشرة من العمر، ولم يكن لديَّ أحد، كما أنني لم أقتل أحدًا. ماذا يهم في الأمر لو أنها هي ووالدي لم يكونا على اتصال بدرجة كبيرة منذ ترك المدرسة

وانضم إلى الجيش؟ ومن عساه يهتم بما إذا كنت أذكِّرها بوالدي، أو أشبه والدتي، أو أيًّا كان ما قالته للاختصاصية الاجتماعية؟ وماذا يهم لو أن انضمام طفلة في العاشرة من العمر إليها فجأة لم يكن جزءًا من خطة حياتها؟ فليس الأمر كما لو أنني أيضًا كنت لا أزال على المسار الذي اخترته لحياتي أولًا.

لا أتذكر أي جنازة، واكتشفت لاحقًا أنه دُفن في كورنوال. لم أذهب، ولا أعرف لماذا. لا أتذكر أن أحدًا سألني إذا كنت أرغب في الذهاب. لا أعرف بما كنت سأجيب، لكنني الآن سأقول: مات من مات، ولا أهمية للأمر.

أذكر أول ليلة لي في منزل الرعاية البديلة المؤقت. كنت في غرفة بها أسِرَّة بطابقين، وتسللت الفتاة الصغيرة التي كانت تنام في الطابق العلوي إلى فراشي في منتصف الليل. تصلب جسدي كلوحٍ خشبي وهي تحاول احتضاني، حتى فهمَت الرسالة في النهاية، وصعدَت السلم مرة أخرى، وظلت تبكي حتى حان وقت الاستيقاظ.

أتذكر وقوفي في غرفتي في منزل أنابيل للمرة الأولى، وهي تقول بلطف وهدوء إنها اتفقت مع موظفي الخدمات الاجتماعية على ألا تتولى رعاية أي طفل آخر طوال مدة بقائي معها. كانت الغرفة أكبر من غرفتي في المنزل، مما بدا خطأ. كان هناك فراش، ومكتب أسفل نافذة زجاجية مزدوجة تحاكي الطراز الجورجي، ولوحة ملاحظات اصطفت أعلاها دبابيس الرسم في خط، وسجادة زرقاء على الأرض، وفاحت من الجدران رائحة الطلاء الجديد بلونه الأخضر الفاتح. قالت أنابيل إنه يجب ألا أجلب الطعام إلى الطابق العلوي، لكن فيما عدا ذلك في إمكاني أن أفعل ما أريد في غرفتي، وما دامت تراني في أوقات الوجبات، فلن تزعجني. أعتقد أنها ظنت أنه بمرور الوقت، سأصبح اجتماعية أكثر، وأشاهد التلفزيون معها وأتحدث معها عن والدَي.

عندما أفكر فيما مضى، أدرك مدى دقة اختيارهم لها. كانت تعيش وحدها، حيث تُوفي زوجها، لذا لم يتكرر الوضع العائلي الذي أتيت منه. كان لديها ثلاثة أبناء، وقد غادروا جميعًا المنزل. لا بد أنها كانت في الخمسينيات من عمرها

عندما انتقلتُ للعيش معها. وقد عملت كأم بديلة للأطفال لسنوات، ووفرت لهم الرعاية قصيرة الأمد عندما كان أبناؤها صغارًا، ومع مرور الوقت، تزايدت درجة تعقيد حالات الأطفال الذين تعاملت معهم. أخبرتني الاختصاصية الاجتماعية بكل ذلك خلال الطريق في السيارة، وهي تحاول أن تجعل الأمر يبدو كأنني فزت بجائزة. وأعتقد - أظن - أن الأمر كان كذلك. لم يكن هناك طفل آخر لأتعامل معه. كما كانت أنابيل صبورة ولطيفة، وكلاهما أمران لم تلقَ حسن الجزاء مقابلهما. كانت تعمل في نَسخ النصوص لوكالة ما، فكانت تنقر على لوحة مفاتيحها في المساء، بعد أن أصعد إلى الطابق العلوي. دائمًا ما كانت موجودة عقب عودتي من المدرسة، لتعد كوبًا من الشاي وتطرح الأسئلة التي تجاهلتها غالبًا، أو كانت تجلس بهدوء وتستمع إذا كان لديَّ ما أقوله. لكن نادرًا ما كان لديَّ شيء لأقوله. كنا نستمع إلى الراديو ونشرب الشاي، ثم أذهب إلى حل واجباتي المدرسية، وعندما أُدعى إلى تناول العشاء، كنت أنزل إلى الطابق السفلي لنتناول الطعام معًا. كان غسيل الصحون مهمتي، وبعد ذلك أعود إلى غرفتي مرة أخرى.

خلال الأشهر الثمانية التي قضيتها في منزل إلسبيث، تفتحت عيناي على كل أشكال الضرر التي يمكن أن تصيبني. يمكنني أن أفشل في كل شيء، أو يمكنني الشعور بالغضب حيال كل شخص وكل شيء. يمكنني أن أُشعل النار في الأريكة، وأن أتوقف عن الاغتسال، ويمكنني تناول الطعام حتى أصاب بالسمنة، أو التقيؤ حتى أصير نحيلة تمامًا. لكن كان هناك شيء واحد واضح: لا يمكنني العودة لأصير إل جيه كما كنت من قبل؛ أشارك في المسرحيات المدرسية، وأنا على يقين من كوني محبوبة. ذهبت إلى منزل أنابيل بعد صدور الحكم مباشرة، ولم تصرح المحكمة باسمي للصحف، وقد اختلقوا لي ببراعة حكاية قريبة بما يكفي من الحقيقة لتكون ذات مصداقية، من شأنها أن تؤمِّن لي «بداية جديدة». وفي حال ما إذا كنتَ تتساءل، فإن «البداية الجديدة» هي العبارة الرمزية التي يستخدمها الاختصاصيون الاجتماعيون للإشارة إلى حقيقة أن «حياتك قد فسدت الآن، لكن

على الأقل يمكننا أن نفعل شيئًا حيال همز الناس ولمزهم». إذا سألني أحدهم، كل ما كان عليَّ قوله هو أن والدتي لم تكن على ما يرام، وأن والدي مات، ولهذا السبب أتيت للإقامة مع أنابيل. بذلت جهدي كي لا يسألني أحد عن شيء، حيث ظللت متجهمة في طريقي بين المنزل والمدرسة والمكتبة. وقد تعرضت للتنمر بالطبع، إذ كنت طالبة جديدة أبدو مثل كلب مذعور على استعداد للعض على نحو يُرضي مهاجميه إذا وُخز بعصا. لكن الأمر كان مقدورًا عليه. حسنًا، تمكنت من تدبر أمري. حبست نفسي في غرفتي في غير وقت تناول الطعام، وانشغلت بالقراءة وكتابة القصائد، وحسدت الآخرين الذين لم يكونوا مثلي، ولا سيما أولئك الذين كانوا في نادي المسرح.

* * *

وبينما كنت أعاني خلال تلك الأشهر الأولى، عانت والدتي أيضًا. تولَّت إلسبيث، والاختصاصية الاجتماعية النحيلة التي كان اسمها شانيس، إبلاغي بالحقائق بحرص، على نحو عُدَّ ملائمًا لطفلة في العاشرة من عمرها. وطيلة باقي ذلك العام الدراسي، قبل أن أنتقل للإقامة في مكان آخر، التقطت التفاصيل بإسهاب من الأطفال القساة: «يقول والدي إن والدتك تستحق الحبس، وإلقاء المفتاح بعيدًا»، إلى جانب بعض الأخبار الأكثر لطفًا من ماتيلدا وإيما. وعندما انتقلت للعيش مع أنابيل وذهبت إلى مدرسة جديدة، لم يعد هناك مَن يُلقي في طريقي بالمعلومات، لكن كانت لديَّ أجهزة كمبيوتر في مكتبة المدرسة خلال استراحة الغداء، لذا اكتشفت كل ما أردته، من دون الحاجة إلى مطالعة وجه شخص بادي القلق بينما أستوعب الأخبار. وهذا لأنه لم يعُد هناك من يهتم بأمري حقًّا الآن، سوى الأشخاص الذين يتلقَّون المال مقابل ذلك، ولم أرغب في هذا النوع من الاهتمام.

الشعر

٢٠١٦

ليس سحرًا

رتبت للقاء ناثان في حانة جورج والتنين، في المساء التالي لحفلة آرتشي. أسرعت بالرحيل بمجرد أن غادر روب المكتبة، وأرسلت إلى ناثان رسالة نصية لأخبره أنني لست على ما يرام، ثم عدت إلى المنزل. أغلقت خلفي باب الشقة بالمفتاح، وخلعت الفستان، ودخلت تحت اللحاف بملابسي الداخلية، وبكيت حتى طَرق جاري على الحائط. بعد ذلك، دخلت تحت الدش، وصرخت من الألم. صرخت لفقدان ناثان، وافتقاد والدتي، ولأنني لا أستطيع أن يكون لديَّ من يلفُّني بمنشفة ويحتضنني بقوة، من دون الاكتراث بالإصابة بالبلل، ولأن روب أتى إليَّ في منزل صديقي - في المكتبة، التي يجب أن تكون مكانًا آمنًا - وضغط على نقطة ضعفي آملًا أن أنكسر. لم أستطع مجرد التفكير حتى في إمكانية أن يكون قد عثر على والدتي، وتحدث معها، وأخذ الكتب. كان ذلك سيمنحها الأمل.

عدت إلى الفراش وفكرت في كتابة رسالة إلى ناثان، لكن بدلًا من ذلك أرسلت إليه رسالة نصية لترتيب اللقاء لتناول شراب.

وبطبيعة الحال، كان قلقًا عليَّ. قال بعد أن قبَّلني وأجلسني ووضع شرابي أمامي:

- لقد جلبت لك مشروبك المعتاد، لكن هل تفضلين مشروبًا غازيًّا؟ هل تناولت أي دواء؟

قلت:

- أنا متعبة، ولم أنَم جيدًا.

قال ناثان:

- لا بد أن الأمر حدث فجأة. عندما عدت، لم أجد أثرًا لكِ. أعرف أنني غبت لبعض الوقت، لكنك بدوت بخير عندما تركتك.

الكذب فكرة شنيعة للغاية. حتى الأكاذيب الصغيرة التي من نوعية «لست على ما يرام» تنمو لها أنياب، وتنهش فيك مُحدثة ثقوبًا. غيرت الموضوع إلى موضوع الحديث الحقيقي.

قلت:

-- يجب أن نتحدث.

قال:

- يا إلهي، لا بد أنك مريضة بالفعل.

وضحك، لكنه توقف عندما رأى وجهي، وقال:

- ما الخطب؟

قلت:

- لا أستطيع الاستمرار في هذا، أعني علاقتنا.

وضعت خطة، لكن الخطة بالطبع لم تأخذ في الحسبان ما حدث عندما صرت على مقربة من ناثان. تضمنت الخطة الحفاظ على الهدوء والاتزان، وتقديم تفسير بسيط ومدروس عن كوني غير مستعدة للخوض في علاقة، ولا أريد واحدة، وعليَّ تخليص نفسي منها على الفور. يجب على ناثان أن يعدَّ نفسه، مع الأسف، معفيًّا من منصبه بوصفه حبيبًا للافداي. لكن الخطة لم تأخذ في الحسبان تمامًا كيفية شعوري وأنا جالسة بجانب ناثان، أطالع وجهه الوسيم. أوه، كم تمنيت لو أنني شخص يستطيع أن يحبه، وأن حبي ممكن.

قال:

- ماذا؟

لم يكن الأمر هو أنه لم يسمعني، بل إنه لم يصدق، لهذا لم أكن في حاجة إلى تكرار ذلك على الأقل، لأن صوتي لم يطاوعني.

قلت:

- أنا آسفة.

تناولت رشفة من الشراب، ولم يكن به ما يكفي من الجن. وعندما وضعت الكأس، وضعتها في منتصف القاعدة المخصصة لها تمامًا. تأنيت، ولم أرغب في رفع وجهي، في حين لم يصدر ناثان أي صوت.

عندما رفعت نظري، رأيت أن جسده كان ساكنًا، ولم يتحرك منه سوى جفنيه وهو يرمش، والأركان الداخلية لعظمة الترقوة الظاهرة من فتحة قميصه التي على شكل «V» وهو يتنفس.

قال:

- لافداي.

بدا صوته مختنقًا بالدموع، إلى جانب شيء آخر قاسٍ: الإصرار، أو الغضب. كنت أستحق الغضب، وقد شعرت بالغضب الشديد من نفسي لأنني وضعتنا معًا في هذا الموقف، ومن روب لدوره في الأمر.

كررت قائلة:

- أنا آسفة.

حاولت أن أبدو قوية، لكن لا أعتقد أنني نجحت.

قال ناثان:

- لافداي.

لمس يدي، فانتزعتها بعيدًا، كما لو أنه ارتكب جريمة بأن مد يده نحوي. تابع قائلًا:

- لا أفهم ما الخطأ الذي ارتكبته.

قلت:

- أعرف هذا.

بدا مصدومًا للغاية، إلى درجة أنني شعرت بالدوار من شدة الخزي.

بدا متحيرًا، كما لو أن شخصًا ما اقتحم منزله في أثناء وجوده بالخارج وأعاد ترتيب جميع الأثاث. صارت هناك دموع في عينيه الآن، لكنها اختفت من صوته، وقال:

- «أعرف هذا»؟ هل هذا هو كل ما أستحقه؟

قلت وقد بدت كلماتي أكثر هدوءًا ممَّا توقعت أن تكون:

- أنا لست ماهرة فيما يتعلق بالعلاقات، وقد أخبرتك بذلك.

قال:

- لا أعتقد أنك فعلت، ليس صراحة على أي حال.

قلت:

- بالضبط، ليس صراحة، لكنك كنت تعرف.

مرَّر يده على رأسه إلى الوراء، ثم إلى الأمام ثانية. فعلت ذلك بيدي أنا أيضًا من قبل، وشعرت بالحكة في راحة يدي من ذكرى شعره القصير الشائك.

سألني:

- هل هذا بسبب ما قلته لك؟

- ماذا؟

لم يكن لديَّ أي فكرة عمَّا يتحدث عنه. المحادثات التي تدور خارج الكتب فظيعة للغاية، ولا يعرف الآخرون أبدًا ما الذي من المفترض أن يقولوه. أردت تناول مشروب آخر، لكنني لم أعتقد أنه من الصائب أن أنهض كي أجلبه.

قال:

- أخبرتك في الحفل عن مسيرتي المهنية غير الرائعة، ثم ذهبت لإحضار بعض الطعام، وعندما عدتُ كنتِ قد رحلتِ.

قلت:

- لا، لم يكن هذا هو السبب.

لمست ظهر يده للحظة فحسب، ولم يبعدها. تابعت قائلة:

- هل تعرف كيف يقول الناس «إن السبب لا يتعلق بك أنت، بل بي أنا»؟ السبب يتعلق بي أنا بالفعل.

- ألا تعتقدين أن الحكم على ذلك يجب أن يُترك لي أنا؟

نظرت إليه. تانك العينان. أوه، يا لتانك العينين، وذلك الجبين، وذلك الفم، وتلك الأسنان. كل تلك الأشياء التي تذكرها الكتب والقصائد عن الرغبة في شرب شخص ما أو ابتلاعه والتهامه، فهمت كل ذلك حينها. أردت أن يكون ناثان جزءًا مني، في أعماقي تمامًا. ليس على ذلك النحو. حسنًا، على ذلك النحو أيضًا. فقد اعتاد جسدي ممارسة الجنس، ولن يتقبَّل غيابه بصورة جيدة.

وهل تعلم كيف يتحدث الجميع عن انكسار القلب؟ فهمت ذلك أيضًا الآن. صار لديَّ خط متعرج كامل عبر قلبي الدامي كما هي الحال في الرسوم المتحركة، وعندما نظرت إليه، شعرت بكل ملليمتر ممزق وملتهب من ذلك الجرح. ومما زاد الأمر سوءًا حقيقة كوني أنا من يحمل المشرط.

لم يكن هناك شيء في وسعي قوله. أين أبدأ الحديث؟ «هناك شيء ما لم أخبرك به»؟ كنت أعلم - كان جزء صغير مني يعلم ذلك - أن ناثان سيتفهم الأمر. لكن ذلك لم يكن جوهر الموضوع. كان جوهر الموضوع هو أن تفهُّمه سوف يغير كل شيء.

قال بهدوء:

- ظننت أنك سعيدة بعلاقتنا.

- ناثان...

لا أستطيع خوض هذه المحادثة. لا أستطيع ذلك فحسب. إذا سمحت بحدوث هذا الآن، فستزداد الأمور سوءًا لاحقًا. وقبل أن تضجرني بالحديث عن «الرضوخ للمتنمرين»، عليك أن تتذكر ما يلي: لم أرضخ لروب، وكان في إمكاني أن أروي القصة بأكملها لناثان إذا أردت ذلك. لكن هجوم روب القاسي ذكَّرني بمدى استحالة أن أكون في علاقة ما. كان هناك الكثير من العقبات، والعقبة الرئيسية هي أنني بمجرد أن أكشف عن ماضيَّ - على الرغم من أنني لم أكذب

إلا بإغفال بعض الحقائق فحسب - فلن أكون متأكدة أبدًا من أن ناثان يحبني لشخصي. لن أعرف ما إذا كان سيشعر بالشفقة، أو بالقلق من مدى الضرر الذي عانيته بدرجة تمنعه من أن يكون صادقًا معي بعد ذلك. تخيلت أن تاريخ والدَي السخيف سيظل موجودًا دائمًا، وقد يبدو الأمر مثل العيش في غابة، حيث يغيِّر وجود الأشجار طبيعة الضوء على الدوام.

استمتعت بوقتي مع ناثان، ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا على الإطلاق. لم يكن روب سوى مجرد تذكير بذلك. وقد أغضبني أنه فعل ذلك، لكن الناس يثيرون غضبي طوال الوقت، لذا كان عليَّ أن أتعايش مع الأمر. لو لم أتورط مع روب في المقام الأول، لما حدث أي من هذا. لن يكون لدى الشخص العادي ما يخفيه، ولم يكن روب ليتمكن من اكتشاف شيء.

نهضت قائلة:

- أنا آسفة.

ثم سرت مبتعدة.

لكنني لم أفعل ذلك بالسرعة الكافية، لأنني سمعت ناثان خلفي يقول:

- أحبك.

تظاهرت بعدم السماع، لكنني أعتقد أنه ربما أدرك أنني سمعته. أعتقد أن الخطوة التالية التي كان من المفترض أن أتخذها في عالم ناثان هي أن أستدير وأنا أنفجر في البكاء، وأخبره بكل شيء، وحينها سيمسح على شعري و... أرأيت؟ هذه هي المشكلة. فأنا لا أعرف حقًّا ما سيحدث بعد ذلك، ولا أستطيع رؤية أي نهاية للأمر.

لذا واصلت السير، وعدت إلى المنزل، ولو كنت قد قابلت روب في الطريق، لأريته كيف تكون الصفعة الحقيقية.

* * *

هذا هو ما أعرفه.

بعد الساعة السادسة مباشرة من ذلك المساء - بينما كنا أنا وإيما نختار ألوان طلاء الأظفار - اتصلت والدتي برقم الطوارئ، وقالت بصوت باكٍ:

- أعتقد أنني قتلت زوجي.

تُوفي والدي متأثرًا بإصابة في الدماغ. كان ما قتله بالفعل هو اصطدام مؤخرة جمجمته بالأرض الحجرية، وتأثير ذلك في دماغه، وفقًا للطبيب الشرعي الذي أجرى تشريح الجثة. وبالطبع لم يكن ليصطدم بالأرض لو لم تضربه والدتي على صدغه بغطاء قدر الطهي المصنوع من الحديد الزهر. أُعلن عن وفاته هناك في المنزل، على أرضية المطبخ.

حاولت والدتي إنعاشه، واضطروا إلى انتزاعها من فوقه.

كانت هناك سيجارة ملقاة على الأرض بجواره، وإحدى يديه الكبيرتين لا تزال تحمل علبة أعواد ثقاب. ويبدو أنه كان يشعل سيجارة عندما ضربته.

أُلقي القبض عليها في مسرح الجريمة، وصارعت للبقاء معه، حيث خدشت وجه ضابط الشرطة الذي اعترض طريقها وأسالت دماءه.

أُطلق سراحها بكفالة، وأُرسلت إلى المستشفى لإجراء تقييم نفسي.

رفضت أن تقول أي شيء دفاعًا عن نفسها، واعترفت بكونها مذنبة بارتكاب جريمة قتل عن غير عمد. لم تكن هناك محاكمة، بل مجرد جلسة استماع للحكم.

حُكم عليها بالسجن اثني عشر عامًا، وأُطلق سراحها بعد منتصف المدة.

وعندما بحثْت عنا في جوجل، في مكتبة المدرسة، صُدمت من التغطية الهائلة التي حظيت بها القضية. رفضت التحدث عن أي تفاصيل مع أنابيل أو شانيس، لذا عندما بلغت الثانية عشرة من عمري، لم أكن قد سمعت اسم والدَي منذ عام تقريبًا، وافتقدتهما بشدة. كُتب عنا الكثير، وعثرت على مقالات في الصحف الوطنية ولقطات تلفزيونية محلية ومدونات ومقالات رأي. ظننت أن حياتنا قد انهارت، وأشارت محركات البحث إلى أننا كنا نمثل روح العصر في القرن الحادي والعشرين. أجرت ملاحق الصحف في يوم الأحد مقابلات مع الناجين من حوادث العنف المنزلي وتحدثت إلى الخبراء. طُلب من البالغين ذوي المظهر الغريب، الذين كانوا فيما مضى أطفالًا عالقين في وضع مشابه لوضعي، أن يتكهنوا بما كنا نفكر فيه أنا ووالدتي. ثارت الأسئلة في البرامج التلفزيونية،

وباعت زوجة الرجل الذي خاض والدي معه شجارًا على منصة النفط حكايتها، ودافعت عن والدتي بشدة. يبدو أن والدي لم يكن يمزح عندما قال «يجب أن ترَي الرجل الآخر».

هرع عديد من الناس للدفاع عن والدتي، كما لو أنها مناضلة من نوع ما، أو توضح وجهة نظر معينة، في حين أنها على حد علمي كانت تحاول تفادي التعرض للأذى مجددًا فحسب. وبالطبع لم أكن موجودة عند وقوع الحادث، وهو ما أثار اهتمام كثير من الناس الذين أبدوا آراءهم بشأن حياتنا (أي جميع الناس): هل أبعدتني والدتي عن الطريق لتنفيذ جريمتها مع سبق الإصرار؟ من الواضح أن ذلك لم يكن صحيحًا، لأنه - بصرف النظر عن مسألة العثور على المال المُخبَّأ داخل الكتب، التي لم يعلم بها أحد بالطبع، لأنني لم أُخبر أحدًا، ولا يوجد شيء في التقارير يشير إلى أن والدتي فعلت ذلك على الإطلاق - من المفترض أن تنطوي الجريمة المُتعمَّدة على شيء أكثر تعقيدًا من ضرب شخص على صدغه بغطاء قِدر طهي من الحديد الزهر، وتمني سقوطه بزاوية مميتة، إذا سقط.

زودتني التفاصيل في الصحافة بالهيكل العام الذي يمكن لمُخيِّلتي أن تبني عليه صورة كاملة، وأعدت بناء الأحداث باستمرار من دون أن ألحظ تقريبًا أنني أفعل ذلك. في أي لحظة من لحظات صحوي أو نومي، بدا الأمر كما لو أن هناك فيلمًا يجري على خلفية جفنَي. رأيتها تبكي، وهو يحاول تهدئتها، فتسترخي وتعترف أنها ظنت أنه قد يؤذيني، مما أثار جنونه. رأيته يعنِّفها لحرماني من كل شيء، فتدخل المطبخ حيث يتبعها، فتلتفت نحوه. رأيته يضربها، فترد له الضربة. كان لكل مشهد من المَشاهد في ذهني موسيقى تصويرية مختلفة، وإيقاع مختلف، كما لو أنها تدريبات في معهد السينما. في بعض الأحيان، كان المشهد يبدو بالأبيض والأسود عندما تضربه، مثل الباليه، يكاد يكون جميلًا وهو يسقط أرضًا بالتصوير البطيء. أو كان المشهد مغبشًا، في لقطة مقربة، بينما هما يبكيان، والضربة مجرد حادث. وكان هناك مشهد به تعديل شامل يرجح كفة الدفاع عن النفس، حيث

تجثم والدتي مرتعدة قبل أن توجه الضربة، لكنني أحببت والدي بدرجة أكبر من أن يلتصق ذلك المشهد بذهني.

وفي مرحلة ما - لا أستطيع تحديدها - صارت النسخة التي اخترتها ثابتة. كان كلاهما غاضبًا، وضربها، فتوجهت إلى المطبخ. ربما كانت في طريقها إلى الخروج ويدها على معطفها بجانب الباب، فتبعها معتذرًا وباكيًا كما كان يفعل دائمًا بعد تلك المواقف، فلانت له، لكنه قال شيئًا آخر قاسيًا، ثم استدار ليشعل سيجارة. وكانت قد تحملت منه الكثير بالفعل حتى طفح الكيل، لذا التقطت الغطاء وسددت الضربة وهي تشعر بالخوف والألم.

شعرت بالغثيان عندما قرأت ما كُتب عن عائلتنا. لم نكن مثالًا، ولا حالة للدراسة، ولا علامة من علامات العصر، بل كنا نحن.

لكن الشيء الذي صدمني حقًّا لم تكن التقارير الصحفية أو التلاعب والتشويه والتضخيم الذي لا حدَّ له لقصتنا الصغيرة الحزينة. ما صدمني هو أنه بينما كنا نظن أن حياتنا تتألف من ثلاثتنا فقط، بدا من الواضح أننا كنا محاطين بأشخاص قلقين بشأننا، كانوا يفتقرون إلى ما يلزم من الذكاء أو الشجاعة لمنع ما هو على وشك الحدوث. اتصلت معلمتي بالخدمات الاجتماعية لأنني كنت «منطوية»، وأظهرت سجلات والدي لدى مكتب التوظيف أنه يميل إلى التصرف بعدوانية تحت الضغط. وعند فحص والدتي، صنعت منها آثار الكدمات والأسنان المكسورة والأضلاع المحطَّمة ضحية، بينما صنعت من والدي وحشًا. وجاء في تقرير مُقدم إلى المحكمة أن والدتي تعاني القلق والاكتئاب، لكنها كانت في الأساس بكامل قواها العقلية، فجعلها ذلك تبدو كأنها الوحش، وجعله هو الضحية البريئة.

رفضت أن تقول أي شيء، ورفضت الدفاع عن نفسها، ولا حتى بكلمة واحدة. وأنا لست خبيرة في أي شيء، لكنني بدأت أعتقد أن هذا من شأنه أن يثير الشكوك حول صحتها العقلية.

أعدت بناء المشهد وتخيله، وحاولت أن أسامح، لكنني لم أستطع أن أسامح

أحدهما من دون إلقاء اللوم على الآخر. وأكثر من أي شيء آخر، تمنيت استعادة ذلك العالم الذي فقدته، حيث كان والدي يذهب إلى العمل على متن طائرة مروحية، وأنا ووالدتي نجمع الأحجار والأصداف على الشاطئ.

* * *

كان الأسبوع التالي لإنهائي العلاقة مع ناثان بائسًا للغاية. لم أستطع النوم أو التركيز أو القيام بأي شيء يمُتُّ للعقل بصِلة ولو من بعيد. ويبدو أن روب تمتع بما يكفي من الذكاء للابتعاد عن طريقي، لذا لم أشعر حتى بالرضا لتنفيس غضبي فيه. رأيته ذات مرة، عندما جاء للتحدث مع ميلودي، لكنه لم يبحث عني. تكوَّن لديَّ انطباع أنها تحاول تفاديه، لكن ربما كانت هذه مجرد تهيؤات من جانبي. ومن الواضح أنه قرر التوقف عن ترك الكتب، بعد أن لعب ورقته الرابحة لإخافتي. أو ربما كشفت والدتي حقيقته، فلم تسمح له بأخذ سوى صندوق أو صندوقين فقط. تمنيت لو أن في وسعي سؤاله من أين حصل عليها، لكنني لم أستطع تحمُّل فكرة مجرد النظر إلى وجهه.

كرهت الاعتراف بذلك، لكنني شعرت بأنني أفتقد ناثان. افتقدته كثيرًا للغاية. كنت في حالة من الكآبة بحيث تشرد نظراتي بعيدًا، وأعجز عن النوم وتناول الطعام. وكنت أعلم أن الأمر مثير للسخرية، لكن لم تكن لديَّ حيلة في ذلك حقًّا. وأنا أكره عقد هذه المقارنة، لكن الشعور الوحيد المشابه لهذا الذي انتابني كان الحزن الحقيقي الكامل عقب موت والدي وفقد والدتي. لم يكن على القدر نفسه من السوء بالطبع، لكنه كان سيئًا بما فيه الكفاية. ولأنه لم يكن هناك شيء آخر قد تغير في حياتي، أدركت مقدار الوقت الذي أمضيته مع ناثان، وكم اعتدت رؤيته في العمل وفي المنزل.

قررت التوقف عن الذهاب إلى الأمسيات الشعرية مساء الأربعاء بالطبع، لكن ذلك كان لساعتين فقط في الأسبوع، وكانت هناك كل الأشياء الأخرى: مقابلته لي بعد العمل، والعودة معي لتناول العشاء وقضاء الليلة، والطريقة التي جعل بها من السهل الحديث عن أمور بسيطة طوال ساعات، والشعور كما لو أننا

نصنع عالمًا بأكمله، والاستماع إليه وهو يقرأ الشعر، وصوته العذب الرخيم يبث الحياة في كل كلمة، وقدومه إلى المكتبة جالبًا معه القهوة، وصوته وهو يضحك مع آرتشي، وعملات الشوكولاتة الغبية تلك، وحتى تأمُّله لوشومي وأنا أبدل ملابسي، وتذكرت محاولته تخمين مصادر كل تلك الجمل الافتتاحية، وسبب اختياري لها. بدا كل شيء خسارة وفقدًا، وعلى الرغم من أنني حاولت إرهاق نفسي بركوب الدراجات عندما لا أعمل، أو التنظيف وإعادة ترتيب الأرفف عندما أكون في العمل، فإنني لم أستطع النوم، ولم أستطع التفكير إلا في ناثان، وكتب والدتي، وروب اللعين، وحقيقة أن حياتي فسدت للغاية إلى درجة أن فرصتي في أن أحظى بعلاقة طبيعية تكاد تضاهي الفرصة في ظهور نسخة من «أعمال بريكليس» موقَّعة من قِبَل شكسبير. أي أن الفرصة منعدمة تمامًا، ما لم يكن شكسبير قد اخترع السفر عبر الزمن، بالإضافة إلى عشرة في المائة من اللغة الإنجليزية. وقد وضعت نفسي في موقف رأيت فيه كيف يمكن أن تكون العلاقة، لكن تلك حكاية مختلفة، فالأمر رائع في القصائد، لكنها فكرة سخيفة ومستحيلة في الحياة الواقعية.

هل أبدو غاضبة؟ حسنًا، أتساءل عمَّا يمكن أن يكون السبب في ذلك؟

استيقظت في الخامسة من صباح اليوم التالي، وحاولت ألا أفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث خلال الأمسية الشعرية في الليلة السابقة، وصرت جاهزة ووصلت إلى العمل في الساعة السادسة، فلم يكن هناك سبب يدعوني إلى الاستلقاء والتحديق إلى السقف، بينما يمكنني ترتيب الكتب في قسم الصحة. وفي الرابعة عصرًا، تسلل إليَّ كل التعب المتراكم، ولم أدرِ إلا وآرتشي ينادي اسمي بلطف ويده على ذراعي.

قال:

- لافداي، يجب أن تستيقظي، كدت أغلق المكتبة وأحبسك بالداخل.

كانت الساعة السادسة، وكنت نائمة وظهري مستند إلى الخرائط. وشعرت بأن هاتين الساعتين هما أول نوم هادئ أحظى به منذ أسابيع.

استغرق مني الأمر بعض الوقت كي أفيق، وعندها تمنيت لو أنني لم أفعل. شعرت بالخدر في ذراعي، وكانت رقبتي تؤلمني وساقاي متصلبتين. ولم تكن الآلام الجسدية شيئًا يُذكر بالمقارنة مع كل شيء آخر.

قال آرتشي:

- أنا راحل، لكنني سأنتظرك.

نهضت واقفة على قدمَي وقلت:

- سأكون بخير.

قال:

- لست متأكدًا أنك ستكونين كذلك.

وبينما كنت واقفة، جذبني نحوه للحظة، وأحاط كتفَي بذراعيه، وعانقني على نحو جانبي. سمحت له بأن يفعل ذلك، وقال:

- خذي قسطًا من الراحة، يا لافداي، واذهبي إلى مكان ما وفكري في كل ما عليك التفكير فيه.

قلت:

- لا أعرف يا آرتشي.

لكنني كنت أعرف، حيث لا أذهب لقضاء العطلات في الواقع. ذهبت إلى مهرجان أدبي ذات مرة، ولم يعجبني كثيرًا. كان هناك كثير من الناس بدرجة أكبر مما ينبغي، وكنت أنا مخطئة تمامًا، حيث إن الجميع متساوون عندما يقرأون كتابًا، لكن ليس عندما يتحدثون في أثناء الوقوف في الصف لمقابلة مؤلف، أو عند اختيار نوع المشروب الذي سيطلبونه في الحانة. ظللت أدخر المال طوال فترة عملي، لأنني أعلم أن آرتشي لن يكون موجودًا إلى الأبد، ولست متأكدة ما إذا كان هناك شخص آخر سيمنحني الفرصة. تبدو العطلات كأنها مضيعة للمال، ولا سيما عندما لا يكون هناك مكان أريد الذهاب إليه. فأينما ذهبت، هأنتذا نفسك، أو أيًّا ما كانت تلك المقولة الغبية.

قال:

- أنا أعرف. أنت في حاجة إلى التفكير في الأمور من منظور جديد. سوف أصرفك إذا أتيت إلى هنا الأسبوع المقبل.

ضحكت، فآلمني حلقي.

قال:

- أنا جاد بذلك الشأن.

ثم أضاف:

- يمكنني أن أعيرك خيمة إذا أردتِ. امنحي نفسك بعض الوقت.

فقلت:

- لست متأكدة من أنني في حاجة إلى الوقت أو إلى خيمة.

قال:

- خذيها من صديق.

ثم استدار حتى صار في مواجهتي، ويداه على كتفَي، وتابع:

- أنت في حاجة إلى بعض الوقت. عليك التفكير فيما تريدينه، وإذا كنت لا تريدين خيمة فيمكنني التعامل مع ذلك الأمر.

أشعر أحيانًا بأن آرتشي يعتقد أنني لا أزيد إلا بمقدار درجة على كوني فلاحة متجولة تبيع الأشرطة وتتسول كسرة خبز، لأنني لا أعيش في منزل محاط بالحدائق على الطراز الجورجي. قلت:

- الخيام ليست بها حمَّامات، ومن الممكن أن تُسرق أغراضي أو أن تدهسني الأبقار.

قال آرتشي:

- توجد حمَّامات مشتركة في أماكن التخييم، وعلى أي حال، يمكن أن تدهسك الأبقار في أي مكان.

أومأت برأسي، على الرغم من أنني لست متأكدة من السبب وراء ذلك. يتمتع آرتشي بالقدرة على جعلك توافقه في الأمور، حتى إمكانية وجود أبقار خارجة عن السيطرة في بيئة حضرية. قلت:

- لا أدري بشأن العطلة. لا أعرف إلى أين يمكنني الذهاب.

قال:

- اذهبي إلى ويتبي، كما ذكرت أنك تريدين، واحصلي على بعض الهواء.

كان مكانًا مثاليًّا كي ينشأ فيه المرء: كانت هناك طيور النورس، والشاطئ، وأماكن للاختباء، وكهوف، إلى جانب ذلك الشعور، عندما يمتلئ المكان بالسياح، بكونك محظوظًا لأن هذه المدينة هي محل سكنك. نظر إليَّ آرتشي كما لو أنه على وشك البكاء، كأن أخذي إجازة بمنزلة مسألة حياة أو موت، لذلك أومأت برأسي وغادرنا المكتبة.

عندما وصلت في اليوم التالي، اكتشفت أن مديري العزيز لم يدخر أي جهد، واختار أن يسيء تفسير إيماءتي، والتي كانت تعني: «سأفكر في اقتراحك، لكن ربما لا أتصرف بناء عليه»، كما كان يعلم جيدًا. وفقًا لتفسيره هو، صارت إيماءة تعني: «من فضلك اتصل بصديقك الذي لديه موقع تخييم على الجروف الصخرية خارج ويتبي، واحجز بيتًا متنقلًا، واترك ميلودي - ميلودي! - مسؤولة عن المكتبة في ذلك الصباح، وبعد ذلك عندما تحضر لافداي للعمل، اصطحبها مباشرة إلى السيارة، وخذها إلى المنزل، وانتظرها بينما تضع بعض الأشياء في حقيبة الظهر، ثم اصطحبها إلى ويتبي سواء أرادت الذهاب إلى هناك أم لا، وعليك المرور بسوبر ماركت فخم حيث تشتري لها أصنافًا عشوائية من الطعام، من دون سؤالها عمَّا تريده أو تفضِّله حتى».

والشيء الغريب والجميل في الأمر هو أنه كان محقًّا بشأن حاجتي إلى الراحة، كما كان محقًّا بشأن ويتبي.

لم أعد إلى هناك منذ اليوم الذي خرجت فيه من نظام الرعاية البديلة المؤقتة، حيث بقيت لبقية العام الدراسي، ثم انتقلت إلى منزل أنابيل في ريبون خلال الصيف الأول الذي قضيته من دون والدَي، للاستعداد كي أبدأ في مدرسة جديدة في شهر سبتمبر، حيث لن يعرف أحد تاريخي.

لفترة طويلة، لم تكن العودة إلى ويتبي خيارًا: لم أرغب في رؤية الأشخاص

الذين يعرفونني، وعلى أي حال، عندما تكون تحت الرعاية البديلة، فأنت لا تفعل أشياء من قبيل اقتراح القيام برحلة، حيث إن الوضع برمته فائق الهشاشة، وفي توازن دقيق. كانت لدينا أنا وأنابيل قواعد صارمة للتعامل، وهي أن كل واحدة منا تركت الأخرى وشأنها. وافقتُ على معظم الأشياء التي اقترحت عليَّ القيام بها، ولم تكن تقترح كثيرًا من الأشياء. وقد انغلقت على نفسي لأنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها التعامل مع الأمر. في البداية، أعتقد أنها ظنت أنني سأخرج من قوقعتي. لم يكن لديَّ جهاز تلفزيون في غرفتي، وأعتقد أنها ظنت أنني في نهاية المطاف، سوف أنجذب إلى الطابق السفلي بسبب الرغبة في مشاهدة ما يشاهده الآخرون، أو على الأقل فهم ما يتحدث عنه الجميع.

لقد افترضتْ بالطبع أن الناس في المدرسة يتحدثون إليَّ، وأنني أبادلهم الحديث، على الرغم من أن فكرتها تلك بطلت بعد بضعة لقاءات مع المدرسين. بقيت في غرفتي، وانشغلت بالقراءة. وأنا على يقين من أنها انتظرت بالقرب مني، وهي مستعدة لإعطائي الدعم العاطفي الذي واصل الاختصاصيون الاجتماعيون والأطباء النفسيون والجميع الحديث عنه. وفي أثناء انتظارها، كانت تُعِد وجبات مغذية، كما كانت دقيقة فيما يتعلق بمصروف الجيب والجداول الزمنية - فمن الواضح أنها قررت أنني في حاجة إلى العيش من دون أي صدمات - كما سعت إلى معاملتي بإنصاف.

كانت تقترح الذهاب في عطلة في كل صيف، وكنت أقابلها بالرفض. عرضت اصطحابي إلى كورنوال، فصفقت الباب في وجهها. حتى إنها عرضت اصطحابي إلى ويتبي، فأخبرتها بأنها بلا قلب، وشعرتُ كما لو أنها تسخر مني. رأيت البحر في كل يوم من أيام حياتي حتى تركت ويتبي، ولم ألمحه تقريبًا منذ ذلك الحين، طوال تلك السنوات، على الرغم من أنني كثيرًا ما حلمت به. ذهبت في رحلات مدرسية، إلى لندن، ومكان ما في ويلز، لكن تلك كانت هي كل ما قضيته من عطلات. تمكنت من الحصول على أول وشم لي في أثناء رحلتي إلى لندن، وذلك بفضل رسالة مزوَّرة ببراعة من أحد زملائي من التلاميذ. كنا ثلاثة، تسللنا

من متحف مدام توسو وذهبنا إلى حي سوهو. حصلت على وشمي المُقتبس من «آنا كارنينا»، بينما تخلى الاثنان الآخران عن الفكرة عندما شاهدا مسدس الوشم، بعد أن كان أحدهما ينوي وشم بعض الحروف الصينية، في حين اختار الآخر شعار نادي كرة قدم كايزر تشيفز. ولحسن الحظ، لم يلاحظ المعلمون تغيُّبنا، أو تظاهروا بذلك، ولم أذكر الأمر لأنابيل فحسب. لم أحاول إخفاء الوشم، ولم تقل هي شيئًا بشأنه، ومرَّ الموضوع على خير.

لم تكن رحلة طويلة، ولا سيما بالطريقة التي يقود بها آرتشي. وقد يقول البعض إنني كنت متجهمة في السيارة، وقد أقول حتى إنني عمدت التجهم. لكن ذلك لم تكن له أهمية، لأن آرتشي واصل الحديث طوال الساعة التي قضيناها على الطريق، وحتى لو شعرت بالرغبة في الحديث، لم أكن لأتمكن من مقاطعته والتفوه بكلمة. بدأ في الحديث (لا أعرف السبب في ذلك) عن نكهة الغبار في جو برلين ليلة سقوط الجدار، ثم انتقل إلى الحديث عن عدد أفراد العائلة المالكة الذين ما زالوا ينامون مع الدُّمى المحشوة، بعد ذلك شرع يخبرني عن كلارا، التي كانت تعمل في المكتبة عندما بدأتُ العمل هناك، وكيف أفرغت محتويات آلة تسجيل النقود ذات يوم سبت، وهربت. قال:

- لم أكن لأمانع، وكنت سأعطيها المال إذا طلبت ذلك. لكنني شعرت بالأسف لأنها سرقته.

توقف عن الحديث، ثم أضاف كما لو أنه يجيب عن سؤال:

- أتدرين؟ التقينا في أثناء سيرنا فوق سور الصين العظيم.

قلت:

- أوه، حسنًا.

كانت نبرتي أكثر تبرمًا بعض الشيء من تلك النبرة التي تعني «أنا لا أستمع إلى كلمة واحدة مما تقوله»، لكن آرتشي لم ينتبه.

ثم بدأ يتحدث عني، مما جعلني أرغب في إلقاء نفسي خارج السيارة والمجازفة بمصيري فوق الأسفلت. قال:

- أتذكر المرة الأولى التي دخلت فيها المكتبة، واعتقدتُ أنك مجرد مراهقة عادية. لكن عندما لمستِ كتابًا، فعلتِ ذلك كما لو أن الكتاب ذو أهمية. بدوتِ كما لو أنك لا تستطيعين تصديق حظك يا عزيزتي، لمجرد أنك تمكنت من الحضور وتصفح الكتب في مكتبتي المتواضعة. انتقلتِ من كلاسيكيات بينجوين إلى كتب التاريخ، وقضيت نصف ساعة تقريبًا في تصفح كتاب عن شارات الوحدات العسكرية، وأذكر أنني فكرت: «حسنًا، حسنًا، يا آرتشي، لديك هنا محِبَّة حقيقية للكتب».

استدرت لأنظر من نافذة الركاب، بدلًا من مراقبة الطريق الممتد أمامي. بدأت أتعرف على التضاريس، لأن المستنقعات لا تتغير، على الرغم من أنه من الأسهل بالتأكيد الإعجاب بها عندما تكون في سيارة ذات نظام تعليق جيد. بدا منظر الدير، وهيكله ظاهرٌ في الأفق، مألوفًا لي أكثر من منظر وجهي في المرآة. ودفعني مشهد البحر في الأفق، الذي بدا بلون سروال من الجينز الباهت بسبب الغسيل، إلى الشعور بالغثيان بفعل الذكريات.

قدَّمني آرتشي إلى جاكسون، الذي يمتلك موقع التخييم - ومن المفترض أنهما التقيا في حانة في كنتاكي - ثم تركني ورحل، ورفض الدعوة إلى تناول الغداء. بدا أنه يتحرق شوقًا إلى المغادرة، ورأيت ذلك بوضوح. أعتقد أنه أدرك أنها لم تكن فكرة جيدة من جانبه أن يترك ميلودي مسؤولة عن المكتبة، وكان في حاجة إلى العودة للحد من الخسائر قبل أن تحوِّل المكان إلى خشبة مسرح.

قال:

- حسنًا يا متشردتي الضالة، سأعود خلال أسبوع.

ووضع يده على كتفي، فسمحت له بذلك.

قلت:

- شكرًا لك.

وكنت أعني ذلك بالفعل. لأن مجرد منظر البحر جعلني أدرك مدى حاجتي إلى أن أكون في مكان آخر، آمنة من أصداء وجود ناثان والكتب التي امتلكها والداي.

لم يستطع آرتشي منع نفسه من الضغط مرتين على بوق السيارة، ملوحًا بقبعته من النافذة وهو يبتعد. كنت متعبة، متعبة للغاية، وشعرت كما لو أن كل النوم الذي فاتني منذ أن غادرت ويتبي قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا كان ينتظرني هناك كي أستعيده.

كان البيت المتنقل من النوع الثابت في مكانه، وربما كان أكبر من شقتي، لكنه كان مليئًا بالوسائد العنابية ذات الشُّرابات الذهبية، إلى درجة أنني لم أستطع التحرك تقريبًا. أغلقت الستائر ودخلت إلى الفراش. كانت الساعة الثانية بعد الظهر، لكنني لم أهتم. غرقت في النوم، واستيقظت في التاسعة وأنا أتضور جوعًا، وسعدت بوجود الجبن والزيتون الذي اشتراه آرتشي. وعندما أفرغت المشتريات، رأيت أنها لم تكن عشوائية: لم يكن هناك شيء في حاجة إلى الطهي. كان هناك خبز، وجبن، ولحم مقدد، وحبوب إفطار، وموز وحليب. لم أعرف ما إذا كان يحاول تسهيل الأمر بالنسبة إليَّ، أو إذا كان يحاول التأكد من أنني لن أشعل النار في المكان.

السفر

٢٠١٦

تَحرُّك الذكريات

في الأيام القليلة الأولى سارت الأمور بشكل جيد. ذهبت إلى البلدة، وأكلت الآيس كريم على الرصيف البحري. ونزلت الدرج إلى الشاطئ، وقست نفسي مقابل الكتل الحجرية الضخمة هناك، حيث اعتاد والدي التقاط صورتي. خمن ماذا؟ أنا أطول الآن مما كنت عليه في العاشرة من العمر. وبينما كنت واقفة هناك، ظننت أنني سمعت والدتي تضحك. كدت أنسى أنها كانت تضحك على الإطلاق، حيث أصبحت في ذهني شخصًا حزينًا وخائفًا ومحاصَرًا وعاجزًا. فكرت في أن أطلب من شخص ما أن يلتقط صورة لي على الدرج، لكنني اكتفيت بوجودي هناك. من الذي يمكنني أن أريه الصورة على أي حال؟ (هذا سؤال بلاغي).

ذهبت إلى الدير وشاهدت جميع السائحين، وهم يتعجبون من أقواس المبنى الشبيهة بعظام الحوت. لم أستطع أن أتذكر متى كان هذا المبنى المتداعي المذهل جديدًا بالنسبة إليَّ. لطالما كان موجودًا هناك. تجولت بين المحلات، التي ظل بعضها من دون تغيير أيضًا، وهي لا تزال تبيع البطاقات البريدية المصورة والصخور والخرز المصنوع من حجر الليجنيت والحلي القوطية.

لمست قلادتي، وتساءلت عن شعور حجر الليجنيت الصغير خاصتي بالعودة إلى موطنه. وقد افترضت أنني سأعرف شعوري أنا، لكنني لم أعرف. لم أكن متحمسة ولا حزينة ولم أمتلئ بالذكريات المفاجئة. كنت لا أزال لافداي فحسب،

وبدا الأمر كما لو أنني عالقة مع نفسي. لم تكن العودة إلى ويتبي أمرًا سحريًّا، ولم تقدم لي أي إجابات.

لكنني أحببت الوجود بالقرب من البحر مجددًا، وبدا الماء في زرقة الأنامل الملطخة بالحبر. شعرت بالضآلة البالغة بجانبه، وكانت هناك راحة في اليقين بضآلة أهميتي. وقد جعل ذلك التفكير في ناثان أسهل بعض الشيء لدقيقة أو دقيقتين. لكنني لا أستطيع أن أقع في الحب، لأن الوقوع في الحب كان أمرًا غبيًّا فحسب. فقد كان والداي واقعَين في الحب، وانظر إلى أين قادهما ذلك. ولا، لا أعتقد أن كل الرجال مثل والدي (أو روب)، أو أن كل النساء مثل والدتي (أو مثلي). لكنني ذكية بما يكفي كي أرى أن أي شخص يتعامل معي سيكون إما غريب الأطوار، وإما لطيفًا جدًّا جدًّا وكريمًا وصبورًا. وأنا لا أحب غريبي الأطوار، وبما أنني لست لطيفة ولا كريمة ولا صبورة، لذا فسيتحطم الأمر وسيحترق عاجلًا أم آجلًا. وهذا ليس تهكمًا، بل هو المنطق.

كان متجر الكتب الذي اعتدت الذهاب إليه مع والدتي لا يزال موجودًا، وأصابني مرآه بوخزة. أجبرت نفسي على الدخول، ووجدت الأرفف الخشبية العالية نفسها في مقدمة المتجر، والمنخفضة في قسم الأطفال بالخلف. اشتريت رواية «دراكولا»، التي لم تتسنَّ لي قراءتها من قبل، وخضت محادثة محرجة نوعًا ما مع المرأة الواقفة خلف آلة تسجيل النقود (كانت المرأة نفسها، لكنها تقدمت في العمر)، التي قالت:

- ألا أعرفك من مكان ما؟

وبدلًا من التصرف بهدوء، ورسم تعبير من الحيرة الطفيفة على وجهي قبل أن أرحل، قلت:

- نعم.

واندفعت خارجة بسرعة من شأنها أن تجعلني لا أُنسى على نحو أشد كثيرًا. تمنيت لو سألتها عن شعورها بالعمل في متجر الكتب نفسه طوال حياتها، لكنها بدت سعيدة بما فيه الكفاية.

ازددت شجاعة بمرور الأيام، إذا كانت العودة إلى الأماكن القديمة تُعدُّ شجاعة. أعتقد أنني أدركت أنه لا يوجد شيء سيؤلمني وجوده أمامي بدرجة أكبر مما آلمني وجوده في ذهني طوال هذه السنوات. وربما كنت في حاجة إلى مواجهة الأمور.

سرت إلى المنزل الذي نشأت فيه، ووقفت في الخارج. كانت هناك دراجة أطفال عند الباب، وسيارة سيتروين صغيرة جديدة في الطريق الخاص بالسيارة. لم يكن هناك طريق في السابق، بل مجرد ممر وحديقة صغيرة مهمَلة.

رفعت عينَي إلى ما كانت في السابق نافذة غرفة نوم والدَي، وتخيلت والدتي هناك، تطل إلى الخارج، وتشاهدني أسير إلى المدرسة التي كانت مرئية من البوابة الأمامية، وأنا أتخيل نفسي مستقلة. حسنًا، فلتحذري ما تتمنين حدوثه، يا إل جيه. انتظرت أن تصفعني العاطفة، لكن ذلك لم يحدث. شعرت بالأسف والحزن، لكن لا أعتقد أنني كنت أكثر أسفًا أو حزنًا لوقوفي هناك. فهو مجرد منزل على كل حال.

وبعد فترة خرجت امرأة وهي تحمل طفلًا بين ذراعيها، ونادت قائلة:

- هل يمكنني مساعدتك؟

ظلَّلت يدها عينيها من شمس ما بعد الظهيرة، لذا لم أستطع أن أعرف حقًّا ما إذا كانت صادقة في سؤالها أم لا، لكنها بدت كذلك. كدت أقول: «لقد نشأت في هذا المنزل»، لكنني منعت نفسي في الوقت المناسب. لأنها إما كانت تعرف الحكاية، وإما لا تعرفها. وإذا كانت تعرفها، فسوف تقدم لي الشاي والتعاطف، وتراقب وجهي لترى أين أصوب نظراتي، وما الذي أتذكره، وتستعد للدراما. وإذا لم تكن تعرفها، فمن المؤكد أنني لن أخبرها، وهذا من شأنه أن يجعل من الصعب إجابة أي أسئلة من نوعية «متى عشت هنا؟» و«إلى أين ذهبت؟».

ابتسمت وهززت رأسي، وسرت مبتعدة. كان يجب أن أفعل ذلك مع ناثان، في وقت سابق، قبل أن ينسحق قلبي وقلبه. كنت أتألم من أجلي، ومن أجله. ظل

ذهني يدور حول حقيقة أنني إذا صارحته بكل شيء، فسوف يتقبل الأمر بطريقته، لكن ذلك سيغير عالمنا، ولن أعرف أبدًا على وجه اليقين ما إذا كان يحبني أم أنه يشعر بالشفقة حيالي. كتابة نهاية جديدة للحكاية أمر جيد كفكرة مجردة، لكن هناك بعض التقلبات في الحبكة التي لا يمكنك التعافي منها فحسب.

نمت وانشغلت بالقراءة، وحاولت ألا أفكر في ناثان. وفي آخر يوم لي، فعلت الشيء الذي كنت أفكر فيه وأتجنبه منذ وصولي إلى ويتبي: ذهبت إلى الكنيسة.

شربت الشاي وتناولت كعكة الشوكولاتة على أطباق من الخزف الصيني غير المتطابق في متجر للشاي، شغَّل أغاني المغنية فيرا لين. كانت هناك كعكة الزنجبيل في القائمة وفكرت في طلبها، لكنني كنت أعلم أنها لن تكون جيدة مثل تلك التي اعتدنا أن نعدها أنا ووالدتي عند عودة والدي إلى المنزل. وبعد ذلك ذهبت إلى كنيسة أبرشية سانت ماري، الواقعة أعلى الجرف. صعدت الدرجات البالغ عددها مائة وتسعة وتسعين درجة كي أصل إلى هناك. اعتدت أن أحصيها في أثناء صعودي، وكانت والدتي تحصيها معي إذا كانت بصحبتي. أما إذا كنت بصحبة والدي، فكان يسبقني صاعدًا ثلاث درجات في كل خطوة، وكان يختلط عليَّ العدد بينما أسرع للحاق به، حتى نصل لاهثين وضاحكين عند القمة. وإذا كنا ثلاثتنا معًا، كنا نسير أنا ووالدتي ونحصي الدرجات، بينما يسير والدي بجانبنا أو خلفنا صائحًا بأرقام عشوائية كي يختلط علينا الأمر. كنت أضحك، لكن والدتي كانت تتظاهر بالتحديق إليه بغضب وهي تقول: «باتريك، أنت لا تساعدنا، ولهذا عليك شراء الآيس كريم».

صعدت الدرج بتأنٍّ، وأنا أستعيد الذكريات، وأتذوق نكهة الملح في الجو.

* * *

بطبيعة الحال، لم تختلف الكنيسة عمَّا كانت عليه قبل خمسة عشر عامًا. فهي تبدو تقليدية جدًّا من الخارج، مبنية من الحجر ولها برج مربع الشكل، ونوافذ عالية من الزجاج الملون في الجدران. أما مدفن الكنيسة، فمليء بشواهد قبور على الطراز القوطي، تبدو كما لو أنها تنتمي إلى كتاب قصص مصورة، حتى

يتذكر المرء أنها حقيقية. توقفت عند النصب التذكاري لعائلة ماروود، وطالعت الأسماء هناك. تذكرت أننا تحدثنا أنا ووالدتي عن مارمادوك. كنت أعلم بوجود مقابر عائلية، وظننت في البداية أن القط دُفن معهم، حيث كان لديَّ كتاب عن قط يُدعى مارمادوك، لكنني لم أسمع قَطُّ عن شخص بهذا الاسم. أوضحت لي والدتي الأمر، وإذا وجدتْ أسئلتي مثيرة للضحك فلم تظهر ذلك قَطُّ. قرأتُ التواريخ - لم يعِش مارمادوك طويلًا حتى بمعايير القطط، فقد وُلد في سبتمبر ١٨٧١، وتوفي في يناير ١٨٧٢ - وأشارت والدتي إلى كلمة «ابن» التي فاتتني، وقالت بلطف إن الناس يموتون أحيانًا قبل أن يكبروا، خاصة في الأيام الخوالي، قبل أن يتقدم الطب.

لا أعرف لماذا اندهشت لرؤية أن عائلة ماروود ومارمادوك لا تزال هناك، فلم يكن الأمر كما لو أن عظام مارمادوك الصغيرة ستنتقل إلى مكان آخر. لكنني وقفت وتأملت اسمه، ثم مضيت قُدمًا إلى شرفة الكنيسة حيث ابتسمت للسيدات في المتجر الممتلئ بالمنشورات والبطاقات البريدية، ووضعت جنيهًا في صندوق التبرعات، ومررت عبر المدخل المؤدي إلى الكنيسة نفسها.

كنيسة سانت ماري هي الكنيسة الوحيدة التي ذهبت إليها إبان طفولتي. وهي تحتوي على مقاعد خشبية مبنية بزوايا غريبة متقابلة بحيث لا يمكنك رؤية أي شخص آخر، كما لا يمكنك رؤية القس إلا إذا كان مقعدك في الزاوية الصحيحة. أعرف أن هذا أمر غير معتاد، لكنه يبدو عاديًّا بالنسبة إليَّ. وكلما رأيت الكنائس على شاشة التلفزيون، بصفوفها المنتظمة من المقاعد، وبينها وفوقها كل تلك المسافات، يبدو لي الأمر غريبًا.

لطالما أحببت نظام كنيسة سانت ماري المقلوب رأسًا على عقب، والأسماء المكتوبة على جوانب المقاعد لتحديد أماكن الجلوس؛ كانت هناك مقاعد لخدم الكنيسة والعاملين بها والزوار. وفي عصر إنشاء الكنيسة، كان الجميع يعرفون أماكنهم، ويبقون فيها. أعرف أنه من المفترض أن يكون العالم أفضل الآن، لكن لنكن صادقين: أليس من الجيد أن تعرف أين تنتمي، سواء أكان ذلك وأنت تطل

إلى الأسفل من المقعد الفخم المخصص لآل تشولملي، أو جالسًا في المقعد المخصص «للغرباء فقط»؟ لكنني أعتقد أنه لم يكن من الممتع كون المرء من الغرباء، وهذا ما كنته أنا.

توجهت إلى المقعد الذي اعتدِت الجلوس عليه مع والدَي. لم نكن نذهب كثيرًا، لكنهما اعتادا الذهاب إلى الكنيسة في أقرب يوم أحد لذكرى زواجهما، لأن الكنيسة كانت المكان الذي التقيا فيه وتزوجا.

كان والدي يريني الزاوية داخل أحد المقاعد، حيث نقش حرفَي «ب» و«س-ج»، ورسم حولهما قلبًا بدائيًّا، يوم إعلان زواجهما في الكنيسة.

قال:

- لقد جرحت إصبعي، واضطرت والدتك إلى أن تمصه طوال فترة المراسم كي توقف النزيف.

كانت تضحك، ويضحك هو أيضًا، فأشاركهما الضحك على الرغم من أني لم أشعر أنني فهمت النكتة حقًّا قَطُّ، وكانا يمسكان بأيدي بعضهما في الطريق في أثناء نزول الدرج مرة أخرى.

الكثير من ذكرياتي هي ذكريات سعيدة.

كان المقعد تحت نافذة زجاجية ملونة، مرسوم عليها قديس ذو شعر مجعد يحمل سيفًا ويرتدي عباءة، وسقط الضوء في بقع حمراء وزرقاء على بشرتي حيث التمعت الشمس. تزوج والداي في الصيف السابق لولادتي، لذلك غالبًا ما كان الجو مشمسًا عندما كنا نأتي للاحتفال بالذكرى السنوية. وكانت هذه هي الكنيسة التي وقفا بالخارج أمامها وهما يضحكان في صورة الزفاف تلك التي كانت لدينا على جدار غرفة المعيشة.

مثل مارمادوك، كانت الأحرف الأولى المنقوشة من اسميهما لا تزال موجودة هناك، فمررت يدي عليها، وغمرتني كل الأحاسيس التي توقعت الشعور بها عند المنزل. حُفرت الأحرف الأولى من اسميهما في طلاء بني شاحب اللون، وكانت هناك أحرف أخرى منقوشة حولها: «ب. ر يحب ج. ل»، و«ك. ي. م تنتمي

إلى س. ا. س». تساءلت كم من هؤلاء الآخرين الذين نُقشت أحرف أسمائهم لا يزالون معًا، ولا يزالون سعداء.

عادت كل خسائري وجلست بجانبي وأنا جالسة على ذلك المقعد. لم أقتل أحدًا، ومع ذلك، شعرت كما لو أنني كنت الشخص الذي خسر أكثر من غيره.

لطالما دفعتُ تلك الأفكار بعيدًا عني. إذا لم يكن هناك من يهتم بأمرك، فلا جدوى من التفكير فيما لا تملكه، أو ما لم ترَه، أو ما لم تفعله. بمجرد دخولك إلى النظام، يتلقى أشخاص المال مقابل العناية بك، ولا بأس بذلك عندما يتعلق الأمر بالإفطار والأحذية الجديدة، لكن ليس عندما يتعلق الأمر بالمشاعر. كانت والدتي شخصًا تمكنتُ دائمًا من التحدث إليه، وكان والدي مفعمًا بالحب غير المشروط لي. ولا يمكن أن تُقارن بهما والدة بديلة تتسم بالهدوء، كما لن يفي أحد المعالجين بالغرض. ولم يكن هناك أي جدوى من البكاء على الدم المسكوب على أي حال.

لذا أبقيت نظري مثبتًا صوب الأمام، لكن من دون النظر إلى مسافة أبعد مما ينبغي، وسار كل شيء على ما يرام حتى الآن. كما ذكرت، لم أكن حبلى، ولا في السجن، ولا مدمنة. إلا أنني لم أكن شخصًا يعمل بكامل كفاءته أيضًا. لكن لتكن صادقًا: هل أنت كذلك؟ وهل يوجد أحد كذلك على الإطلاق؟

بدا الأمر برمته أشبه بمسرحية «ماكبث» وأنا جالسة في ذلك المقعد عصر ذلك اليوم، وقد جاءت الأشباح لزيارتي واحدًا تلو الآخر. كان هناك والدي، بعينيه الحنونتين ويديه الكبيرتين الخشنتين، ووالدتي ممتلئة الجسم ومبتسمة، وقد أحاط والدي كتفها بذراعه، بينما وضعت هي يدها الصغيرة على إحدى فخذيه الغليظتين. كما كانت هناك عمتي جاني، التي جاءت لقضاء اليوم معي وقررت أنها لا تستطيع أن تمنحني سكنًا. وكانت هناك جدتي لوالدتي، التي كانت أرملة طوال فترة معرفتي بها: كانت مصدرًا للراحة، ولأقراص معالجة السعال التي كانت تضعها في راحة يدي بعناية، حيث كنا أنا وهي الشخصين الوحيدين اللذين أحباها.

بعد ذلك زارتني ذكرى ناثان المزروعة في أعماقي، بكلماته الشعرية ويديه

الرشيقتين كالساحر، وصبره وثقته، والشعور بأنه أروع من أن يكون حقيقيًّا. ربما ساعدني ذلك الأسبوع الذي نعمت خلاله بالنوم والطعام وهواء البحر على أن أصبح أكثر هدوءًا، لكنه لم يقلل من اشتياقي إليه. وهنا انهار موقفي الزاعم بأنني «محطمة، لكنني ما زلت قادرة على الوقوف». أردت أن أكون معه، لكنني لم أعرف كيف، حيث لم يكن في وسعي الاستمرار على هذا النحو.

وبطبيعة الحال، كان التفكير في ناثان يعني التفكير في روب في بعض الأحيان، الذي كان لئيمًا ومتلاعبًا، وأدركت فجأة أين أخطأت التفكير. بدا الأمر كما لو أن القديس ذا الشعر المجعد قد منحني الجواب، ونفضه من وسط الضوء الذي تضمه عباءته.

لم أرَ حتى ذلك الحين أن لديَّ خيارًا.

لم يتمكن روب من اتخاذ قراراتي وتوجيه حياتي، لكنه كان يعلم ما سأفعله، وقد فعلته بلطف وعلى نحو متوقع مثل النادلة ذات المئزر الأبيض التي تُحضر الشاي إلى الطاولة. لكن إذا كان روب سيخبر ناثان عني على أي حال، فمن المؤكد أنه لن يكون لديَّ ما أخسره إذا أخبرته بنفسي. سأكون في الموقف نفسه، وستظل علاقتنا في وضع حرج، لكن على الأقل سأكون قد تصرفت على نحو صائب. هذا هو ما كان سيفعله ناثان، لأن ناثان لم يتردد قبل وضع ثقته فيَّ. كنت أتأمله وهو مستغرق في النوم في فراشي، وأتمنى أن أصبح مثله.

كان ناثان سيخبرني بكل شيء، لأنه أخبرني عن رهبة المسرح، ولم يكن مضطرًّا إلى ذلك. وقد راهن روب على كوني خائفة من أن يعرف الناس مَن أكون، وتركني أُفسد حياتي. لم أصدق أنه يريدني، بل أراد فقط أن يشعر كما لو أنه يتحكم في شيء ما. ذكَّرني بأولئك الأولاد في المدرسة، الذين يسرقون كتبك ثم يلقون بها في أقرب مرحاض أو نهر، أو نار، أو أي شيء آخر. لم يرغبوا في الكتب، بل أرادوا ألا تحصل عليها فحسب.

جلست في المقعد الخشبي وارتجفت، ورأيت أصابعي ترتعش. ثم رأيت أن قدمَي مزروعتان وثابتتان في الأرض بصلابة فوق العظام المدفونة. كانت الكنيسة

خالية من الناس، وصارت خالية من أشباحي أيضًا الآن. لم أدرِ كم من الوقت بقيت هناك، وبدا المكان الذي نُقشت فيه الأحرف الأولى من اسمَي والدَي باردًا تحت أناملي عندما مددتها نحوه مرة أخرى. إذا لم أُخبر ناثان بشأن والدَي، فسأسمح حينها لروب باختيار مصيري. اللعنة على ذلك. إذا فسدت الأمور بيننا أنا وناثان، فسنكون نحن المسؤولين عن ذلك. نهضت ووقفت ساكنة. كما اتضح لي، لم أكن أفتقر إلى الثقة في ناثان، بل في نفسي.

مررت بالمتجر في طريقي للخروج، واشتريت قلبًا حجريًّا رماديًّا مصقولًا، يجري به خط صدع أبيض، ووضعته في جيبي. وفي أثناء نزولي الدرج، اختلط عليَّ العدد، واضطررت إلى العودة إلى القمة مرة أخرى، لكنني لم أمانع ذلك.

خلال الوقت المتبقي لي في ويتبي، بالإضافة إلى القراءة والنوم والمشي والأكل، انشغلت بالتفكير في القصيدة التي أنوي كتابتها، ثم كتبتُها في آخر ليلة لي هناك. سهرت حتى الثالثة صباحًا وفكرت وكتبت، وعندما استيقظت في الصباح، صارت لديَّ خطة. حزمت أمتعتي وانتظرت بوق سيارة آرتشي المثير للضحك، والذي جاء متأخرًا خمسًا وأربعين دقيقة.

كان هناك جزء مني ينوي إخبار آرتشي في السيارة بكل شيء، في طريق العودة، للحصول على نصيحته، والاعتذار لأنني لم أخبره بكل شيء من قبل. وبمجرد أن رأيته، أتى كل شيء مندفعًا بسرعة، ليست الكلمات، بل المشاعر، فعانقته بقوة. استغرق الأمر منه لحظة لإبداء رد فعل، وأعتقد أنه كان مصدومًا.

وضعنا حقيبتي في السيارة وانطلقنا. أخذت أفكر من أين أبدأ الحديث، ثم أدركت أنه كان هادئًا، حتى وفقًا لمعايير الشخص العادي، وهو ما لم يسمع به أحد عندما يتعلق الأمر بآرتشي.

سألته:

- ما الخطب؟

قال:

- لا شيء.

لكنني لم أصدقه.

- أنت لا تنوي إغلاق المكتبة، أليس كذلك؟

قلتها مازحة، لكنه ثالث أسوأ كابوس بالنسبة إليَّ: الأول هو ظهور والدتي، والثاني هو عدم رؤية والدتي مرة أخرى أبدًا. أجل، أعلم.

قال:

- نعم.

قلت:

- آرتشي، أرجوك، أنت تخيفني. ماذا حدث؟

تنهد وألقى إليَّ نظرة قبل أن يعاود النظر إلى الطريق، وقال:

- طلبت من ميلودي أن تعمل يوم السبت، فلم تأتِ. كما لم يظهر لها أي أثر يوم الاثنين أيضًا. ظننت أنها قد تأتي وتفسر لي على الأقل سبب عدم تكبدها العناء، لكن لم أسمع منها شيئًا طوال الأسبوع. واليوم...

كنت أعرف ما هو آتٍ، أو على الأقل أي منحنى سيأخذه الحديث. كان يجب أن أبذل قصارى جهدي لتحذير ميلودي. كان ينبغي لي إخبارها بما فعله روب، بدلًا من تحسُّس طريقي حولها وإخبارها أن عليها التزام الحذر، كما لو أنها ستأخذ أي نصيحة مني. فكرت في روب في حفلة آرتشي، وما أبداه من الغضب والبهجة الخبيثة. كان لا بد أن ينفِّس عن ذلك بطريقة أو بأخرى.

فتحت النافذة للحصول على الهواء، وشعرت بالغثيان.

- وماذا بعد؟

- جاءت ونصف وجهها مصاب بالكدمات، من صدغها حتى فمها بالكامل، وإحدى عينيها متورمة ومغلقة. ذهبت إلى المستشفى فأخبروها أنها مصابة بشرخ في عظام الوجنة. وقد اختلقت قصة بشأن كيفية حدوث ذلك، لكنني اتصلت بروب وأمرته ألا يأتي إلى المكتبة مرة أخرى. عرضَت أن تعمل، لكنني أغلقت المكتبة لهذا اليوم.

هز آرتشي رأسه بحركة حزينة وبطيئة. وضعت يدي على ذراعه، وتابع قائلًا:

- كدت ألا أتعرف عليها يا لافداي.

قلت:

- يا إلهي.

سألني آرتشي:

- لم يؤذِكِ قَطُّ، أليس كذلك؟

فكرت في ناثان، وكيف سيقول الحقيقة من دون تفكير. ليس لأنه يتمتع بالحماية على نحو سخيف، بل لأنه صحيح.

قلت:

- لقد صفعني، وأخذ حذائي كي لا أتمكن من الرحيل. وعدت إلى المنزل مرتدية جوربَي في منتصف الليل. فكرت في الإبلاغ عن الأمر، لكنه لم يضربني بقوة كافية ليترك أثرًا. لديه دواء، لكن لا أعتقد أنه يتناوله دائمًا بشكل صحيح. ولا أعرف ما يكفي عن الأمر حقًّا كي أفهم ما إذا كان له أي علاقة بما يفعله.

قال آرتشي:

- أنا آسف.

قلت:

- لا تأسف.

وظللنا صامتين بقية الرحلة.

الشعر

٢٠١٦

الملح والبنفسج

اعتادت ميلودي القدوم إلى المكتبة في معظم الأيام.

حاولت أن أكون لطيفة معها. بدت أكثر هدوءًا، وهو أمر محزن، لكنه جعل وجودها أقل إزعاجًا، وقد ساعدني ذلك. صفَّفتْ شعرها بحيث يغطي نصف وجهها، لإخفاء بعض الضرر الذي لحق بها. كما غطت عينها السليمة بمكياج داكن، لمحاولة إخفاء الكدمات الموجودة على الجانب الآخر من وجهها الذي لم يعد مطابقًا. وقد أُصيبت عظمة وجنتها بكسر، لكنها لم تتزحزح من مكانها، لذلك كان الأمر مسألة وقت لانتظار الشفاء.

سألتها عصر يوم عندما كانت المكتبة هادئة عن السبب الذي دفعه إلى القيام بذلك، وبعد ذلك شعرت بالرغبة في عض لساني، لأنه من الواضح أن الجواب كان «لأنه وغد». قالت شيئًا عن كونه يمر بيوم سيئ، وتساءلتُ ما إذا كان هذا من نوعية الكلام الذي اعتادت والدتي قوله. استجوبت الشرطة ميلودي وهي في قسم الطوارئ، لكنها تمسكت بقصتها السخيفة، وأخبرتهم أنها «اصطدمت بالباب» (أو أيًّا كان ما قالت إنها اصطدمت به). قالت لي إنها تتلقى أجرها نقدًا خلال جولاتها السياحية كي تتفادى دفع الضرائب، وكان روب على علم بذلك، وظنت أنه سيبلغ عنها إذا أبلغت عنه.

خلال الأسبوع الأول التالي لعودتي من ويتبي، كان آرتشي يوصل ميلودي إلى المنزل بالسيارة في المساء، أو كنت أسير معها وأنا أدفع دراجتي. كانت تعيش

في منزل ضخم تتقاسمه مع آخرين، في مكان لا يبعد كثيرًا عن وسط المدينة. دائمًا ما كانت تدعوني إلى الدخول، ودائمًا ما كنت أقول:

- لا، شكرًا لك.

كنا بمنزلة صحبة بائسة، على حدٍّ سواء. وبعد عصر ذلك اليوم، لم تذكر أي شيء آخر بخصوص ما حدث مع روب، ولم أخبرها عن تجربتي معه أيضًا. فكرت في الأمر، لكن ذلك كان من شأنه أن يجعلني أشعر بالتحسن فحسب لعدم قول شيء ما في وقت سابق. كنا نلتزم الصمت أغلب الوقت، وفي المساء كنت أعود إلى المنزل وأعمل على قصيدتي. صرت أقل ثقة في الخطة التي بدت واضحة للغاية وأنا جالسة في مقعد الكنيسة في ويتبي، حيث كنت أرى جدواها، لكنني شككت في قدرتي على تنفيذها.

قَلَّ معدل بكائي، لكن الألم ظل كما هو تمامًا، وظللت طوال ذلك الوقت اللعين أفكر في ناثان. وعندما وجدت كتابًا قديمًا نفدت طبعاته عن ألعاب السحر عن قرب في أحد الصناديق، وضعته جانبًا من أجله، وأدركت أن ما يساعدني على الاستمرار لم يكن تقبل الوضع، بل الأمل. ولم أعرف ما إذا كان ذلك شيئًا جيدًا أم سيئًا.

كانت لافداي التي جلست في ويتبي بعينين صافيتين وسط سكون الكنيسة تعلم أن الوقت حان للمُضي قُدمًا، وسرد حكاية جديدة. أما لافداي التي تعيش الحياة اليومية، فبدأت تعتقد أنها مرَّت بلحظة عابرة خلال إجازة فحسب. حيث إن آرتشي يذهب في إجازة لمدة أسبوعين كل عام، ودائمًا ما يكون مليئًا بالأفكار عقب عودته. كانت إحدى أحدث أفكاره تلك هي إنشاء سيرك أدبي متنقل يتضمن المهرجين وآكلي النار والكتب. (أنا: «الكتب والنار؟ حقًّا؟»). أما الفكرة التالية لها، فكانت شراء شاحنة آيس كريم وتجهيزها كمكتبة لبيع الكتب في المناطق السياحية في الصيف. (أنا: «ستخيب آمال مائة طفل يعانون من الحرارة، وكانوا يشعرون بالسعادة. أنا وأنت قد نعتقد أن الكتب أفضل من الآيس كريم، لكني لست متأكدة من أننا نمثل الأغلبية».). ها قد فهمت خلاصة الأمر. ما يبدو رائعًا

في أثناء الإجازة، يقع على الخط الفاصل بين ما هو غبي وما لا يمكن الدفاع عنه عقب عودتك.

لذا وعلى الرغم من أنني عملت على القصيدة التي كتبتها في ويتبي، فلم أكن متأكدة أنني سأفعل بها شيئًا. كان هناك جزء مني سيفعل، وكان ذلك أفضل جزء، لكنه كان متوترًا، ولا يمكن الاعتماد عليه.

أوفى ناثان بوعده، وابتعد. حسنًا، كان هذا متوقعًا، أليس كذلك؟ لم يأتِ إلى المكتبة، أو لم أكن موجودة هناك إذا جاء. لكن من المؤكد أن ميلودي كانت ستشي به لو أنها رأته.

أخذت كتاب ديليا سميث إلى شقتي، لكنني ثبتُّ البطاقة البريدية على لوحة الإعلانات التي كُتب عليها «عُثر عليه داخل كتاب». أعتقد أنها كانت طريقة لإخفائها ولكن على مرأى من الجميع. شعرت بأنه سيكون من الغريب أن آخذها إلى المنزل، فليست لديَّ صور ولا رسائل ولا شيء من حياتي السابقة (ما عدا أنا مع الأسف). قالت أنابيل إنها ستحتفظ لي بالأشياء التي لم آخذها معي عند رحيلي. وأنا متأكدة أنها فعلت، لكنني لست في حاجة إليها. لذا أخفيت خط يد والدتي على لوحة الإعلانات حيث يمكنني مطالعته إذا أردت، لكن من دون أن يمكنه التسلل إلى يدي في منتصف ليلة من الأرق.

وصلت إلى العمل في الساعة الحادية عشرة صباحًا كالعادة، في يوم الأربعاء التالي، وبدت ميلودي شاحبة أكثر من المعتاد. بدأت الكدمات تتحول إلى اللون الأصفر ولم تتمكن من إخفاء تلك المسحة من الصفرة بالمكياج، لكن الأمر كان أسوأ من ذلك. أتت نحوي مباشرة عندما فتحتُ الباب، وتبعتني إلى الخلف.

قالت:

- لافداي، روب موجود هنا، في المقهى المجاور، وقد لوَّح لي عند مروري.

سألتها:

- هل أنت متأكدة؟

لماذا أقول شيئًا مفيدًا في حين أنني أستطيع التفوه بشيء غبي؟ أومأت برأسها، وشعرتُ بالرغبة في إخبار آرتشي، لكن فجأة نظرت إلى ميلودي وإلى وجهها الصغير الذي على شكل قلب والذي بدا عليه الخوف، فشعرت بالغضب الشديد إلى درجة أنني لم أستطع ترك الأمر لعجوز أصلع يدخن الغليون. إذا كان لا بد من تسديد الركلات، فسأكون أنا من يتولى تسديدها. قلت لميلودي أن تبقى في مكانها.

كان روب لا يزال هناك، جالسًا على إحدى الطاولات بجانب النافذة، وتصنَّع الابتسام عندما رآني أقترب. لا أعرف لماذا ظننته وسيمًا من قبل.

قال:

- حسنًا، مرحبًا يا لافداي. هل رأيتِ والدتك مؤخرًا؟ لقد سمعت أن زيارة السجن يمكن أن تكون طريقة لطيفة لقضاء يوم الأحد، إذا لم يكن لديك أي شيء آخر تفعلينه في حياتك.

قلت بهدوء:

- اخرس، وارحل من هنا، ولا تفكر حتى في القول إن هذه بلاد حرة. إذا لم تنهض وتذهب، فسأتصل بالشرطة. سنخبرهم أنا وميلودي بما فعلته، وبعد ذلك سنرى مدى شجاعتك.

عقد ذراعيه، ثم فكهما مرة أخرى وتناول رشفة من القهوة، التي ظننت أنها باردة على الأرجح. راهنت على كونه خائفًا بدرجة أكبر مما يبدو عليه، كما كنت أنا خائفة أكثر مما بدا عليَّ. كل ما كان عليَّ فعله هو الصمود فترة أطول منه.

رفع عينيه، فتراجعت إلى الوراء، مجرد نصف خطوة، واسترخت كتفاه لحظة، حتى فتحت فمي.

رفعت صوتي بما يكفي لجعل الناس يتلفتون حولهم ويستمعون، وقلت:

- أعتقد أننا سنكتشف أنك لا تضرب سوى النساء. هل تعلم أنك كسرت عظام وجنة ميلودي؟ بماذا ضربتها؟

حينها بدا عليه الخوف لحظة، وأحسست بالإثارة - قد يكون الأمر بهذه

البساطة - ثم شعرت بالغثيان، فكيف أكون مختلفة عن والدي إذا كنت أستمتع بتهديد شخص ما؟ ثم تذكرت كيف أن والدتي لم ترتكب أي خطأ، وفكرت في ميلودي، وهي تحاول النوم، وفي كل مرة تستيقظ فيها عند الاستلقاء على الخد الخطأ.

سألته:

- هل دفعت الحساب؟ سأرافقك إلى الخارج.

رفع روب يديه في استسلام على نحو ساخر، بإيماءة تعني «فلتفعلي ما تشائينه»، ونهض واقفًا. استعاد رباطة جأشه بما يكفي لمحاولة حفظ ماء الوجه، ووقف يجمع أغراضه، ثم خطا مقتربًا مني من دون أن يلمسني ونظر في عينَي مباشرة.

قال:

- سأتبعك، قودي الطريق.

وقد فعلت، لأن المساحة كانت أصغر من أن أجعله يتقدمني، على الرغم من استيائي لكوني مضطرة إلى تنفيذ ما قاله. وبمجرد أن صرنا على الرصيف بالخارج، استدرت ورأيت أن آرتشي وميلودي يراقباننا من نافذة المكتبة. أومأت إليهما: أنا بخير. استغل روب الخطوات القليلة خلال طريق الخروج ليستعيد توازنه وعاد لسخافته. استرخى في ضوء شمس أوائل الخريف ويداه في جيبيه ونظر إليَّ كما لو أنني وجبة عشائه، وقال:

- كان ذلك مثيرًا للغاية.

فكرت أكثر من مرة في سؤاله عن والدتي، لكنني عرفت أنني لا أستطيع ذلك. بداية، لن تكون لديَّ أي وسيلة لمعرفة ما إذا كان سيخبرني بالحقيقة، وتجمد قلبي تمامًا عند التفكير في نطق اسمها أمامه. لكن في تلك اللحظة، كان في إمكاني الركوع والتوسل للحصول على أي معلومات. أخذت نفسًا عميقًا، ولمست قلادة حجر الليجنيت المحيطة بعنقي، وركزت على المهمة الكائنة أمامي. كنت أجيد ذلك.

قلت:

- روب، عليك الحصول على المساعدة، من فضلك. لا أدري ما الذي يحدث، لكني أرى أنك لست على ما يرام. أعتقد أن هناك شخصًا طيبًا في أعماقك، فلتساعده.

للحظة، ظننت أنه على وشك البكاء. نظرنا إلى بعضنا، ثم رمش لإبعاد الدموع، وقال:

- ربما أراك لاحقًا في الأمسية الشعرية؟

قلت:

- نعم، سوف تراني.

سعدت لرؤية الصدمة على وجهه. لا بد أنه ظن أن سؤاله هذا بمنزلة ضربة محكمة، كما لو أنه ضرب عصفورين بحجر واحد: «لا يمكنكِ منعي من فعل ما أشاء»، و«لا تنسَي أنني أعلم أنك كذبت على الأشخاص الذين تحبينهم».

سار مبتعدًا بينما ظللت واقفة، وقد بت الآن ملتزمة بمسار العمل الذي لم يكن من الممكن أن يتخذه سوى الجزء الأقوى والأفضل والأكثر شجاعة من شخصيتي.

أدركت حينها أن آرتشي خرج من المكتبة ووقف خلفي، ووضع يده الكبيرة على كتفي. كانت يده ثابتة، وسخنت بشرتي تحتها، وحينها أدركت أنني أرتجف.

قال:

- كانت تلك شجاعة منك، لكن لا تفعلي ذلك مرة أخرى يا لافداي.

قلت:

- آرتشي، هل ستأتي إلى الأمسية الشعرية الليلة؟

واجهت صعوبة في إقناع آرتشي بألا يفعل شيئًا لروب في الحانة، لأنني أردته أن يسمع قصيدتي. وواجهت صعوبة أكبر في إقناع ميلودي بعدم الحضور، وقد فشلت تمامًا في الواقع، حيث قالت:

- لا يمكن أن تخضع ميلودي للتهديد طوال حياتها.

وفكرتُ: «حسنًا، أحسنت القول». أربكنا جميعًا ظهور روب في المقهى.

أرسلت إلى ناثان رسالة نصية، وطلبت منه وضع اسمي على قائمة الشعراء الذين سيلقون قصائدهم. واتضح أنه لا جدوى من حذف رقمه من هاتفي، لأن أناملي كانت لا تزال تتذكره. وقد أجاب على الفور برسالة نصية بسيطة: «تم». وفي وقت الغداء، دخلت من الباب المكتوب عليه «خاص»، وجلست على الكرسي، وتأكدت من حفظ قصيدتي عن ظهر قلب. أردت أن أكون قادرة على النظر في عينَي ناثان مباشرة عندما ألقيها، وأردت ألا أتلعثم.

أغلق آرتشي المكتبة مبكرًا وأخذنا أنا وميلودي لتناول وجبة. ذهبنا إلى مطعم يوناني يقع في شارع موازٍ، على بُعد نحو ثلاث دقائق سيرًا على الأقدام. ولم يسبق أن ذهبت إلى هناك قَطُّ.

قال المالك:

- آرتشي! لا بد أنه قد مرَّ خمسون عامًا منذ حادثة أوديسا!

أعتقد أحيانًا أنني في الواقع جزء من عرض فني هائل من نوع ما، وفي يوم من الأيام سينحني آرتشي على سبيل التحية، وسأكتشف أنه لا يوجد عنصر واحد حقيقي من عناصر حياتي منذ أن دخلت المكتبة أول مرة.

تناولنا المسقعة والسلطة. ولا أعتقد أننا طلبنا شيئًا، بل أظن أنهم قدموهما لنا فحسب، وتحدث آرتشي من دون توقف عن الوقت الذي بدأت فيه العمل معه، فتركته يواصل الحديث. وقد أدى مسرحية مصغرة من نوع ما، حيث لعب أدوار العميل وأنا ونفسه.

العميل: معذرة، هل لديك كتاب عن زراعة الكروم؟

أنا: ربما.

آرتشي: أعتقد أن ما تقصد لافداي قوله هو: «دعني أريك أين يمكنك العثور على مثل هذا الكتاب بالتحديد».

ضحكت ميلودي بصوت عالٍ بلا داعٍ، ولم يكن لديَّ مانع تقريبًا. وكان آرتشي

على حق جزئيًا، لكن ما لا يعرفه هو أنه على الرغم من أنه قد يعتقد أنني تحسنت كثيرًا عمَّا كنت عليه في السابق فيما يتعلق بهذه الأمور، فإنني ما زلت أعتقد أن معظم الناس مزعجون، لذا فأنا الفائزة.

لم أرَ آرتشي وهو يدفع الحساب، تمامًا كما لم أرَه وهو يطلب الطعام، لكن قبل رحيلنا، شاهدته يضع في حقيبته علبة من علب القصدير المخصصة للوجبات الجاهزة، وخمنت أنها بقلاوة، حيث لم يتسنَّ لنا الوقت لتناول التحلية. سألني مرة أو مرتين عمَّا إذا كنت بخير، وأجبت بالإيجاب، لكنني لم أكن كذلك. كما سأل ميلودي، فقالت:

- ميلودي لا تزال ميلودي.

مما بدا أمرًا مشجعًا نوعًا ما، لأنها لم تعُد تمامًا لطبيعتها المتسمة بالغرابة منذ أن تعدى عليها روب بالضرب.

مشينا إلى الحانة، لأن آرتشي كان في حاجة إلى ملء غليونه بالتبغ، ثم سار بخُطى متمهلة وهو يدخنه، وبعد ذلك خاض محادثة طويلة مع الرجل المتشرد الذي ينام في أحد المداخل، ثم حديثًا آخر مع امرأة كانت تواجه صعوبة في العثور على منزل صديقتها، لم نصل إلا قبل الساعة الثامنة بقليل. وعندما شرعنا نصعد الدرج، سمعت نهاية إعلان ناثان للتنبيه إلى أنه لم يبقَ إلا خمس دقائق.

كان أول شخص رأيته عندما دخلت هو فانيسا، التي تقدمت نحوي وعانقتني. لا أجيد التعامل مع الأحضان غير المتوقعة، لكنني ابتسمت وقلت إنني سعيدة لرؤيتها، وكان ذلك صحيحًا بالفعل.

قالت:

- ناثان عند البار، يجلب لك جيمليت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلت:

- شكرًا.

لم أستطع التفكير في أي شيء آخر لأقوله لذلك قدمتها إلى ميلودي. جلستُ إلى ما حسبتها طاولتي المعتادة، واستمعت إلى ميلودي تثرثر بينما فانيسا تبدي

إعجابها بزيها المؤلف من حذاء من طراز دوك مارتنز وفستان من الحرير من الثمانينيات له كم ممزق، وبدت أشبه بالسيدة هافيشام[1] وهي تعمل في البستنة.

جاء ناثان، وكلما اقترب منا، زادت رغبتي في الجري نحوه، والبكاء، ولمسه، والتحدث من دون تفكير، والاختباء، وتقبيله، وبشكل عام، التصرف كما لو أنني شخصية ابتدعتها باربرا كارتلند[2] للتو. وبطبيعة الحال، لم أفعل أيًّا من تلك الأشياء، بل جلست هناك فحسب مثل... حسنًا، مثلما أكون أنا بلا شيء أقوله وبلا كتاب يمكنني الاعتماد عليه. وضع مشروبي أمامي ثم قبَّل وجنتي برقة أمام أذني، وبدت عيناه - خلال اللحظة التي تجرأتُ فيها على النظر إليهما - كما لو أنهما تطرحان ألف سؤال. شعرت بنفسي أميل تجاهه.

أثارني مجرد صوته وهو يقول:

- وضعت ترتيبك بعدي مباشرة، هل يلائمك ذلك؟

قلت:

- نعم.

شعرت بصوتي يحتبس، ولم أكن متأكدة أنني سأستطيع القيام بهذا.

ثم دخل روب. لم أرَه في بادئ الأمر، لكنني رأيت وجه ميلودي يتجمد في منتصف الحديث، ونظر إليَّ آرتشي وهو جاهز للتحرك، إما كي يأتي إلى جانبي، وإما كي يدفع روب أسفل الدرج الحلزوني، لم أكن متأكدة أيهما سيختار. أومأت إليه برأسي: دعه وشأنه.

لاحظ ناثان النظرات المتبادَلة حوله، ورأيت أنه أدرك ما حدث. بدا من المؤلم أنني قادرة على قراءته بسهولة هكذا، وفي الوقت نفسه فقد جعل ذلك ما كنت على وشك القيام به يستحق كل هذا الجهد.

---

(١) الإشارة هنا إلى شخصية السيدة هافيشام في رواية «آمال عظيمة» للكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز. (المترجمة).

(٢) باربرا كارتلند: كاتبة إنجليزية اشتُهرت بكتابة روايات رومانسية، حيث ألفت أكثر من ٦٥٠ كتابًا، وغالبًا ما تحوي أعمالها مشاعر قوية وعواطف مكثفة. (المترجمة).

قال بحيث لم يسمعه أحد سواي:

- يا إلهي، وجه ميلودي! هل كان روب هو الفاعل؟

قلت:

- نعم، كانت تعلم أنه قادم.

نظر إليَّ ناثان، ونظرت مباشرة إلى عينيه، وهو ما كنت أتجنبه، وقلت:

- ثق بي.

قال بهدوء:

- سأفعل إذا فعلت أنتِ.

فكرت: «أصبت!». كنت أستحق ذلك. ثم نظر إلى ساعته، وقال:

- هل نبدأ؟

نهض قبل أن أتمكن من قول أي شيء، وحالما رأيته واقفًا هناك انتابني شعور عكس التوتر، وكان هذا آخر ما أتوقعه. صفق بيديه ثلاث مرات بقوة ثم بدأ يتكلم وبدأت أنا أستمع.

سيركب المتسولون[1]

كما ألقاها ناثان أفوري في حانة جورج والتنين، يورك، أكتوبر ٢٠١٦

لا أفتقد الأشياء التي ظننت أنني سأفتقدها.

حسنًا، أفتقد المضاجعة - ومن عساه لا يفتقدها - وأفتقد فكرة وجودك ذاتها.

أفتقد كوني واحدًا من اثنين يؤلفان زوجًا.

أفتقد غسل اثنين من كل شيء في مطبخك، وشراء كوبين من القهوة في المقهى المجاور لمكان عملك.

(١) العبارة مستوحاة من مثل إسكتلندي: «لو كانت الأمنيات خيولًا، لركبها المتسولون». (المترجمة).

هذه أشياء أفتقدها.
هذه أشياء كان يمكنني أن أتوقع افتقادها.
حتى الآن، يبدو انفصالًا عاديًّا.
لكنني أفتقد أشياء أخرى.
إذا حصلتِ على وشم جديد، فلن أتمكن من تخمين من أي كتاب أتى،
لذا لن أنجح أبدًا في حل لغز العبارات الافتتاحية المفقودة.
أفتقد تعبير وجهك عندما تقرئين، وارتعاشات جسدك في أثناء النوم.
أفتقد سخريتك وذكاءك.
أفتقد قلبك الطيب
الذي تحاولين إخفاءه جاهدة.
أتمنى لو أخبرتني بما فعلته كي أدفعك إلى الرحيل، وكيف يمكنني التراجع عنه.
أتمنى لو تحدثت إليَّ.
أتمنى لو كنت لا أزال أشتري كوبين من القهوة في المقهى المجاور لمكان عملك.

كانت هناك لحظة بعد انتهاء ناثان شعرت خلالها بكل رأس في الغرفة يلتفت نحوي، ولم يرفع هو عينيه عني، كما لم أنظر إلى أحد سواه. أومأت برأسي، لأنني لم أعرف ما تعبير الوجه الملائم لقول: «إذا كان شعورك سيظل على هذا النحو بعد سماع ما سأقوله، فيمكننا التحدث حينها».

بدا قلبي ثابتًا، لكن ساقَي نسيتا وظيفتهما عندما نهضت، وترنحت، فأمسك بي ناثان من مرفقي.

سألني:

- هل أنت بخير؟

فأومأت برأسي ثانية، وابتسم.

شعرت بأنني لست مستقرة تمامًا، ولم أعرف ماذا أفعل بيدَي، اللتين مالتا إلى التشبث ببعضهما، لكنني لم أرغب في أن أبدو كأنني أتلو شيئًا ما في أحد الاجتماعات. لذا وضعت يدي اليمنى أعلى حامل الميكروفون ويدي اليسرى في جيب بنطالي الجينز، حيث عثرت على الحجر الذي على شكل قلب الذي اشتريته في الكنيسة في ويتبي والذي حملته معي منذ ذلك الحين لتذكيري بمدى الشجاعة التي ظننت أنني أستطيع التمتع بها عصر ذلك اليوم.

نظرت إلى وجه ميلودي المحطم، وملامح آرتشي الجادة، وعينَي روب اللتين تتفحصانني وبهما نظرة بمعنى «إذا آذيتني فسأوذيك»، ثم نظرت إلى ناثان وأبقيت عينَي على وجهه، وبدأت.

يمكنني أن أكون شجاعة.

تفوهت بأول كلمتين، وشعرت بمدى ضعف صوتي.

وضع ناثان يده على بطنه على سبيل التذكير: «تنفسي من هنا». توقفت، وأخذت نفسًا عميقًا بقدر الإمكان، ثم زفرت، وبدأت مجددًا.

اعتراف

كما ألقتها لافداي كاردو في حانة جورج والتنين، يورك، أكتوبر ٢٠١٦

قتلتْ والدتي والدي، لأنه اعتاد ضربها وهذه هي بدايتي، ونهايتي،
إلى حدٍّ بعيد.
هذه هي قصتي، حتى الآن.
لم أعرف كيف أخبرك.
فأنا لا أخبر أحدًا.
لا أعرف من أين أبدأ

لا أعرف كيف أكتب نهاية أخرى.
إذا أخبرتك عند لقائنا، قد لا تحبني، أو قد تظنني متضررة، وتخاف، أو قد تظنني متضررة، ويعجبني ذلك.

قد تظن أنه آذاني
لم يفعل قَطُّ
ظننته رائعًا
وكان كذلك بالفعل، مع طفلة.
قد تسامح والدتي إذا ظننتها تحميني
سأخبرك بالتالي بلا سبب: كانت محطمة، أكثر مني بكثير
أضلع محطمة، وأسنان مكسورة، وعينان سوداوان.
عندما وصلت الاختصاصية الاجتماعية، تظاهرت والدتي بعدم حدوث أي شيء، ووقفت بجانب رجلها، حتى تخلت عنه

قالت والدتي إنه كان حادثًا
وأعتقد أن هذا صحيح
كانت الأمور سيئة، لكن ليست بهذا السوء
كانت مجرد ليلة أخرى
المحاكم، والشرطة، والرعاية البديلة
لم يكن الأمر بمنزلة نزهة، لكني لم أهتم
فقدت كليهما: والدي أولًا، ثم والدتي
انتقلت إلى مكان جديد، حيث لا يعرف أحد اسمي
حزنت، وغضبت، وانتظرت
زرت والدتي في السجن، لكنني كرهت ذلك

قررت أنني أفضل حالًا مع كتبي
جربت أن يكون لديَّ صديق، وكان فظيعًا.
ثم قابلت آخر، وكان أنت

كان لديَّ بيت آخر، لكنني لم أستطع النطق به. كان مقطعًا من نوع: «هأنت تعلم الآن»، وأعتقد أنني فكرت في إلقائه وعيناي على روب، لكنني لم أستطع إبعاد عينَي عن ناثان، الذي أومأ برأسه عندما قلت «وكان أنت»، وبدا لي أنه كان يبكي. لذا وقفت ساكنة، ولم أستطع فعل أي شيء آخر، بينما عمَّ السكون المكان بأكمله.

فكرت كثيرًا في القصيدة، وفي الوقوف لإلقائها، وما إذا كان في إمكاني فعل ذلك، لكن لم أفكر فيما سيحدث بعدها. أعتقد أن الأمر كان أشبه بالقفز من أعلى منحدر: يتعلق الأمر كله بدفع قدمَي للقيام بعكس ما تمليه عليهما غريزتهما الساعية إلى التشبث بالأرض الثابتة. أعتقد أنني افترضت أنه بمجرد أن أصير في الهواء، فلن أضطر إلى اتخاذ أي قرارات أخرى.

ثم وقف آرتشي وهو يصفق ويصيح: «أحسنت!»، كما لو كان في أوبرا لعينة.

مضى روب في طريقه، وهو يهبط الدرج، وبذلك أنجزت المهمة في هذا الصدد.

أخذت ميلودي تبكي، وهي تبكي عند رؤية الصور التي تجدها على الإنترنت لقنافذ داخل فناجين شاي، لكن هذه الدموع كانت مختلفة. ثم وجهت إليَّ ابتسامة.

وقف ناثان وأومأ برأسه، ثم بدأ يتوجه نحوي. فكرت كيف أنني اخترت قصيدة، لأنها وسيلة لعدم التحدث، ولم أكن مستعدة للمواجهة، ليس في ذلك الحين.

لذا اندفعت مسرعة من فوق المسرح الصغير، متجاوزة أفراد الجمهور، وتوجهت إلى الحمَّام وانتظرت. فتحت الصنبور، وغسلت وجهي، وفكرت في البحر. ظننت أنني أعرف ما سيحدث بعد ذلك، وبالفعل، استمر العرض.

بعد دقيقة أو دقيقتين، ملأت القصيدة التالية الفراغ الذي خلَّفته، ساعية إلى جذب الانتباه، وسمعت الضحكات والتصفيق، وفكرت كم هو غريب ألا يعود لديَّ سر.

انفتح الباب، وكانت فانيسا.

قالت:

- مرحبًا.

قلت:

- مرحبًا.

واستعددت، لكنها لم تأتِ لعناقي.

اكتفت بأن قالت:

- كانت تلك شجاعة منك.

قلت:

- لا أدري.

قالت:

- أنا أدري، وأعرف أنه ليس لديَّ حق في قول هذا، لكنني فخورة بمعرفتك يا لافداي. لا أستطيع أن أتخيل ما مررتِ به.

قلت:

- شكرًا لك.

قالت:

- ناثان في انتظارك. قال إن الشعراء يمكنهم أن يتولوا أمر أنفسهم، ولا داعي إلى أن تتحدثي عن الأمر، لكنه يرغب في رؤيتك. إنه بالطابق السفلي.

قلت:

- حسنًا.

وقف على الرصيف خارج الحانة، وقدم لي ذراعه كرجل نبيل محافظ يرتدي ربطة عنق، فقبِلتها. انتابني الإحساس الذي يشعر به المرء عندما يخرج للتمشية

عقب هطول المطر، كما لو أن كل شيء يبدو مختلفًا، وأفضل، حتى الأرصفة والمباني غير اللافتة للنظر التي يمر بها كل يوم.

سألني:

- إلى أين؟

كنت أعلم أنه لو كانت هذه قصة خيالية، لقلت: «إلى منزلك»، لكنني لم أكن مستعدة لذلك. والآن، بعد أن لم تعد لديَّ أسرار، أردت أن أريه كل شيء.

قلت:

- لقد تركت شيئًا في المكتبة، يخص والدتي. أريد الذهاب لإحضاره.

فجأة، أردت أن تكون البطاقة البريدية المصورة من ويتبي بين يدَي. شعرت كما لو أنني قد اقتربت خطوة من والدتي الليلة.

قال:

- حسنًا.

واصلنا السير في هدوء، ويده على يدي الظاهرة من منحنى ذراعه. ظننت أن مشاعر أقوى من هذه سوف تجتاحني: نوع من الشعور الهائل بالتحرر من الأعباء، والارتياح، والدوار، والرغبة في البكاء. ربما قرأت عددًا من الكتب أكثر مما ينبغي. كل ما شعرت به هو التعب فحسب.

قال عندما وصلنا إلى المكتبة:

- ماذا لو ذهبت لشراء شيء نشربه؟ يمكنني الذهاب إلى شقتك، ولا أتوقع قضاء الليلة.

كان هناك على الناصية متجر أنيق لبيع الخمور، أسعاره باهظة بالنسبة إليَّ.

قلت:

- حسنًا.

يا إلهي، كم كانت رفقته سهلة. تساءلت عمَّا إذا كنت سأصبح أنا أسهل رفقة الآن، بعد أن لم تعد عليَّ حماية أضعف نقطة لديَّ. كان من السابق لأوانه معرفة ذلك. قلت:

- لن أتأخر.

قال:

- لقد أذهلتني. أنت شجاعة، ولا أعني الليلة فحسب، بل ذهابك إلى ويتبي على هذا النحو، على الرغم من كل تلك الذكريات الفظيعة.

قبَّل أعلى رأسي، ثم توجه إلى متجر الخمور.

أغلقت الباب خلفي، لكنني لم أُشعِل النور، حيث كان ضوء الشارع كافيًا بالنسبة إليَّ كي أصل إلى لوحة الإعلانات. انتزعت الدبوس من البطاقة البريدية، وتركت نفسي أفكر في كل ما فقدته. شعرت بالحنين، والغضب.

طويت البطاقة المستطيلة بحيث كانت الكتابة نحو الداخل، وصورة ويتبي جهة الخارج، ووضعتها في جيبي بجوار الحجر الذي على شكل قلب.

ثم أدركت الأمر.

لم يكن هناك شيء في قصيدتي عن ويتبي. ربما أخبر آرتشي ناثان أنني ذهبت لقضاء إجازة هناك، لكن لم يكن أحد يعرف سبب أهمية المكان بالنسبة إليَّ. على حد علم ناثان، كنت فتاة ريبون.

لا عجب أنه كان هادئًا للغاية. كان يعرف بالأمر.

بدأ العالم يدور بي فجأة الآن، وليس على نحو جيد، بل بطريقة مصحوبة بذعر أشبه بذاك الذي ينتاب المرء وهو يتوسل لعدم إلقاء حقيبته من حافلة المدرسة.

عدت بذاكرتي إلى وقت لقائي به. لم تبدأ الكتب في الوصول إلا منذ ذلك الحين: كلاسيكيات بينجوين أولًا، ثم كتاب والدي، يلي ذلك كتاب الطهي الذي احتوى داخله على البطاقة البريدية.

لم يعترف روب بأن له أي علاقة بالكتب، ولم يكن من عادته ألا يشير إلى مدى ذكائه.

ولطالما بدا ناثان أروع من أن يكون حقيقيًّا.

لقد أمضى الصيف في كورنوال.

وقد أقامت عائلته في منزل صديقة لوالدته، تُدعى جين.

حسنًا، إنه ليس اسمًا غير شائع، لكن ماذا لو كانت صديقة والدة ناثان هي عمتي جاني؟ لو أن جاني حصلت على كتب والدتي في خضم حالة الفوضى والارتباك التي صاحبت إخلاء المنزل...

سمعت جلبة عند الباب، وأتى صوت ناثان:

- لافداي!

اختبأت وراء أقرب خزانة كتب كي لا يراني. حاول فتح الباب، وهزَّه ثم تراجع إلى الوراء، ونظر في كلا الاتجاهين عبر الشارع، وبعدها حاول فتح الباب مرة أخرى. أخرج هاتفه، وكنت أعلم أن هاتفي مغلق، لذا شاهدته ينتظر وهو يحدق إلى الشاشة.

سار مبتعدًا مرة أخرى، وظننت أنه في طريقه للذهاب إلى منزلي. سوف يستغرق منه الطريق ساعة للذهاب والعودة، لذا كل ما كان عليَّ فعله هو الانتظار في المكتبة لمدة أربعين دقيقة، وحينها سيكون قد وصل إلى هنا تقريبًا، أو عاد إلى الحانة. سيقطع الطريق المختصر، بينما أسلك أنا الطريق الطويل، بسيطة.

كان عقلي يقول: «حسنًا، يا لافداي، عندما يبدو شيء ما رائعًا بدرجة يصعب تصديقها، فهو ليس حقيقيًّا على الأرجح»، لكن قلبي قال خلاف ذلك.

ليس ناثان. ليس ناثان. ليس ناثان.

مرارًا وتكرارًا، ردد قلبي هاتين الكلمتين، كما لو أنهما قادرتان على تغيير الحقيقة.

كان ناثان يعرف عني أكثر مما أخبرته به. وفي كل مرة ظهرت فيها كتب والدَي، كان ناثان موجودًا في الجوار.

جلست على الأرض، وأسندت ظهري إلى خزانة الكتب، وساقاي ممدودتان أمامي حتى التمعت أضواء الشارع على طرف حذائي، وفكرت مرة أخرى في كل ما تذكرت أنه قاله، أو لم يقله. لا عجب أنه كان هادئًا للغاية حيال حقيقة أنني رفضت إخباره بأي شيء. كان يعرف كل شيء بالفعل. تساءلت عن السبب الذي دفعه إلى القيام بذلك، ثم حاولت التفكير في رجل أعرفه أحسن معاملة

النساء اللاتي كان من المفترض أنه يحبهن. ليس والدي، وليس روب، وحتى آرتشي كان يحبهن ثم يهجرهن.

فكرت في والدي، وكيف كانت والدتي تتحدث عنه قبل أن تسوء الأمور على نحو كارثي: «على الأقل مع والدك، يمكنك معرفة ما يشعر به دائمًا، يا لافداي». أعتقد أن ذلك ربما كان بعد نوبة غضب بسبب العمل، ووظيفة لم يحصل عليها. أخافني صياحه، ولم أفهم ما قالته حينها، لكنني أفهم الآن.

لذا هأنذا، عدت عزباء مرة أخرى، كما كنت قبل ستة أشهر، لكن كانت لديَّ وظيفة أحبها، ومدير يهتم بي، وشقة جيدة. كنت أستمتع بالبقاء وحدي، ولم يسلبني شيء ذلك. ربما أكون قد كشفت للتو عن أعمق أسراري وأكثرها قتامة أمام غرفة مليئة بالشعراء الطموحين، لكنني لم أكن غبية بما يكفي للاعتقاد أن الأمر يهم أي شخص غيري. وباستثناء ذلك، لم يتغير شيء.

ابتعد روب عن طريقي، وسيصبح آرتشي ودودًا بدرجة أكبر من المعتاد بعض الوقت، وستصبح ميلودي بمنزلة كابوس وهي تحاول الإلمام بكل القيل والقال، وما قد تعده أمرًا له بريق. لكن يمكنني الانتظار حتى ينقضي ذلك.

ويمكن أن يذهب ناثان إلى الجحيم.

تحسست ذلك الركن الذي أحتفظ فيه بأفكاري حول والدتي، ووالدي، والفوضى الهائلة التي أحدثاها في حياتهما، وبالتبعية حياتي أنا. لم يبدُ أن تسليط الضوء على الأمر قد أحدث أي تغيير، فلم يتضخم أو يتقلص. لو كنت سندريلا، فهأنا لم أعد إلى المنزل بعد منتصف الليل، وبقيت عربتي على حالها في نهاية المطاف. لكن في قصتي، لم تتحول العربة قَطُّ عن كونها يقطينة. هل أبدو منهَكة؟ حسنًا، فلنتبادل الأماكن ولنرَ كيف سيكون حالك.

كنت لا أزال أرتجف. وبعد ذلك، عندما أقنعت نفسي بالانتظار لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى، ثم العودة إلى المنزل حيث سأعد لنفسي طبقًا من الفاصوليا والخبز المحمص، أصابتني نوبة هلع.

احتبست أنفاسي، وآلمني صدري. شعرت بالبرودة في يدَي، وحلقي يضيق

كما لو أنه يحاول خنقي. فكرت في الوقوف، لكن لم تكن هناك طريقة أتمكن بها من ذلك، حيث بدا الأمر كما لو أنني مثبتة في الأرض بالمسامير، وكل شيء عالق، بلا طاقة ولا سيطرة على أطرافي.

كنت سأصرخ لو استطعت، لكنني عجزت عن تحريك فمي، وعلى أي حال، لم يكن هناك من يسمعني.

بدلًا من ذلك، بدأت العَد ببطء إلى الألف، ثم عدت إلى صفر مرة أخرى. عقب انتهائي من العد، لم أكن هادئة تمامًا، لكنني كنت في حالة يمكنني فيها الخروج من المكتبة والعودة إلى شقتي. أردت التفكير في ناثان، وفي والدتي، وما خطوتي التالية.

حينها ارتج الباب مرة أخرى. عاد ناثان بأسرع مما ظننت. لم أرغب في مواجهته الآن، وأنا خائفة وغير مستعدة. سأكتشف من أين حصل على الكتب ولماذا يفعل بي هذا، ثم سأواجهه بالطريقة نفسها التي واجهت بها روب في المقهى سابقًا. رفعت ركبتَي بحيث خرجت قدماي عن نطاق الضوء، وحبست أنفاسي، كما لو أن ذلك سيشكل أي فرق. أتت طرقات، ثم ارتج الباب مرة أخرى قبل أن يتوقف ويسود الصمت. أغلقت عينَي، وتحركت الصور خلف جفنَي: البحر، وكنيسة سانت ماري. حاولت أن آخذ نفسًا عميقًا، وفكرت في البطاقة البريدية الموجودة في جيبي، لكنني لم أكن في حاجة إلى إخراجها لألقي نظرة عليها. كان في وسعي رؤيتها في ذهني، بالوضوح نفسه الذي لا أزال أرى به وجه والدتي.

تحترق الكتب ببطء.

ولا سيما الكتب القديمة.

يتصاعد الدخان أولًا، حيث إن الكثافة البالغة للصفحات تعني عدم وجود هواء محيط من شأنه أن يؤدي إلى سرعة اشتعال الأوراق السائبة. وكانت المكتبة تعبق برائحة الدخان دومًا على أي حال، بسبب آرتشي الذي يحمل تبغ الغليون في جيوبه ويدخن غليونه في حِمى مدخل المكتبة عند هطول المطر.

ربما لهذا السبب لم أدرك على الفور أن ذلك الشخص الثاني عند الباب، الذي طرق الباب وهزَّه، لم يكن ناثان. كان شخصًا يحمل منديلًا مبللًا بالكحول، دفعه عبر صندوق البريد، تاركًا زاوية المنديل بالخارج، ثم أشعله وترك اللهب يومض ويندفع نحو الكتب والأوراق الموجودة على المكتب بالأسفل.

لا، لن تكون هناك جائزة لمن يخمن من أشعل عود الثقاب.

* * *

عندما أدركت، مع الشعور بالصدمة المروعة، أن الدخان كان أكثر من مجرد العبق الذي خلَّفه صاحب المكتبة في أرجائها، كانت النار قد سيطرت على المكان. لم يكن هناك كثير من اللهب، لكن عندما خرجت من خلف خزانة الكتب حيث اختبأت من ناثان، كان هناك جدار من الدخان تقريبًا. اشتعلت كومة الكتب والأوراق الموجودة على المكتب، وسقط بعضها على الأرض، مما أدى إلى سد طريقي إلى الباب.

كدت أركض عبر المكتبة، متجهة نحو الخلف حيث يوجد مخرج الطوارئ، وبالطبع لم أستطع تحريك المقعد اللعين.

ساد الظلام، وشعرت كما لو أن الدخان يلاحقني، وفجأة بدا المكان غير مألوف مثل غابة يلفُّها الضباب، لا يمكن اختراقها ومليئة بالساحرات.

انحشر ظهر الكرسي في المكان، ولم أتمكن من تحريكه. ركضت عائدة إلى مقدمة المكتبة - كانت هناك مطفأة حريق بجوار مكتب آرتشي - لكنني لم أتمكن من الوصول إليها بسبب النيران، وبدأت السعال ولم أستطع التوقف. ساد الصمت حتى ذلك الحين، لكن الآن صار في الإمكان سماع صوت طقطقة: اشتعلت النيران في الطاولة والكراسي الخشبية، على ما أعتقد.

كنت في حاجة إلى العودة إلى الباب الخلفي وتحريك الكرسي اللعين، سواء أراد التحرك أم لا. دائمًا ما كان آرتشي يتمكن من تحريكه عندما يأتي مفتشو الإطفاء، على الرغم من أنني عندما فكرت في الأمر تذكرت أنه في المرة الأخيرة اضطر إلى الاستعانة بشخص ما لمساعدته في ذلك. كان يمزح قائلًا إنه

مثل الأريكة العالقة على الدرج في كتاب ما لدوجلاس آدامز[1]. وعلى الرغم من هذا، كان عليَّ القيام بالأمر فحسب. لن أموت في حريق بينما ينبغي لي ركل مؤخرة ناثان، ذلك الكاذب.

عندما التفتُّ، رأيت أن الدخان تسلل خلفي أيضًا، على الرغم من أنه لم يكن كثيفًا في الجزء الخلفي من المكتبة بقدر ما كان في المقدمة. صارت هناك كتلة صلبة من النيران في المكان الذي كان يوجد فيه مكتب آرتشي.

جثمت منخفضة على مقربة من الأرض، وتساءلت عمَّا إذا كان يجب عليَّ الزحف أم أن ذلك سيجعلني أكثر عرضة للخطر. بدأت عيناي تدمعان - لكن هذا لم يقلل الشعور بالوخز - وبدأت أتلمس طريقي، مثل الأعمى، وأنا أشعر بالدوار والارتباك، متجهة نحو مخرج الطوارئ.

رسمت خريطة في ذهني، وجمعت بين ما أعرفه وما يمكنني أن أتحسسه، وتساءلت عن أفضل طريق بديل للخروج، إذا لم أتمكن من الوصول إلى الباب. فكرت في الزاوية الخلفية: الشعر، والمسرحيات، والخرائط. إذا انحشرت تحت المقعد هناك، هل سأحمي نفسي بذلك، أم أحفر قبري بنفسي؟

ازداد الدخان كثافة، وأخذت الحرارة تقترب، وتتحرك أسرع مني في الظلام. ظننت أنني أستطيع سماع إنذار الحريق، لكن ربما كان ذلك جزءًا من الطنين والهدير اللذين ملآ أذنَي. لم أستطع الثقة بحواسي. شعرت بظهري وساقَي تزداد حرارة، وعلى النقيض من ذلك، بدت معدتي باردة كالجرانيت، وقلبي في بياض الملح. كم بقي لي من الوقت قبل أن ينهار السقف؟ كم بقي لي من الوقت؟ ربما أُصاب بالاختناق أولًا من جراء استنشاق الدخان. كانت هذه تساؤلات رصينة ومدروسة، كما لو أنها من أفكار ستيفن هوكنج، أو ناتجة عن الشعور بالفضول.

بعد ذلك، شعرت بالذعر.

---

(١) دوجلاس آدامز: كاتب إنجليزي اشتُهر بأعماله الكوميدية، والإشارة هنا بالتحديد إلى سلسلة من تأليفه بعنوان «وكالة ديرك جينتلي للتحقيقات الشاملة»، حيث تشتري إحدى شخصيات الرواية أريكة وتظل عالقة على الدرج في أثناء محاولة توصيلها للشقة بالأعلى. (المترجمة).

قبل عشر دقائق، كنت سأقول إنني لا أهتم كثيرًا سواء عشت أو مت. لكن الآن أردت أن أعيش، وأرى ناثان، وأمشي على الشاطئ، وأقرأ كل الكتب التي لم أقرأها بعد، وأعثر على والدتي، ليس بهذا الترتيب بالضرورة.

فجأة، أراد جسدي أن يفرط في التنفس وينتحب ويبكي ويفعل كل الأشياء الأخرى التي ليس من الحكمة حقًّا القيام بها إذا كنت عالقًا في مبنى مشتعل، وواجهت صعوبة في إيقاف ذلك. ربما لم تكن لديَّ خطة حياة عظيمة، لكن من المؤكد أن الموت في حريق لم يكن جزءًا منها.

جفلت لصوت تحطم زجاج، وظننت أن إحدى النوافذ انكسرت. اندفعت النيران هادرة عقب ذلك، حيث ساعدها نسيم المساء على الاشتعال. يمكن أن تكون هذه نهايتي إذن. قد لا أكون بارعة للغاية في الفيزياء، لكنني أعلم أن النار أسرع من البشر، ولا سيما إذا عجزوا عن فتح الباب اللعين.

أتى الضجيج مندفعًا مع الهواء، وسمعت صفارات الإنذار التي بدت بعيدة للغاية، ثم أتى صياح من مسافة أقرب، واستغرق الأمر مني ثانية أو اثنتين حتى التقطت اسمي. حتى الهواء بدا ساخنًا، وبدت الرؤية والسمع أمرًا مؤلمًا.

لكن ها هو يجاهد وهو يشق طريقه عبر الدخان ليجدني: اسمي، وآرتشي ينادي به.

التفتُّ، على الرغم من أن الالتفات بوجهي نحو النار لسعني. شعرت باللهب وهو يجفف دموعي بالسرعة نفسها التي تسبب بها الدخان في انهمارها. حوَّلني التفكير في آرتشي إلى طفلة صغيرة، في حاجة ماسَّة إلى أن ينقذها أحدهم، وفتحت فمي وصرخت، على الرغم من أنني بالكاد أصدرت صوتًا، وابتلعت ملء رئتي من الدخان مرة أخرى. بدأت أسعل بشدة حينها، وأعتقد أن هذا هو الصوت الذي تبعه آرتشي، لأنني لم أسعل على ذلك النحو من قبل قَطُّ: كقط يسعل للتخلص من كرة فراء، وهو يختنق وسط الدخان. جثوت على ركبتَي.

كاد يصبح فوقي تقريبًا، قبل أن أراه، وبدا مثل ملاك الموت وقد رفع فوق رأسه معطفه الذي من طراز كرومبي. فتح ذراعيه وانحنى نحوي، ووقفت بينهما تحت

حمى معطفه الذي ضمَّ بين جنباته بعض الهواء المنعش. أخذت نفسًا أعمق من اللازم، وسعلت مجددًا، واستندت إليه.

أمسك بي – سقط المعطف فوق رأسي، ولم يكن باردًا تمامًا، لكنه لم يكن حارقًا بعد – وشعرت به يستدير وهو يلف من حولي. اندفع الدخان نحونا من الجانب الآن: اشتعلت النيران في الأرفف المليئة بكتب الخيال العلمي والروايات المصورة. كان ناثان خلف آرتشي، ممسكًا بمعطفه الجلدي فوق رأسه، ومرَّرني آرتشي إلى يدَي ناثان كما لو أنني رزمة. صاح آرتشي بشيء ما، أو حاول ذلك، لكن ما إن فتح فمه حتى امتلأت رئتاه بالدخان، وبدأ يسعل. التفتَ ناثان على الفور كما فعل آرتشي، ولف المعطف حولي، وهناك، أمامنا، كانت النافذة المكسورة فوق المقعد المجاور للنافذة، وطريق العودة إلى الحياة.

دفعني ناثان إلى الأمام، ووصلت إلى منتصف المسافة حيث كانت ميلودي وفانيسا على الجانب الآخر، ومدتا يديَهما لمساعدتي على العبور، وتثبيت خُطاي وأنا أعبر فوق حواف الزجاج.

ثم وقع اصطدام، وأتى صياح من المكتبة: آرتشي. تركني ناثان، وهويت نوعًا ما على الرصيف. سمعت صفارات الإنذار تقترب، وشعرت بالحرارة على ظهري، مما جعل هواء أكتوبر يبدو باردًا بالمقارنة.

لم أستطع النهوض، وعجزت ذراعاي وساقاي عن القيام بأي شيء، ولم أعد أكثر من رئتين وقلب وفم، وأنا أسعل وأصيح، وأحاول إخراج كل هذا الدخان وكل هذا الخوف مني. أمسكني أحدهم من الإبطين وسحبني عبر الطريق، بعيدًا عن النار.

أردت أن أنادي باسم آرتشي، واسم ناثان، لكن حلقي لم يسمح بخروج أي شيء. رأيت النار تشتعل في الرفوف الآن، وتلتهم الكتب حية، وامتلأ الشارع بالدخان. تدفقت الدموع من عينَي، وعندها فقط، في الهواء الطلق، بدأ جسدي يُعلِمني بكل أماكن الألم: العينان، والحلق، والأنامل، والمكان الذي كان من المفترض أن تكون فيه رئتاي. هاجمني السعال والاختناق، وبينما لسع الهواء

أنفي وأنا أتنفس، أردت أن تعمل ساقاي، وتستديرا بي وتعيداني إلى هناك. انتبهت للحديث من حولي - اسم ناثان وآرتشي - وتجمع مزيد من الناس.

امتلأ الهواء بكثير من الأشياء السيئة: السعال، والرماد، والنداءات، وصوت انهيار ما افترضت أنه سقوط رف كتب، والأضواء وصفارات الإنذار التي تصم الآذان الآن. فكرت فيما يمكن أن يكون السبب وراء ذلك الانهيار والصياح، وكيف أن ناثان أغبى وأطيب من أن يترك آرتشي هناك. ثم تذكرت أن ناثان لم يكن طيبًا قَطُّ، ومع ذلك ارتعد قلبي لفكرة وجوده محاصَرًا هناك.

رأيت هيئة شخصين يخرجان من نافذة المكتبة، أحدهما طويل والآخر ممتلئ الجسم مثل طائر الدراج، وشاهدتهما ينحنيان ويسعلان.

وقبل أن أدرك الأمر، كان هناك شخص يبدو لطيفًا، لكن له قبضة حازمة لم تقبل المقاومة، أمسك بذراعي وقادني إلى مؤخرة سيارة الإسعاف، حيث وضع قناع الأكسجين على وجهي. كانت يداي ترتعشان فوق ركبتَي، وغمرتهما البرودة الآن، وبدتا قذرتين وغير مألوفتين. شعرت بأن الأكسجين يؤذي حلقي أكثر من الدخان، وأيًّا كان ما يفعله في رئتَي، فلم أشعر أنه يساعدني في شيء، لكنني عرفت أنني إذا حاولت نزع القناع، فسيمنعني المسعِف الصارم من ذلك، كما شككت في قدرتي على رفع يدي.

كان المسعف يتحدث، لكن أذنَي لم تستوعبا شيئًا في الواقع. ضغط جهاز قياس ضغط الدم على ذراعي من الأعلى، ثم ارتخى وضغط مرة أخرى، وكان هناك مشبك على الإصبع الوسطى من يدي اليمنى، بدا في بياض العظم الآن مقارنة ببشرتي المغطاة بالسخام. رأيت قوسًا من الماء، وسرعان ما انضم إليه قوس آخر، يدخل عبر نافذة المكتبة.

الكتب، والنار، والماء. أغمضت عينَي، وكما لو أنني أعطيت المسعفين الإذن، أُغلقت أبواب سيارة الإسعاف ومضت في طريقها.

الشعر

٢٠١٦

أوه، الناس

إن استنشاق الدخان لا يقتلك - إذا كنت محظوظًا - لكن من المؤكد أنه لا يجعلك أقوى أيضًا. أحسست بالوهن، وقد آلمني التنفس، كما آلمني البكاء، لكنني لم أستطع التوقف عن البكاء. كنت طريحة الفراش في المستشفى، ولم أفعل شيئًا سوى النوم والسعال والبكاء طوال اليومين التاليين.

استجوبتني الشرطة، وتمكنت من التفوه باسم روب، والقليل الذي أعرفه عن مرضه. بدا من المستحيل أن يفعل ما فعله. عجز عقلي عن استيعاب الأمر، وتمنيت أن يكون قد ظن أن المكتبة خالية.

جاءت ميلودي لزيارتي، وبدت كدماتها أسوأ ولونها أكثر اصفرارًا، ولم تكلف نفسها عناء إخفائها بالمكياج. كانت ترتدي قميصًا رجاليًّا مقلمًا وسروالًا من الجينز، وأحاطت رأسها بوشاح، كما لو أنها تتقمص شخصية فتاة ريفية. أخبرتها أنها لا تزال تبدو أسوأ مني، لكنها لم تضحك.

قالت إن ناثان عاد إلى الحانة ليرى ما إذا كنت قد عدت إلى هناك أم لا، وقد رافقته هي وآرتشي وفانيسا وهو عائد إلى المكتبة. وعند وصولهم، كانت النار قد بدأت في الانتشار. اتصلت ميلودي برقم الطوارئ، لكن لم تكن هناك طريقة لمنع آرتشي وناثان من تنظيم حملة إنقاذ بنفسيهما.

قالت ميلودي:

- سيفعلان أي شيء من أجلك، يا لافداي.

ويُحسب لها أنها لم تكن مستمتعة بالوضع. أخبرَت الشرطة بما حدث في الأمسية الشعرية - ووضع هذا حدًّا لاعتقادي بأن «الأشخاص الوحيدين الذين يعرفون قصة لافداي هم مجموعة من الشعراء الذين سينسون كل شيء في غضون أسبوعين» - وعندما سألوها عن عينها، أخبرتهم أن روب هو من فعل ذلك. وقد ذهبوا إلى منزله بأسرع مما يستطيع المرء قول «ليوناردو دافنشي»، وأُلقي القبض عليه بتهمة الحرق العمد، وخضع للاستجواب، وبدا أنه سينتهي به الأمر في السجن. أوضحتُ للشرطة أنني كنت مختبئة وأن الأضواء كانت مطفأة، وأنه كان يعتقد أن المكان خالٍ. ومع ذلك، فقد أدانته حقيقة كونه استخدم مادة تحفز على الاشتعال. وأكدوا لي أنه سيخضع لتقييم نفسي كامل، وسيكون ذلك عاملًا مؤثرًا في إصدار الحكم. كنت غاضبة منه، وفي الوقت نفسه، لم أستطع إلا أن أشعر بالحزن عليه. لحظة واحدة، وعود ثقاب واحد، وفجأة تنتهي الحياة التي عرفتها.

لم أستطع التفكير في المكتبة كثيرًا، كما لا أستطيع وضع أصابعي فوق لهب فترة طويلة. منزلنا الثاني الجميل القديم المميز ضاع تمامًا، فلا يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء لإدراك أن ما لم تتلفه النار قد أتلفه الماء. وقالت ميلودي إنه لم تكن هناك أضرار هيكلية، وإن المباني المحيطة بحالة جيدة. فيما يتعلق بحريق المبنى، يبدو أن الأمر لم يكن كارثيًّا. أما فيما يتعلق بحريق المكتبة، فمن الواضح أن الأمر كان مختلفًا. من واقع خبرتي مع آرتشي، كان يجيد التحكم في النفس، لكنني كنت متأكدة تمامًا من أن المكتبة كانت المكان الأكثر استقرارًا في حياته، حيث قضى هناك وقتًا أطول من أي مكان آخر، وعلى الرغم من ادعائه أن ذلك يرجع ببساطة إلى أنه لم يعد قادرًا على الذهاب إلى أي مكان آخر عندما انتهى به المطاف في يورك، فإنني لم أصدقه. لقد اختار المكتبة.

عندما سألت عن آرتشي وناثان، قيل لي إن ناثان خرج من المستشفى في الصباح التالي للحريق، بعد أن بقي طوال الليل للمراقبة، وإن حالة آرتشي «مستقرة»، ومن هنا استنتجت أنه في حالتي نفسها: إصابات جسدية مؤقتة،

ونأمل ألا يكون هناك ضرر دائم. وقد أُصبت بحروق في ساعدَي، وشعرت كأن رئتَي قد تمت صنفرتهما ثم نقعهما في الخل. كما كانت عيناي تؤلمانني، وأنفي ينزف.

شعرت بالضعف والغباء والغضب، وغفوت وأنا مستلقية، أحاول ألا أفكر في ناثان، بل في المكتبة بدلًا من ذلك. كان لدى آرتشي تأمين، ولذا فعلى الرغم من أن معظم مخزون الكتب سيذهب إلى المهملات مباشرة، فإننا سنتمكن من البدء من جديد. سنشتري كل شيء من جديد، أو بالنظر إلى معرفتي بآرتشي، فسوف نشتري كل شيء قديم. سنتجول في أسواق السلع المستعمَلة ومتاجر التحف بحثًا عن خزائن الكتب وطاولة، ومكتب ليحل محل المكتب الذي كان لدينا بجوار النافذة، حيث نحتفظ بآلة تسجيل النقود وبجميع الأوراق.

قررت إقناعه ببناء أرفف من الأرض إلى السقف في جميع جوانب المكتبة، ومصمَّمة لتلائم الجدران المتداخلة حتى نتمكن من تحقيق أقصى استفادة من المساحة. وبعد ذلك، إذا أراد إنقاذ خزائن الكتب القديمة البائسة من متاجر الأثاث المستعمَل لملء المنطقة الوسطى، فسيشعر كلانا بالرضا. حسنًا، لم تكن «الرضا» هي الكلمة الملائمة تمامًا: كان جزء مني يعلم أن علينا المُضي قُدمًا فحسب، بينما أراد الجزء الآخر أن يدير وجهه نحو الحائط، ويغمض عينيه، ولا يسير في ذلك الطريق مرة أخرى أبدًا.

وقد افترضت أن آرتشي سيرغب في البدء من جديد، لكن ربما لا يرغب في ذلك. ربما يقرر أن الوقت قد حان للذهاب والإبحار عبر البحار السبعة مرة أخرى، أو شيء من هذا القبيل. أعتقد أنه سيتعين عليَّ فحسب أن أفعل ما يفعله أي شخص آخر عاطل عن العمل: أتقدم بطلب للحصول على إعانة البطالة، وكتابة سيرة ذاتية، يُذكر فيها في حالتي «مؤهلات أكاديمية جيدة، لا تجيد العمل الجماعي، لديها خبرة في وظيفة واحدة فقط، أدَّتها على نحو جيد، لكن هذا فقط لأنهم تركوها تفعل ما يحلو لها». أو بدلًا من ذلك، يمكنني أن أعلِّق لافتة حول عنقي، كُتب عليها «لا تصلح للعمل».

كنت أستلقي في المستشفى على فراشي الضيق للغاية والعالي أكثر مما يجب، أفكر بهذه الطريقة بعض الوقت، ثم أوبخ نفسي وأذكِّرها بأن آرتشي لن يعترف بالهزيمة ولن يتخلى عني. قد تكون هناك بدائل أخرى. يمكننا أن نفتح متجرًا للكتب، حيث نرفض كل الأشياء غير المرغوب فيها ونصبح تجار كتب نادرة حقيقيين. أو مكتبة من نوع ما تقدم اشتراكات خاصة للأكاديميين. أو يمكننا أن نجعل من أنفسنا محققين خاصين بالكتب. سيحب آرتشي ذلك. يمكننا أن نكرس أنفسنا للعثور على الكتب النادرة وتحصيل ثروة من عملائنا مقابل ذلك الامتياز. حسنًا، لن يفعل آرتشي ذلك، بل سيدخن غليونه ويقول: «لافداي، هل أخبرتك من قبل عن ذلك الوقت عندما...»، وسأشرد أنا نوعًا ما - أستمع إلى صوته من دون التركيز في الكلمات الفعلية - بينما أقوم بالعمل، وسنكون سعيدَين. أجل، ربما يوافق على فكرة محققي الكتب. وحينها لن نضطر إلى أن نشغل أنفسنا بدرجة كبيرة بشأن تجديد مخزوننا من الكتب.

قبل أن أتمكن من إقناع نفسي بالتخلي عن حلم اليقظة هذا، أطلَّت الممرضة التي كنت أكرهها بدرجة أقل من غيرها - لم تحاول التحدث معي وكانت يداها حساستين - برأسها من الباب، وقالت:

- لديكِ زائر. هل أنت قادرة على استقباله؟

قلت:

- نعم.

لأنني سئمت من دوامة أفكاري، وتمنيت أن يكون آرتشي.

كان ناثان.

تجادل عقلي وقلبي بشأن ما إذا كان يجب أن أطلب منه الرحيل أم لا. لقد عرف كل شيء عن ماضيَّ ولم يخبرني، وجلب تلك الكتب التي أثارت خوفي. لم يكن في صفي قَطُّ، لكنه قادني إلى الاعتقاد أنه كذلك. وقد دخل إلى مبنى محترق لإنقاذي، ثم عاد لإنقاذ آرتشي. تغير العالم، مجرد تغيير طفيف فحسب.

لم أستطع اتخاذ قرار، لذا أغمضت عينَي. ربما يتخذ هو القرار نيابة عني. كنت لا أزال متعبة للغاية.

أصدر حذاؤه صريرًا على الأرض عندما اقترب من الفراش، ولمس يدي. فتحت عينَي ورفعت إليه نظري.

اعتدت أن أكون أنا الشخص الشاحب، لكنني بدأت أتلقى كثيرًا من المنافسة منه هو وميلودي فجأة.

قال:

- لا فداي.

وقبّل جبهتي. لم أمنعه، لكنني لم أبدِ أي رد فعل.

قلت:

- شكرًا لأنك أخرجتني.

قال:

- كان الوضع مخيفًا هناك.

جلس ووضع رأسه بين يديه، وتابع قائلًا:

- رف الكتب ذاك الذي سقط، أخطأ آرتشي بفارق بسيط.

قلت:

- أخبرتني الممرضات.

لم يقل شيئًا، وظل جالسًا هناك، وجبهته مستندة إلى كفَّيه. لاحظت ضمادة على يده، فلمستها.

قلت:

- ما هذا؟

اعتدلت جالسة، وأنزلت ساقَي من فوق حافة الفراش، حيث بقيتا متدليتين، لأنه لا يُسمح لأي شخص في المستشفى بالدخول إلى الفراش أو النزول منه من دون أن يثِب على نحو مهين. شعرت بالدوار والضعف.

قال من دون أن يرفع رأسه:

- أوه، لا شيء.

قلت:

- لا يبدو الأمر كأنه لا شيء.

- إنه مجرد حرق، هذا هو كل ما في الأمر.

- لم تُصب بشدة إذن؟

ابتسم قائلًا:

- لا، أنا بخير، يا فتاة ريبون. لكن مع ذلك، فقد أخفتني بشدة.

لم أكن متأكدة من كيفية بدء المحادثة، لكنه أعطاني إشارة للتو. قلت:

- لا تنادِني بذلك.

رفع نظره وقد بدت الحيرة على وجهه، وقال:

- ماذا؟

ضحكت، على الرغم من أن الضحك خرج على شكل سعال. لم أستطع أن أصدق مثل هذه الجرأة. شرعت أقول:

- أيها الوغد...

لكن بعد ذلك اضطررت إلى التوقف لالتقاط أنفاسي.

- ماذا؟

كان لا يزال يحمل النظرة الحائرة نفسها. لم يكن لديه ما يكفي من اللياقة حتى للاعتراف بأنه كذب عليَّ.

قلت:

- أنت تعلم ما الأمر. كنت تعرف بشأن ويتبي. لم أخبرك قَطُّ أن هذا مسقط رأسي، لكنك كنت تعلم. لقد كذبت عليَّ، ووضعت تلك الكتب في المكتبة كي أعثر عليها...

كنت على وشك التنفيس عن كل ما أحمله - الألم والغضب - عندما حدث شيء لم أتوقعه.

نظر ناثان إليَّ مباشرة وعيناه مليئتان بالغضب. قال:

- اللعنة، يا لافداي.

وكان صوته هادئًا، لكنه بدا غاضبًا جدًّا. تابع قائلًا:

- هل لديكِ أي فكرة عمَّا مررت به؟ أنا، وليس أنتِ، هذه المرة فقط. ولا أقصد النار.

نهض، وأصدر الكرسي صريرًا وهو يندفع إلى الوراء على الأرض، وتوجه ناثان نحو النافذة، ثم عاد مجددًا، لكنه وقف بعيدًا عني بحيث لا أتمكن من لمسه. قال:

- أحبك. لقد أحببتك منذ أن رأيت ذلك الإعلان الذي وضعتِه في النافذة. لقد انتظرت وتحملت كل حماقاتك...

قلت:

- لم يجبرك أحد على ذلك.

شعرت بأنني على وشك البكاء، وأردت أن ألمسه، لكنني خشيت أن يبعد يدي. قال:

- لقد أجبرتني أنت على ذلك، لأن... لأنني أحببتك، وكنت أعلم أن هناك سببًا. بعد ذلك، قصيدتك، يا لافداي، قصيدتك...

كان يبكي، واقفًا من دون حراك، منتصبًا والدموع تنهمر على وجهه.

- سمعت قصيدتك، وفكرت: «يا إلهي». لا أعرف كيف يكون الأمر عند المرور بما مررتِ به، ولا أستطيع تخيل ذلك، لكنه جعل كل ما يتعلق بك يبدو منطقيًّا. وفكرت أنه يمكننا أن نبدأ الآن، بداية حقيقية.

غادره الغضب فجأة بالسرعة نفسها التي ملأه بها.

وثبت من فوق الفراش، وتقدمت منه خطوة، وأمسكت بيده. لم يمدها إليَّ، لكنه لف أصابعه حول أصابعي.

قلت:

- ناثان.

وأخذت أبكي أنا أيضًا.

نظر إليَّ، وأخذ يدي الأخرى.

- ثم اختفيتِ عندما ذهبتُ لإحضار النبيذ. النار. ظننت أنك مت، يا لافداي. هل يمكنك تخيل شعوري؟ لقد أخرجناك، وهأنت تتهمينني بـ... بماذا تحديدًا؟

قلت:

- كنت تعرف بشأن ويتبي.

قال:

- ليس حتى... بعدها.

تنهد، وقد أفرغ مشاعره الآن، وجلس.

- بعد ماذا؟

- بعد أن...

رأيت أنه يبحث عن الكلمة الملائمة، ولم يكن لديَّ مانع في ذلك، فانتظرته. أخذ نفسًا، ثم نظر في عينَي وقال:

- بعد أن هجرتني.

أوه، حسنًا، ربما اختار الكلمة الصحيحة. جاء دوري كي أفكر في شيء أقوله، لكن ناثان واصل الحديث، وقد ثبَّت نظره على يديه.

- لم أستطع أن أفهم ذلك يا لافداي. أعني، كنت أعرف طبيعتك، لكنني كنت متأكدًا من أنك تحبينني.

قلت قبل أن أتمكن من منع الكلمة:

- أجل.

- لهذا السبب ذهبت إلى رؤية آرتشي. أخبرتني ميلودي أنك في ويتبي، فأخذته لتناول الغداء، وتناولنا كثيرًا من الشراب، وأخبرته بما حدث. جعلني أتعهد بأنني لن أخبرك بأي شيء، ثم أخبرني عن والديك.

قلت:

- آرتشي لا يعرف شيئًا عن والدَي.

قال ناثان:

- بل يعرف. أوه، يا لافداي، لقد رآكِ تضعين الجنيه على الطاولة مقابل رواية «التملك»، وقرر أن يمنحك فرصة. وقد جاءت والدتك البديلة لرؤيته.

قلت:

- ماذا؟

أعلم أن هذا لم يكن ردًّا مبتكرًا تمامًا، لكن ناثان أخرج عالمي الهش للغاية من غلافه الواقي، وركله على الأرض. تابعت قائلة:

- لا أفهم.

وقف واقترب مني، وقبَّل أعلى رأسي، بشعري الدهني الذي سيعبق برائحة الدخان إلى الأبد، وقال:

- أعرف، دعينا نذهب لرؤية آرتشي. إنه ينتظرنا.

اضطررت إلى الذهاب في كرسي متحرك، مع حامل لتعليق المحلول الوريدي الذي يمدُّني بما أحتاج إليه من سوائل، حتى يتمكن حلقي من استيعاب الكمية التي أحتاج إليها من الماء. كان آرتشي في الطابق العلوي، وكنت لا أزال عاجزة عن الوقوف بسهولة. أصدر حذاء ناثان صريرًا على أرضية ردهة المستشفى المغطاة بالمشمع، وتحرك على نحو أسرع من معظم المرضى الآخرين، لذا انحرفنا لتفادي الأشخاص الذين يستخدمون المشايات والعكازات. هدَّأني إيقاع خطواته، ولم يقل شيئًا. ولست متأكدة ما إذا كان هناك شيء يمكن أن يقوله أحدنا. فأنا لا أتسم بطلاقة الحديث تمامًا في أفضل الأحوال، لكن في تلك اللحظة كانت هناك مساحة كبيرة فارغة في رأسي من أثر الصدمة، حيث يجب أن تكون أفكاري، وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أنه يجب أن تكون لديَّ أسئلة لأطرحها - وشعور بالغضب - وأشياء لأقولها، لكن لم يكن لها أثر بعد. لم أشعر إلا بصوت حذائه وأثر قُبلته على فروة رأسي.

لم يبدُ فراش المستشفى مناسبًا لآرتشي قَطُّ. يقال إن الناس يبدون أصغر حجمًا عندما يمرضون، لكن آرتشي بدا ضخمًا للغاية. كنت قد رأيت غرفة نومه وأنا

أتجول في منزله باحثة عن حمَّام خالٍ في خلال إحدى حفلاته. كانت الغرفة نفسها فسيحة، وبدا فراشه كبيرًا بما يكفي لاستيعاب ثلاثة أشخاص على الأقل - لا، لم أسأل عن السبب - ومغطى بالوسائد تمامًا، مثل الأسِرَّة في إعلانات المنازل الريفية التي تجدها في المجلات. فراش يليق بآرتشي بكل تأكيد، على خلاف فراش المستشفى الفردي ذي القضبان والمرتبة المغطاة بالبلاستيك.

عندما دخلنا، كان ينظر من النافذة متأملًا السماء الرمادية. كان لديه محلول وريدي مثلي تمامًا، وغطت الضمادات جزءًا من وجهه وإحدى ذراعيه، وكانت عيناه محتقنتين بالدماء، وبدا مكتئبًا بعض الشيء.

أشرقت ملامحه عندما رآني، وأعتقد أن ملامحي أنا أيضًا أشرقت.

- لافداي!

قلت:

- آرتشي، كيف حالك؟

كانت تلك واحدة من المرات القليلة في حياتي البالغة التي شعرت فيها حقًّا بأنني في حاجة إلى معانقة شخص ما. لكن بسبب الكرسي المتحرك، وارتفاع فراشه، وشعوري بالدوار، وذراعه المغطاة بالضمادات، والحاملَين المُعلق فوقهما المحاليل الوريدية، قررت ألا أفعل ذلك، ومددت يدي لأمسك بيده السليمة، فرفعها إلى شفتيه.

قلت:

- شكرًا لك.

قال آرتشي:

- لم أكن لأسامح نفسي أبدًا إذا فقدتك.

أخذت نفسًا عميقًا. وظللت أفعل ذلك، متناسية مدى الألم. عندما تمالكت نفسي، سألته مرة أخرى:

- كيف حالك؟

قال:

- سوف أعيش.

كررت قائلة:

- شكرًا لك.

ثم ظننت أنني على وشك البكاء، لكنني لم أفعل، بل جلست هناك فحسب، تملأني الدموع والتساؤلات، إلى درجة أنني لم أتمكن من التفوه ولو بكلمة أو مجرد صوت. انهمرت الدموع على وجه آرتشي، واختفت في ثنايا لغده، لكنه لم يترك يدي.

بعد ما بدا كأنه فترة طويلة، سحب يده وأخرج منديلًا من جيب بيجامته ومسح وجهه، وقال:

- يا سيد أفبوري، هلَّا تفضلت بأن تحضر لنا بعض الشاي؟ ويمكننا أن نتحدث حينها.

قال ناثان:

- سأعود في غضون دقيقة.

وعاود آرتشي النظر إليَّ، فشعرت بالتململ تحت نظراته.

قلت:

- كنت تعرف.

كان عليَّ أن أبدأ الحديث من نقطة ما، حتى لو كان ذلك لحَمْل آرتشي على الكلام فحسب. لا أعتقد أنه سبق أن ظل صامتًا مثل هذه المدة الطويلة من الوقت، وكان الأمر مقلقًا.

قال:

- نعم.

ثم أضاف:

- الصبر، يا لافداي.

مما بدا لي قولًا مثيرًا للسخرية نوعًا ما، نظرًا إلى كونه صادرًا عن شخص يشعر بالملل عندما يصل إلى كتب ديفو إذا كان يرتب الكلاسيكيات.

قلت:

- ليس لديَّ كثير من الصبر.

أخذ صوتي يتحشرج، وبدوت منزعجة أكثر مما قصدت. ولحسن الحظ، اعتاد آرتشي أن أبدو منزعجة أكثر مما أنا عليه حقًّا عندما أتحدث، لذلك لم يعِرِ الأمر انتباهًا.

قال:

- كان ذلك أداءً رائعًا، وقصيدة رائعة.

قلت:

- نعم.

بدت الأمسية الشعرية كما لو أنها من عصر آخر، وحياة شخص آخر. إن وجودي في المستشفى، وتدمير المكتبة، جعلني أشعر كأنني قد انتقلت إلى حياة أخرى. بدا الأمر إلى حدٍّ ما شبيهًا بانتقالي إلى نظام الرعاية البديلة. كنت أنا نفسي، وفي الوقت نفسه لم أكن كذلك، لأن البيئة المحيطة بي تغيرت، وشهدت حياتي ما قد يصفه كاتب يكتب كلمة تعريف لكتاب بأنه «نقطة تحول غير متوقَّعة». وها هو تحول آخر.

- شكرًا لوجودك هناك.

عرفت أنه سيفهم كوني أقصد ما هو أكثر من الأمسية الشعرية.

قال آرتشي:

- لم أكن لأفوت ذلك. كنت فخورًا بك للغاية.

قلت:

- أشكرك.

ثم عاد ناثان ومعه ثلاثة أكواب من الشاي، وثلاث قطع من فطائر المافن التي تأتي في أكياس بلاستيكية فردية مغلقة. نظرت إلى آرتشي، وقلت:

- حسنًا؟

تنهد آرتشي قائلًا:

- من فضلك، يا لافداي، اسمعيني من دون مقاطعة.

بدأ حكايته من اليوم الذي تعين عليَّ فيه إحضار استمارة تصريح العمل - كنت في الخامسة عشرة من عمري - وكانت أنابيل قد وقَّعتها، وأضافت بين قوسين «مقدِّم الرعاية البديلة». سألني ما إذا كانت والدتي البديلة، فأجبته بعنف قائلة إنها ليست والدتي. لم أتذكر ذلك، لكنه بدا متسقًا مع طبيعتي حينها.

قال:

- أتت لرؤيتي في الأسبوع التالي، وشعرت بالميل إليها على الفور. بدت مهندمة اللباس، وعاملتني بصرامة، وكانت عازمة على حمايتك. اصطحبتها لتناول الغداء، فلم تفصح عن شيء، وتصرفتْ بطريقة احترافية للغاية، لكنها بدت شاحبة، فأخبرتها أنها تشبه واحدة من أولئك النساء المنهكات اللاتي رسمهن موديلياني، فقالت إنها لا تتقبَّل المغازلات.

لم أستطع منع نفسي من الضحك، وقلت:

- يبدو هذا متسقًا مع طبيعة أنابيل بالفعل.

ثم أخذت أبكي. كان لدى ناثان منديل، وكذلك آرتشي، لكن كان معي منديل في جيب ردائي، فاستخدمته.

- تحدثتْ عن «الحماية» و«الضعف»، وأخضعتني لتحقيق شامل إلى درجة أنني لم أكن لأتفاجأ لو طلبت فحص أسناني. وقد شعرتُ بالرغبة في إخبارها أنه إذا حصلتِ على وظيفة خلال عطلة نهاية الأسبوع في متاجر سينسبري، فربما لم يكن المدير ليسمح بإجراء مثل هذا التحقيق الشامل. في النهاية، قلت لها: «آرتشي العجوز ليس غبيًّا، وأستطيع أن أرى أن هناك ما يمكن أن تسميه مشكلات. إن المتاعب التي يمكن أن تتعرض لها في متجر لبيع الكتب محدودة للغاية، وسأعتني بها».

قلت:

- هل كان ذلك عندما بدأت العمل أول مرة؟

فكرت في نفسي، وأنا أستقل القطار من ريبون إلى يورك صباح كل يوم سبت،

متخيلة أنني تحررت مؤقتًا من الكآبة اليومية لكوني الفتاة التي قتلت أمها أباها بغطاء وعاء. قد لا يكون آرتشي غبيًّا، لكنني كنت كذلك.

قال آرتشي:

- نعم. قلت لأنابيل إنني لن أخبرك أنها جاءت لزيارتي، واتفقنا أن نظل على تواصل. وقد جاءت لزيارتي عندما كنتِ في السابعة عشرة من عمرك، وكانت والدتك على وشك الخروج من السجن ورفضتِ رؤيتها. انهارت في منتصف المكتبة، فاصطحبتها لتناول مشروب، وعندها قصت عليَّ الحكاية بأكملها.

مد يده ليتناول منديله.

سألته:

- هل أنت بخير؟

لأنني ملكة الأسئلة الغبية.

قال:

- نعم. أذكر أنني فكرت في... كل الأشياء التي لا بد أن تكوني قد مررتِ بها. كدت أتحدث إليك بشأن ذلك، لكن أنابيل قالت إنها تعتقد أن المكتبة بمنزلة ملاذ لكِ، لذلك التزمت الصمت. لم يكن الأمر سهلًا.

قلت:

- أعتقد أن خلفيتك في التجسس ساعدتك على ذلك.

إذا لم تستطع مواجهة الأمور، غيِّر مسار الحديث.

أومأ برأسه قائلًا:

- بالطبع.

لم أعرف ماذا عليَّ أن أعتقد. كنت غاضبة في البداية، كما لو أنه وأنابيل قد خدعاني. ثم شعرت بغضبي يتسرب، وأحسست بأنني مشوشة، بعد أن اتضح أن الشيء الذي لطالما آمنت به لم يكن سوى كذبة. لم تكن حياتي في مكتبة الكلمات المفقودة ملكًا لي وحدي، ولم تكن منفصلة عن ماضيَّ. وبالتالي، لم أصنعها، كما ظننت دائمًا، من دون شفقة ولا مساعدات من الآخرين.

كان يجب أن أشعر بالغضب، وكنت غاضبة بالفعل، لكنني كنت متعبة أيضًا، متعبة للغاية من كل شيء: ماضيَّ، ووالدتي، وألم وثقل افتقادها، كجرح لا يُشفى أبدًا. شعرت بنفسي أبكي، ولسعت الدموع وجهي.

سألت:

- وماذا عن الكتب؟ من كان صاحب تلك الفكرة اللامعة؟ لأنها أخافتني بشدة.

تبادل آرتشي وناثان النظر، وسألني آرتشي:

- أي كتب؟

لم يكن بارعًا في إخفاء مشاعره من دون أن تفضحه ملامحه بالقدر الذي يعتقده، لذا أدركت أنه لا يعرف ما الذي أتحدث عنه، وكذلك ناثان.

قلت لناثان:

- إذن بالفعل لم تكن أنت.

سألني:

- ماذا؟

ثم أضاف:

- لا، ليس لديَّ أي فكرة على الإطلاق عمَّا تتحدثين عنه يا لافداي.

نظرت إلى أحدهما، ثم الآخر. بدا وجه آرتشي ساكنًا، وهو يستريح بعد نوبة سعال. كان في حاجة إلى الحلاقة، وبدا بائسًا.

أوضحت الأمر بخصوص كلاسيكيات بينجوين، وكتاب كيت جريناواي، وديليا سميث، والبطاقة البريدية، وكيف شككت أن روب تعقَّب والدتي كي يتمكن مني، ثم ظننت بعد ذلك أن ناثان ينفذ خطة دبَّرتها عمتي جاني. وعندما أوضحت ذلك، أدركت كم بدت شكوكي مجنونة.

سألني ناثان:

- وكيف ظننتِ أنني أوصل إليك الكتب؟ بطريقة سحرية؟

قلت:

- ممم...

لأنني أدركت أن هذا هو ما فكرت فيه إلى حدٍّ بعيد. كان يمكن لكونان دويل[1] أن يستمتع معي قليلًا. تابعت قائلة:

- تزامن وصول الكتب مع ظهورك.

قال آرتشي:

- ليس لدينا نظام أمني حقيقي في المكتبة، وكان من الممكن أن يتركها أي شخص، ويضعها على الدرج. لا أعرف كيف تبدو والدتك. ربما جاءت وأنت غير موجودة هناك.

قلت:

- حسنًا.

أكره عندما يكون آرتشي محقًّا، لكنه لم يكن كذلك.

سألته:

- غير مسموح لوالدتي بمعرفة أي شيء عني، فكيف لها أن تعرف مكان عملي؟

لم أكن متأكدة مما إذا أردت أن تكون هي التي تركت الكتب، أم أردت أن يكون هناك تفسير إضافي (آخر) محتمَل.

قال آرتشي:

- ليس لديَّ كل الإجابات يا لافداي.

ثم أغمض عينيه.

قال ناثان، الذي ظل صامتًا خلال كل ذلك، على الرغم من أنه أمسك بيدي في لحظة ما:

- لم أعلم شيئًا عن هذا إلا بعد ذهابك إلى ويتبي، أؤكد لك.

لم تعجبني فكرة أنهما تحدثا عني من دون علمي. بدا الأمر كما لو أنني

---

(١) آرثر كونان دويل: كاتب بريطاني شهير، عُرف بإبداعه في أدب الجريمة من خلال سلسلة الأعمال البوليسية التي قدم فيها شخصية المحقق «شيرلوك هولمز». (المترجمة).

عدت في العاشرة من عمري مرة أخرى، وشعرت بما تشعر به - على الرغم من أنك، عزيزي القارئ، من غير المرجح أن يكون لديك أي فكرة - عندما يقرر الاختصاصيون الاجتماعيون والقضاة والعديد من الأشخاص الآخرين الذين لا يعرفونك حقًّا على الإطلاق ما يجب فعله بشأنك، لأن والديك أصبحا غير متاحين فجأة. شعرت بالغثيان.

قال آرتشي:

- جعلني أشرب كثيرًا من نبيذ فيوجنير، ولم يتقبَّل الرفض كإجابة. وكانت ميلودي قد أتت بعينها المصابة، فكنت في حالة من الفوضى.

قلت:

- لقد أرسلتني إلى ويتبي، على الرغم من أنك كنت تعلم.

لم تبرأ ساحته تمامًا بعد.

قال آرتشي:

- لقد ذكرتِ أنك تريدين الذهاب إلى هناك، ولو لم تفعلي، لم أكن لأقترح ذلك قَطُّ. بدوتِ كأنك... بدأت الشفاء. فقبل عام من الآن، كان من المستحيل أن تذهبي لحضور أمسية شعرية حتى تحت تهديد السلاح، ولم يكن السيد أفبوري ليحظى بفرصة معك على الإطلاق. ظننتُ أنه يمكنك أن تحظي ببعض الهواء النقي، والراحة، والاستجمام. سأكون على دراية بمكان وجودك، وستكونين في أمان، ويمكنني أن آتي لأخذك إذا كنت في حاجة إليَّ.

كنت لا أزال غير قادرة على استيعاب مقدار ما يعرفانه عني. قلت:

- أنا لست لعبة لعينة.

وكان هذا هو أقرب ما توصلت إليه للتعبير عمَّا أشعر به: مثل شيء يمكن اللعب به، والتقاطه ووضعه.

قال ناثان:

- لا، بل أنت شخص نحبه.

قمعت أي شيء قد أقوله ردًّا على ذلك، وهكذا تفوهت بشيء لم أفكر فيه تمامًا:

- أين والدتي الآن؟ هل تعرف؟

قال آرتشي:

- إنها تعيش في ليدز.

ليدز. أغمضت عينَي. كان من الغريب التفكير في وجود والدتي في مكان حقيقي، مدينة ذهبتُ إليها مع أنابيل، حيث اصطحبتني إلى سوق عيد الميلاد. اعتدت التفكير فيها على نحو مجرد، «في الداخل» أو «في الخارج»، لكن ليس في مكان حقيقي، في مكان حيث يمكنها شراء الحليب أو انتظار الحافلة.

- هل رأيتها؟

- لا، لكن أنابيل رأتها، وهي بخير، وتريد رؤيتك.

رفعت يدي وقد بدأ ذعري يتزايد، فتوقف آرتشي عن الحديث.

قلت:

- لا.

لم أكن في حاجة إلى التفكير في الأمر، أو لم أرغب في ذلك.

أومأ آرتشي برأسه، كما لو أنه يوافقني.

- وصلت رسالة من أجلك، على عنوان المكتبة، عندما كنتِ في إجازة. كان عنوان الراسل على الخلف، لذا خمنت أنها من والدتك. وكنت أنتظر اللحظة المناسبة لأعطيها لك. ربما بعد الاستماع إلى إلقائك الشعري، إذا سارت الأمور كما توقعت، لكن... منعتني تطورات الأحداث.

ابتسمت له، على الرغم من أن ذلك آلم الجلد المحترق على شفتي. قلت:

- شكرًا، يا آرتشي.

أمسكت بيده بإحدى يدَي، وكنت لا أزال متشبثة بناثان باليد الأخرى. نظرت إلى الوجه المستدير ذي الشارب المحترق، والوجه الآخر النحيل ذي العينين الزرقاوين الصادقتين والفم الذي لن أمِلَّ من تقبيله أبدًا، وكررت قائلة:

- شكرًا.

ثم اضطررت إلى ترك يديهما لمسح دموعي.

قال آرتشي:

- الرسالة موجودة في حقيبتي، إنها تحت النافذة. وأعتقد أنه قد يكون هناك بعض البقلاوة أيضًا، إذا تكرم شخص ما بأن يناولني إياها.

* * *

عندما أعادني ناثان إلى غرفتي، استلقيت على الفراش وأغمضت عينَي. وقد فعلت ذلك لأنني لم أرغب في التحدث قبل أن أتمكن من التفكير في كل ما حدث. لم يكن لديَّ أي نية للنوم، لكنني نمت بالفعل، واستيقظت وقت الشفق، وكان ناثان قد رحل.

حدقت إلى السقف وفكرت في حياتي، خاصة تلك التي عشتها منذ أن تركت نظام الرعاية البديلة وأنا في الثامنة عشرة من عمري. كنت عازمة تمامًا على أن أكون وحدي: بعد رحيل والدَي، صرت شخصًا لا يريده أحد، وعملت على أن يظل الوضع على هذا النحو.

إن ماضينا متغير مثل مستقبلنا، كما قال ناثان في قصيدته في المرة الأولى التي رأيته يؤدي فيها الشعر. ومن ثَمَّ، لدينا الحرية في رواية قصة مختلفة.

فكرت في أنابيل، وبدلًا من رؤيتها كشخص يعيش حياته كما أعيش أنا حياتي، أدركت مدى ما فعلته من أجلي. خلقت لي مكانًا آمنًا، ولم يأتِ أبناؤها البالغون للإقامة قَطُّ في أثناء وجودي هناك. كانت تذهب لرؤيتهم من وقت إلى آخر، في أثناء وجودي في الرحلات المدرسية، ولم أفكر قَطُّ في التضحيات التي قدمتها من أجل رفاهيتي. بين الحين والآخر كان يأتي بعض الأصدقاء لزيارتها في المساء، وفي أحيان نادرة كانت تذهب إلى السينما، عندما صرت في السنة النهائية بالدراسة.

لكن لأن أنابيل لم تكن والدتي - لأنها لم تكن الشخص الذي اخترته للعناية بي - فلم ألاحظ اهتمامها قَطُّ، بل رأيته كشعور بالواجب. كنت أعرف أنني

وحيدة، ولم يخطر ببالي أنها قد تكون وحيدة أيضًا. لم أدرك إلا الآن فحسب مدى العزلة التي لا بد أنني فرضتها عليها، ومدى اهتمامها، إلى درجة قدومها لرؤية آرتشي والتحقق من أمره - تمنيت لو أنني حضرت ذلك اللقاء - والبقاء على تواصل معه. لقد وجدتْ طريقة للتعامل معي. حذفتها من حياتي، لكن ذلك لم يعنِ رحيلها.

كانت أنابيل لا تزال موجودة هناك، وآرتشي موجودًا، كما كانت والدتي أيضًا موجودة، حتى عندما لم تكن كذلك.

بدا الشعور بالغضب مغريًا، وكان جزء مني غاضبًا بالفعل. لا أحد يحب أن يُخدع، وكرهت فكرة أن يتحدث الناس عني، ويتآمرون من وراء ظهري. لكن بينما استلقيت محدقة إلى السقف، تساءلت عن الخيارات الأخرى التي قدمتها لهم. أعتقد أنه يمكننا الاتفاق على أنها لم تكن كثيرة. لقد نقلوني من ويتبي إلى ريبون، ومنحوني قصة مُختلقة لحياة جديدة، ومكانًا آمنًا، وكانت البقية متروكة لي. قادوني إلى الماء، لكنني رفضت الشرب.

لم يكن الأمر عنادًا. ليس في الواقع. ليس في البداية، على أي حال. بل كانت أحزانًا وخسائر، تراكمت الواحدة تلو الأخرى على كتفَي فتاة في العاشرة من عمرها، لم تكن تعرف شيئًا خارج حدود منزلها المريح، حيث حاول والداها حمايتها حتى لو لم يعرفا كيف يحميان نفسيهما. كل ما استطعته هو أن أخلق الصمت، لأن كل صوت سمعته لم يكن واحدًا من الصوتين اللذين أردت سماعهما. لا يزعج أحد الأطفال المنشغلين بالقراءة، لذا انغمست في القراءة. وعندما بدأت أتخلص من الشعور بالخدر، صرت الفتاة التي تقرأ، وتكتب، والتي تحب البقاء بمفردها ولا تتحدث كثيرًا. كنت مراهقة غير قادرة على التواصل، وحيدة ومكتفية بذاتها. كنت فتاة ريبون، التي تتوجه إلى غرفتها مباشرة. وفي ظل كل ذلك، كنت الشخص الذي لا يعرف كيف يطلب من غيره المساعدة.

جاءت الممرضة للاطمئنان عليَّ، وقد اقتربت الساعة من الثامنة. لم يفُت

الأوان بعد لبدء حكاية مختلفة. أخرجت هاتفي من الخزانة المجاورة للفراش، وشغلته. وقبل أن أفكر في الأمر كثيرًا، اتصلت برقم منزل أنابيل، الذي لم أنسَه قَطُّ.

قالت:

- مرحبًا.

وبدا صوتها دافئًا وناعمًا، كما كان دائمًا.

قلت:

- أنا لافداي. لقد اشتقت إليك.

قالت كما لو أنها تتنهد:

- لافداي.

ثم أضافت:

- هل كل شيء على ما يرام؟

فكرتُ أنها ستعتقد بالطبع أنني اتصلت بسبب وجود مشكلة ما. قررت تجاهل السؤال في الوقت الحالي، حيث كانت هناك أشياء أكثر أهمية للحديث عنها.

قلت:

- لقد أخبرني آرتشي بكل شيء. وقد اتصلت لأشكرك، وأقدم لك الاعتذار.

قالت أنابيل:

- ليس هناك ما تحتاجين إلى الاعتذار عنه.

تحدثنا بعض الوقت. بدأت أنا بالأسئلة، فأخبرتني عن عائلتها وعن ريبون وكيف تقاعدت الآن من العمل والرعاية البديلة، وصارت تمضي أيامها في البستنة والعمل التطوعي. فكرتُ كم هي رائعة. وبعد ذلك، بالطبع، أرادت أن تعرف كيف حالي، فأخبرتها بأنني أنا وآرتشي في المستشفى.

قالت:

- هل تريدينني أن آتي؟ يمكنني أن آتي غدًا.

فقلت نعم.

وكان الأمر بهذه السهولة.

لم أفكر بعد كيف سأتصرف بشأن والدتي. لكنني علمت أنني سأفعل شيئًا ما، ولأول مرة منذ فترة طويلة، شعرت بالمودة عندما فكرت بها. كتبت في واحدة من رسائلها الأخيرة التي قرأتها: «لن أتوقف عن حبك أبدًا، يا إل جيه». مزقتُ الرسالة، لكنني أيضًا لم أتوقف عن حبها قَطُّ. كما كانت هناك رسالة جديدة الآن، عندما أصبح مستعدة لها.

لم أكن غبية. كنت أعلم أننا أبعد ما يكون عن خاتمة شبيهة بنهايات أعمال لويزا ماي ألكوت[1]، لكن ربما يمكننا أن نحظى بعلاقة من نوع ما. التقطت البطاقة البريدية المجعدة من ويتبي، التي كانت على الطاولة المجاورة للفراش، متكئة على إبريق الماء، وما زالت تفوح منها رائحة الدخان. كانت والدتي ممتلئة بالحب لعائلتها حينها، وستظل ممتلئة بالحب لي. لقد حاولت أن تأتي لتجدني، لكن شيئًا ما منعها. نظرت إلى خط يدها على الظرف الذي احتفظ به آرتشي في حقيبته. سأفتحه غدًا. سأكون مستعدة حينها.

وفي وقت ما قرب الساعة الخامسة صباحًا، أخلدت إلى النوم.

أيقظتني الممرضة لتناول مسكنات الألم في الساعة السابعة، ثم تركتني أنام مرة أخرى.

وعندما استيقظت مجددًا، كان ضوء منتصف النهار يملأ الغرفة، وناثان جالس على الكرسي البلاستيكي ذي الظهر المستقيم بجوار فراشي. كان قد شمَّر عن أكمام قميصه، وأسند مرفقيه إلى فخذيه، وجبهته على كفَّيه. رأيت كتابة على ساعده، وكان قريبًا مني بما يكفي كي أمد يدي وألمسه.

قلت:

- ما هذا؟

- وشمي.

---

(١) لويزا ماي ألكوت: كاتبة وروائية أمريكية برعت في كتابة قصص الأطفال، ومن أشهر أعمالها رواية «نساء صغيرات»، واشتُهرت بالنهايات السعيدة الدافئة. (المترجمة).

مدَّ ذراعه، فقرأت: «بدأت زهور الربيع الأولى في التفتح». كُتبت الكلمات على جلده بخط انسيابي. عجزت عن الحديث. كانت تلك هي العبارة الأخيرة من رواية «تل ووترشيب داون».

قبَّلت ظهر يده، وتمكنت من الحديث قائلة:

- شكرًا لك.

أومأ برأسه، وقال:

- لقد توصلت إلى حل مسألة الوشم المقتبس من «التملك»، و«المريض الإنجليزي».

كررت قائلة:

- شكرًا لك، هذا تصرف رائع من جانبك.

وكنت أعني ذلك، فلو أنني أنا من يرتدي حذاء ناثان ذا الرباط غير المتطابق، لما ارتبطت بأي التزامات مع نفسي.

نظر إليَّ وابتسم نوعًا ما، لكنها لم تكن ابتسامة حقيقية، ثم واصل النظر إليَّ، كما لو أنني مكتوبة بلغة أجنبية بينما يحاول هو العثور على كلمة يمكنه التعرف عليها. نهض واقفًا، ثم جلس مرة أخرى فجأة، كما لو أنه تذكر للتو أنه كان واقفًا. قال:

- لافداي، لقد ذهبت لرؤية آرتشي منذ قليل.

قلت:

- هذا جيد، سأذهب لرؤيته في وقت لاحق. لقد فكرت في كل شيء. أنا محظوظة بوجوده.

حينها جفلت عينا ناثان نوعًا ما، وأخذ يبكي وهو يهز رأسه، وقال:

- لافداي، آرتشي... آرتشي مات.

قلت:

- ماذا؟

من الواضح أنني لم أسمعه على نحو صحيح.

- للتو الآن... للتو...

لوح بيده مشيرًا في اتجاه وراء كتفه، وتابع قائلًا:

- ذهبت لرؤيته، كي أتمكن من إبلاغك بحاله. وفي إحدى اللحظات كان يتحدث عن مدى سعادته لأن كل شيء صار في العلن وعن مدى فخره بك، وفي اللحظة التالية...

أخذ ناثان يبكي، ووجد صعوبة في الحديث.

- ماذا؟ ماذا حدث؟

نهضت من الفراش كي أتمكن من الوصول إليه كما يجب، وأضع يدي على كتفه بدلًا من لمس ظهر يده بأطراف أصابعي.

قال ناثان:

- لقد مات.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم وضع يده السليمة على يدي وغطاها. بدا الاحمرار على مفاصل أصابعه، وكان اثنان من أظفاره مكسورَين، وتلوَّنا بالسواد من الأسفل، حيث تخلل السخام جلده.

توقف كل شيء لحظة، وحتى قلبي نفسه، أقسم إنه توقف.

قلت:

- لا.

بدا الأمر كما لو أن شخصًا ما، في مكان ما، التقط للتو صورة لأسوأ يوم في حياة لافداي (للمرة الثانية) وتوقف العالم عند لحظة نقْره على غالق الكاميرا.

ثم أدركت الأمر، وحينها بدا مؤلمًا حقًّا. وقفت ويدي على كتف ناثان، وكان هو يبكي، بينما لم أفعل أنا، بل استمعت فحسب لصوت العالم وهو ينهار من حولي. إن بقائي حبيسة في مكتبة محترقة لم يكن شيئًا مقارنة بهذا.

قال ناثان:

- كان قلبه هو السبب.

رفع نظره إليَّ، وشعرت بنفسي أترنح. أعتقد أن استخدام صيغة الماضي

للحديث عن آرتشي كان هو السبب. مد إليَّ ناثان ذراعه، فجلست على حجره. لم أتمكن من التفوه بشيء، لكنني أسندت خدي أعلى رأسه، و... حسنًا، لا أعرف ما الذي فعلته. بدا الأمر كما لو أن شخصًا ما سلبني سمائي الخاصة.

أحاط ناثان خصري بذراعه، وشعرت بقواي تخور.

- أُصيب بنوبة قلبية، أمامي مباشرة. لقد فعلوا - كل ما يفعلونه - لكنه مات.

فتحت فمي لأقول: «توقف عن قول مات»، لكن لم تخرج منه كلمة واحدة. انفجرت في البكاء، وعلى الرغم من أن الدموع المالحة آلمتني من الخارج، وآلمني الجهد المبذول داخليًّا، لكن الألم الجسدي لم يكن شيئًا بالمقارنة بالطريقة التي مزقتني بها مشاعري، ومضى وقت طويل للغاية قبل أن تتوقف الدموع.

مذكرات

٢٠١٦

اختيار

لافداي الغالية،

لم يكن من الصعب العثور عليك. تراسلنا أنا وأنابيل عدة مرات، وأخبرتني ذات مرة أنك تعملين في مكتبة لبيع الكتب المستعمَلة، وفي مرة أخرى ذكرت يورك. كانت حريصة للغاية على حمايتك - وهو الأمر الذي أراحني بدرجة أكبر مما تتخيلين - لكن لم يكن لديَّ ما أفعله سوى تحليل رسائلها، فربطت بين الأشياء على نحو ربما يكون صحيحًا، وكان الأمر يستحق البحث.

هناك ثماني عشرة مكتبة لبيع الكتب المستعمَلة في يورك، لذا قررت أن أبدأ بها. وإذا لم أتمكن من العثور عليك، فسوف أوسِّع نطاق البحث ليشمل يوركشاير. (لأنه، بالطبع، إذا كنت تعيشين في يورك، فسيكون من السهل عليك التنقل بالحافلة أو القطار. ربما تمتلكين سيارة، على الرغم من أن أنابيل لم تذكر قَطُّ أنك تعلمت القيادة. لديَّ متسع من الوقت للتفكير في هذه الأشياء).

بدأت الاتصال بالمكتبات كي أسأل عن لافداي، لكن بعد أول مكتبتين، فكرت ماذا لو أجبت أنت الهاتف؟ لم أرغب في أن يكون اتصالنا الأول صادمًا. أعتقد أنني مدينة لك بأن أكون لطيفة، لذلك قررت أن أستقل القطار إلى يورك أيام إجازتي وأتولى البحث.

كانت مكتبتك هي الثانية التي توجهت إليها، وبينما وقفتُ بالخارج أفكر ما إذا كنت سأدخل أم أنظر من خلال النافذة، رأيت لافتة بخصوص ديوان شعر مفقود كُتب عليها «تفضل بالدخول واطلب لافداي»، فشعرت بالذعر فجأة. ذهبت لتناول كوب من الشاي في المقهى المجاور وشاهدت الناس يروحون ويجيئون في الشارع، وتساءلت ماذا أفعل. كنت أعلم أنني لا أستطيع أن أدخل، وأنادي اسمك وأعانقك بشدة، على الرغم من أن هذا هو كل ما أردت فعله.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أشياء لا نهاية لها علينا الحديث عنها. من أين يمكننا أن نبدأ؟ وكيف يمكننا الانغماس في تلك المحادثة في حين أننا لم نتحدث منذ فترة طويلة؟ أعلم أنك أوضحتِ أنك لا تريدين الحديث معي، لكنني أملت أن يكون قد مرَّ ما يكفي من الوقت حتى نتمكن من المحاولة.

لذا وضعت خطة. كنت أعلم أنك ستتذكرين كل الكتب التي اخترناها معًا. كانت لا تزال موجودة عندي - وقد حفظتها لي الاختصاصية الاجتماعية - وقرأت نسخًا من مكتبة السجن لكل واحدة منها. لذلك فكرت أنني أستطيع القدوم لرؤيتك واللحاق بك بعد انتهائك من العمل، وإحضار الكتب معي، ومن ثَمَّ سيكون لدينا شيء لنتحدث عنه، شيء بسيط، لنبدأ به.

وصلت قبل وقت قصير من إغلاق المكتبة، وانتظرت على الجهة المقابلة من الطريق، على مسافة أبعد قليلًا عند محطة الحافلات. كانت الكتب في حوزتي داخل صندوق، وكانت ثقيلة.

خرجتِ من المكتبة، وأغلقتِ الباب خلفك. تأملتك فحسب، وبدا تعبير ملامحك جادًّا، كما هي الحال عندما كنت تنشغلين بالتلوين، أو القراءة، أو حفظ حوارك في مسرحية ما، أو وزن مكونات كعكة الزنجبيل، لكن وجهك كان جميلًا. بدت عيناك مشرقتين كالنجوم. الطريقة التي تحركت بها، والطريقة التي أبعدت بها شعرك إلى الخلف، كانت كلها

ذكرى، وقد تجمدتُ بفعل الإثارة والمتعة لرؤيتك. انعطفتِ نحو أحد الأزقة، ثم عدتِ بعد بضع دقائق ومعك دراجة. حاولت أن أنادي اسمك، لكن فمي عجز عن ذلك. كنت أبكي، وقدم لي رجل في محطة الحافلات منديلًا. الأشياء التي من هذا القبيل - التواصل غير المتوقع - تخيفني بعض الشيء في هذه الأيام. وعندما تمالكت نفسي، كنتِ قد رحلتِ.

لذلك تركت الكتب على الدرج. لم أكن متأكدة من أنك ستتعرفين عليها، لكن أعجبتني فكرة أن تحمليها بين يديك، وربما تتذكرين ذهابنا معًا إلى المكتبة القريبة من الجسر.

في المرة التالية التي أتيت فيها، دخلت إلى المكتبة. لم تكوني هناك، لكنني تحدثت إلى رجل لطيف يرتدي قميصًا بلون الخردل، أعتقد أنه لا بد أن يكون المالك. وتركت الكتاب في صندوق مع كتب أخرى عندما لم يكن منتبهًا.

انشغلت بالعمل للشهر التالي، ولم يكن لديَّ ما يكفي من المال، لذلك لم أتمكن من العودة مرة أخرى فترة من الوقت. وعندما جئت، أحضرت كتاب ديليا سميث ووضعت داخله البطاقة البريدية. لم أعرف ما إذا كنت سأجرؤ على التحدث إليك أم لا. ظللتُ أفكر فيك، وقد كبرتِ للغاية وصرتِ جميلة جدًّا، ولم أعرف كيف أقترب منك. عرفتُ أنك كرهتِني، واعتقدتُ أنك ربما لا تزالين تكرهينني. أملت أن تجعل الكتب الأمور أسهل بعض الشيء، ونظرتُ إليها بوصفها رسلًا. لكن في اليوم الذي أحضرت فيه كتاب الطبخ، رأيتك من خلال النافذة وأدركت أنني لا أتمتع بما يكفي من الشجاعة للمس كتفك أو نطق اسمك، ببساطة، كما يفعل أي من الأشخاص الذين تقابلينهم كل يوم. قررت كتابة رسالة، وها هي. حسنًا، ها هي ما يبدو كأنها النسخة رقم مائة من الرسالة.

لن أحاول إخبارك بكل شيء الآن، ولن أحاول تبرير أي شيء. سأحاول فقط أن أقول ما يكفي حتى يكون لديك كل ما تحتاجين إلى معرفته، كي تتمكَّني من تحديد ما إذا كان لا يزال لديك مكان لي في حياتك أم لا.

لقد عدت إلى العالم الآن، ولا أعتقد أن حياتي ستتغير كثيرًا. أنا أعمل في مخبز، ولديَّ شقة صغيرة، وأشارك في مجموعة للقراءة، وإذا كان في إمكاني تغيير الماضي، لفعلت. لكنني لا أستطيع ذلك. لا أستطيع إلا أن أخبرك بمكاني، وأنتظر وآمل.

لقد كتبت كثيرًا من الرسائل على مَرِّ السنين، لك بالطبع، ولأنابيل. في الأيام الأولى، عندما كنت في السجن، كتبت إلى عائلة والدك، وردَّت جاني وطلبت مني عدم الكتابة إليها مجددًا. ولم أفعل بالطبع. كانت مهذبة للغاية، إذا أخذنا الظروف في الحسبان. لا أعرف ما الذي كنت أفكر فيه. حسنًا، بل أعرف. فكرت أنني أريد أن يفهمني الناس، وأردتهم أن يسامحوني. لكنني أعلم أن التسامح ليس بالأمر السهل.

عندما بدأتِ تفوِّتين الزيارات، تحطم قلبي، لكنني لم أتفاجأ. أوضحوا لي كل شيء: حقوق القاصرين، ونوبات الهلع، والكوابيس، والصدمة، والحاجة إلى الوقت والصبر. رميت الأشياء وصرخت، وخضعت للعلاج. تخيلتهم يقولون: «حسنًا، من المؤكد أنها تتسم بمزاج عصبي. لا فرق بينها وبين زوجها ذاك».

خضعت للعلاج النفسي، وحسبوني، على الأقل جزئيًّا، ضحية لظروفي. يمكنك قراءة كتب عن العنف المنزلي حتى تتشبَّعي بها تمامًا، لكن ما لم تمري بتلك الظروف، فلن تفهمي أبدًا كيف يمكنك أن تحبي شخصًا يؤذيك، لأنك تعلمين أن أفضل جزء منه هو الذي يحبك، وأسوأ جزء هو الذي يؤذيك، وأنه حقًّا يريد بشدة أن يكون في أفضل صورة له. كان والدك رجلًا طيبًا، ذا قلب حنون ومزاج عصبي. أخبرني الناس أنني في حالة من الإنكار، وربما كنت كذلك بالفعل. لكن كل ما أردت التحدث عنه هو أنت، لأن ذلك الألم كان يتجدد كل يوم. كان التفكير في والدك أشبه بهدير البحر، عندما كنا نعيش بالقرب منه، لكن التفكير فيك بدا أشبه بالاستيقاظ صباح كل يوم لأكتشف أنني في الخارج وسط عاصفة بَرَد. صدمني الأمر، وأصابني بالخوف والألم.

فكرت كثيرًا فيما كان يمكن أن يحدث لو لم يعثر على المال في ذلك اليوم. كان لديَّ كثير من الوقت للتفكير، وعندما كان التساؤل عمَّا تفعلينه يؤلمني بدرجة زائدة، كان هذا هو ما أفكر فيه. (هل تعودين إلى المنزل مباشرة بعد المدرسة؟ هل صارت لديك صديقة لترافقك في المشي بعد؟ هل تشاركين في أي أنشطة عقب انتهاء اليوم الدراسي؟ هل ستشاركين في مسرحية؟ وعندما بدأت أنابيل تراسلني، أخبرتني ببعض الإجابات، لكنها لم تكن تلك التي أريدها).

أعتقد أنه لو كان والدك قد وجد عملًا، لصارت الأمور أفضل بالنسبة إلينا. ليست مثالية، لكن جيدة بما يكفي. كان يعلم أنه كان مخطئًا عندما آذاني، ولم يكن ليلمسك أبدًا، على الرغم من أنني خشيت أن تتورطي في الأمر، ولهذا فكرت أنني قد أحتاج إلى إبعادك. أو ربما كنت سأتركه، وحينها ستكون لديك عائلة منقسمة على نحو عادي. أنا مستعدة لدفع أي ثمن الآن، كي يصير ذلك هو عالمك.

لم أتعمد إيذاءه، لكنني فعلت، وهو نفسه ما كان سيقوله عن إيذائي: لم يتعمد ذلك. وهذا لا يعني أن ذلك يجعل الأمر صائبًا، لكنه يجعله... رماديًا. ليس أبيض ولا أسود. لذلك عندما سألتني الشرطة عمَّا حدث، وعندما حاول المحامون إقناعي بتقديم «جانبي من الحكاية»، كما لو كان الأمر نوعًا من المنافسة التي لم نخسرها أنا ووالدك بعد، لم أقل أي شيء. لم أدافع عن نفسي، وتركت الأمور تأخذ مجراها. كان ذلك هو ما أستحقه. لكنه لم يكن ما تستحقينه أنت، كما أستطيع أن أرى الآن.

اعتقدت أنك قد ترغبين في رؤيتي عندما أخرج من السجن، لكن الاختصاصية الاجتماعية الخاصة بي نبَّهتني، وقالت إنك تعانين نوبات هلع شديدة، وذكَّرتني بحقوق القاصرين، وبأن عليَّ الصبر.

لم أتحلَّ بالصبر، بل كنت مضطربة، وشعرت بالغضب، لا حيالك بل حيال نفسي. لم أستطع النوم، ولم أتناول الطعام، وتغيبت عن موعدي مع

ضابط المراقبة. جاءت الاختصاصية الاجتماعية لرؤيتي، وأقنعتني بركوب سيارتها وأخذتني إلى المستشفى. قضيت ثلاثة أشهر في أي ما كانوا يطلقونه على المصحات العقلية هذه الأيام، وتحسنت بعض الشيء. كان هناك معالج ساعدني على التفكير في حياتي الخاصة، بعيدًا عن حياتك، حتى تصبحي مستعدة لأن تكوني جزءًا منها مرة أخرى. كنت متعبة جدًّا إلى درجة أنني لم أتمكن من مقاومة الفكرة بقدر ما أردت. أردت أن أصرخ: لماذا؟ لماذا يجب أن أنتظر أكثر من ذلك؟ لم أتعمد قَطُّ إيذاء ابنتي. قال المعالج: «لا، لكن هل عدم تعمد الإيذاء يساوي عدم الإيذاء بالفعل؟».

ساعدوني في العثور على شقة صغيرة لأعيش بها، وتذكرت كم كنت أحب الخَبْز. حصلت على وظيفة بدوام جزئي في أحد المصانع، ثم وظيفة أخرى في مخبز، حيث مكثت أخيرًا. ازداد وزني ثانية، وأطعمت الطيور في الحديقة، وانضممت إلى مجموعة للقراءة، وبدأت المساعدة في حديقة مجتمعية. لقد حاولت العثور عليك عبر الإنترنت ولكن إما أنك كنت الشخص الوحيد في العشرينيات من عمره الذي لا يستخدم فيسبوك وإما أنك غيرت اسمك.

أنت كنز حياتي، يا لافداي، وأفضل ما فعلته على الإطلاق. وكانت معرفة أنني دمرت كل شيء حاولت جاهدةً أن أقدمه لك - الثقة، والأمان، والشعور بالحب - هي التي حطمتني في كل يوم قضيناه بعيدًا عن بعضنا.

لقد انشغلت بالعمل، وانتظرت، ولم أجد الصبر قَطُّ، لكن بمرور الوقت، وجدني الصبر.

أنا هنا يا حبيبتي، وأنا أحبك.

قبلاتي،

والدتك

الشعر

٢٠١٦

اشفِ قلبك

بدت جنازة آرتشي جنونية. كنت قد خرجت من المستشفى قبلها بخمسة أيام، وكان الجو مشمسًا للغاية - وهو اليوم الأكثر حرارة في شهر أكتوبر على الإطلاق - وبينما كنا في انتظار وصول عربة نقل الموتى، بدت المقبرة كما لو أن مجموعة من فناني السيرك الحزانى قد انتقلوا إليها. كان هناك أشخاص يرتدون أحذية فضية، ومعاطف رسمية طويلة، وشخص معه أرنب مربوط بمقود. كما كان هناك اثنان من الممثلين، وثلاثة أشخاص مهمين بما يكفي ليكون لديهم حراس شخصيون، وكان هناك تفتيش أمني سابق أيضًا. أعتقد أن ذلك بسبب أحد أفراد العائلة المالكة الذي جاء، على الرغم من أنني لست متأكدة مما إذا كان هو الذي وصل بالمروحية أم أنه شخص آخر من كبار الشخصيات. لكن لم يكن لأي شيء من ذلك أهمية.

كان هناك كثير من البكاء والقبلات المتبادَلة في الهواء قبل بدء المراسم، وخشيت أن يكون الأمر فظيعًا. أعني، فظيعًا بمعنى «ليس ما كان آرتشي يريده»، على خلاف الوداع الكئيب والفظيع الذي لا مفر من حدوثه.

لكن بالطبع، كان الحدث من إنتاج آرتشيبالد برودي، وسار بدقة تامة. بدا كما لو أن آرتشي فكر كثيرًا في تنظيم جنازته، وتلقى الجميع تعليماتهم من محاميه في الأيام التي تلت وفاته. وصلتنا في أظرف ورقية زرقاء سميكة تحتوي على رسائل مكتوبة على الآلة الكاتبة، وبدا الأمر نوعًا ما أشبه بتلقي دور في مسرحية.

فعل الجميع ما طُلب منهم في ذلك اليوم، ودفعني ذلك إلى الضحك والبكاء، لأنه كان يتماشى تمامًا مع طبيعة آرتشي: الاستعراض الجامح، المتوازن مع مراعاة الآخرين، بطريقة تعني أنه لم يكن على أحد أن يفعل شيئًا لم يكن مؤهلًا للتعامل معه. وقد دُفعت أجور مديري الجنازة ومتعهدي الطعام والعربات التي تجرها الخيول مقدمًا. امتلأت الكنيسة بزهور الأرولا - الزهور الأكثر بهرجة على الإطلاق - وعبق المكان برائحة تلك الزهور، وبالبخور، وهي رائحة تشبه إلى حدٍّ كبير رائحة دخان الغليون، إذا كان دخان الغليون هو الرائحة التي تفضّلها. وكانت هناك تعليمات مشتركة لنا جميعًا عقب انتهاء الجنازة: «على الجميع، من دون استثناء، أن يذهبوا إلى منزلي، ويأكلوا ويشربوا ويفرحوا قدر استطاعتهم». وقد حُدِّثت الخطط آخر مرة منذ ثمانية أشهر. أخبرني محامي آرتشي أنه كان يراجعها كل عام.

كنت أول من تبع النعش، وكان ناثان على جانبي وأنابيل على الجانب الآخر، وأمسك كلاهما يدَي بإحكام. وعندما وصل النعش إلى مقدمة الكنيسة، جلسنا في المقعد الثاني، بينما كل أولئك الذين سيقرأون أو يغنون أو يؤدون نوعًا من العروض الهزلية - نعم، حقًّا - جلسوا في المقاعد الأمامية حتى يكونوا مستعدين للتقدم عندما يحين دورهم للقيام بما طلبه منهم آرتشي. ومن الواضح أن القس كان صديقًا آخر له، لأنه لا توجد طريقة لإدخال أكلة النار إلى الكنيسة من دون وجود شريك من الداخل.

بمجرد أن جلست، انفطر قلبي بالبكاء مرة أخرى، كما فعلت كل يوم منذ وفاة آرتشي، وشعرت بأن ناثان وأنابيل يتبادلان النظرات فوق رأسي. ثم أحاط ناثان كتفي بذراعه، وناولتني أنابيل منديلًا. حاولت أن أهدئ أنفاسي، وتخيلت آرتشي وهو يصيح: «**لافداااي!**».

توقف الأرغن، الذي كان يعزف أغنية «مع قليل من المساعدة من أصدقائي»، في حال كنت مهتمًّا. صمت الجميع، صمتًا ناعمًا كالحرير والتافتاه. تقدم القس إلى الأمام ووضع يده على التابوت، ونظر إليه وتنهد.

بدأ حديثه قائلًا:

- حسنًا يا آرتشي، ماذا سنفعل من دونك؟

* * *

على الرغم من أنني كنت أخشى مراسم الجنازة والدفن، فإن ما أعقب ذلك كان أسوأ، لأن مستوى الحرج الاجتماعي المعتاد الذي كنت أعاني منه زاد بمقدار عشرة أضعاف بسبب الحزن والشعور بالفقد المطلق لوفاة صديقي وحاميَّ. كنت «الفتاة التي فازت بالمنزل»، لذلك أراد الجميع التحدث معي. كان البعض أقل سعادة من الآخرين بسبب ميراثي هذا، ويرجع ذلك إلى حدٍّ كبير إلى أن آرتشي خسره في لعبة البوكر على مَرِّ السنين لاثني عشر شخصًا على الأقل، وسمحوا له بسخاء بالعيش هناك حتى وفاته. وقد صافحهم جميعًا ولم يوقِّع على أي شيء.

ومع ذلك، فإن وصيته لي بالإرث - المنزل، والعمل التجاري، والمال الموجود في الحساب التجاري، الذي كنت متأكدة من أنه يزيد بعشرات الآلاف من الجنيهات الإسترلينية على ما حققته المكتبة على الإطلاق - كانت مُحكَمة من الناحية القانونية. وحين يتطلب الأمر، فقد كان هناك شيء ما في آرتشي، جعل الأشخاص المحترمين يتصرفون بشكل لائق. لذا كان هناك بعض المزاح بشأن المنزل - هل أرغب في لعب الورق، مقابل مضاعفة قيمة الرهان في حال خسارتي، أو إلغاء الدَّين في حال فوزي؟ - لكن لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق. وكان لدى آرتشي ما يكفي لإرضاء الجميع: كان هناك منزلان آخران، ولوحات، والعديد من الأشياء التي بدت كأنها رخيصة لكن تبيَّن أنها لا تُقدَّر بثمن. حصلت ميلودي على مجموعته من القبعات، وحصلت أنابيل على سوار من الألماس مع تعليمات لبيعه والذهاب في رحلة بحرية. ضحكت وقالت إن هذا ما أرادت دائمًا فعله. (لماذا لم أعلم ذلك؟). كان آرتشي كريمًا في الموت كما كان في حياته الباذخة.

جلستُ على الأريكة وكان معي ناثان أو أنابيل طوال الوقت. بعد الساعة

الأولى، أصبح الجميع في حالة من السُّكْر بما يكفي كي لا يزعجوني كثيرًا بعدها. وبعد الساعة الثالثة، تسللت إلى المكتبة واستلقيت على الأريكة التي من طراز تشيسترفيلد. لاحظت أن ناثان يتبعني، لكنني لم أدرك إلا وهو يوقظني، وبدا المنزل إن لم يكن هادئًا، فعلى الأقل أكثر هدوءًا. رحل متعهدو الطعام، وكان هناك أشخاص يلعبون الورق في المطبخ، مع وجود حراس شخصيين عند الباب، لذلك كان أحد أفراد العائلة المالكة لا يزال في المنزل.

قادني ناثان أعلى الدرج، فتوقفت قائلة:

- لا يمكنني البقاء هنا.

قال ناثان:

- لافداي، لقد أعدَّت لنا أنابيل إحدى غرف الضيوف. وفي وقت ما، سيتعين عليك الانتقال إلى هنا. وعلى أي حال، لا يزال هناك أشخاص هنا، ولا يمكننا الرحيل.

كنت متعبة للغاية بدرجة أكبر من أن أتمكن من الجدال، لذا تركته يدفعني إلى الطابق العلوي، وقلت:

- ما زلت لا أصدق أن هذا منزلي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وافقني ناثان قائلًا:

- إنه أمر غريب.

ثم أضاف:

- قالت أنابيل إنها ستتصل بك مساء الغد. سيأتي عمال شركة التنظيف في الحادية عشرة صباحًا تقريبًا، ويمكنهم التخلص من لاعبي البوكر إذا كانوا لا يزالون مستمرين في اللعب.

قلت:

- نعم.

لطالما كان آرتشي شغوفًا بأعمال دوجلاس آدامز، وذكر أن الحفل يجب أن يستمر بقدر ما يريد الضيوف. وقد افترضت أنه سيصل إلى نهايته بعد مرور أربع

وعشرين ساعة تقريبًا، لكن إذا استمر فترة أطول من ذلك، فسيتعين عليهم تدبير أمر طعامهم بأنفسهم.

* * *

أيقظني ناثان في التاسعة. كانت الغرفة التي أعدتها لنا أنابيل واحدة من بين خمس غرف نوم، وكانت أصغرها، وتحوي فراشًا مزدوجًا وخزانة ملابس ومنضدة زينة، كلها متطابقة. خمنت أن الأثاث يعود إلى الخمسينيات من القرن الماضي، وكان من الخشب الداكن الدافئ ويتسم بمنحنيات ناعمة. بدا ورق الحائط الموجود على الجدران كأنه من تصميم ويليام موريس[١] وربما كان بالفعل تصميمًا أصليًّا من ويليام موريس، نظرًا إلى معرفتي بآرتشي. في الحمَّام الملحق بغرفة النوم، كان كل شيء أبيض ناصعًا، باستثناء الأرضية الخشبية. وكان الدش هو أفضل ما استخدمته على الإطلاق، حيث كان ضغط الماء قويًّا وكان رأس الدش المتصل بالسقف يسمح لك بإغلاق عينيك والتظاهر بأنك تقف وسط عاصفة ممطرة دافئة وجيدة. كانت حافة النافذة واسعة وعميقة، وبدت المكان المثالي لمجموعة من الأصداف أو الحجارة. ربما أجعلها غرفتي. هززت رأسي. كان من السابق لأوانه التفكير في أي من هذا.

بعد أن ارتديت ملابسي، جلسنا أنا وناثان في المطبخ، مع بقايا فطيرة لحم الخنزير وكعكة الجبن النيويوركية من حفل الأمس. رحل الحرس الشخصيون، وكان هناك شخص ما لا يزال نائمًا على الأريكة الطويلة في غرفة المعيشة الرئيسية، بينما استلقى شخص آخر على أرضية غرفة الطعام. تمنيت أن يكون الكلب الذي يتجول في الحديقة ملكًا لأحدهما.

قال ناثان:

– هل تريدينني أن آتي معك إلى المكتبة صباح الغد للاجتماع مع مسؤول التأمين؟

---

(١) ويليام موريس: معماري ومُرمِّم، ومصمم للأثاث والمنسوجات، وكاتب اشتراكي إنجليزي. (المترجمة).

قلت:

- نعم، من فضلك.

هل رأيت ذلك؟ كنت أحرز تقدمًا فيما يتعلق بقبول المساعدة. حسنًا، لنواجه الأمر، لولا المساعدة، لكنت تفحمت تمامًا في المكتبة.

بمجرد انتهاء شركة التأمين من عملها، يمكنني استئجار حاوية قمامة والبدء في التخلص من كل البقايا الميتة والرطبة والمحترقة والمتفحمة للمكان الذي أبقاني في أمان. ومن الغريب أني كنت أتطلع إلى ذلك. كانت مهمة يجب إنجازها، وليست شيئًا مجردًا. وأيًّا كان ما سأقرره بشأن المكتبة، فلا يزال يتعين إخلاؤها.

كان المنزل أمرًا مختلفًا تمامًا. كنت أعرف أنني يجب أن أعيش فيه لكن فكرة التجول في منزل آرتشي القديم العزيز بدت سخيفة. بينما كنت أستغرق في النوم، تساءلت عن إمكانية تحويله إلى شيء آخر: سكن مؤقت للأطفال التابعين لنظام الرعاية البديلة، أو مكان يمكن لمن عانوا من الفقد التعامل مع أحزانهم فيه، أو سكن مؤقت للنساء اللاتي يحاولن العودة للحياة الطبيعية بعد إطلاق سراحهن من السجن حديثًا، أو عقب تعرضهن للعنف، لكن عندما استيقظت، لم أرَ قَطُّ أنني سأكون على مستوى هذه المهمة. في حين أن ملء حاوية قمامة أو تنظيف الأرضية كان أمرًا ممكنًا.

قال ناثان:

- قالت فانيسا إنها سوف تساعدك، وكذلك ميلودي.

قلت:

- هذا لطف منهما.

وكنت أعني ذلك.

مرَّ الصباح في هدوء. تحدثت أنا وناثان عن الذهاب إلى كورنوال: سيريني الأماكن التي أتذكرها، وتلك التي لا أتذكرها، وسنزور قبر والدي. وبينما غفا ناثان على الأريكة، ألقيت نظرة على بعض الإهداءات المدوَّنة في الكتب بالمكتبة. فركت يدي على رأسه عندما مررت به، لكنه لم يتحرك. تجولت في كل الغرف

التي لم يعد آرتشي موجودًا بها. تضمنت ترتيباته «بمناسبة وفاته» الاستعانة بشركة تنظيف لإزالة الملاءات من فراشه وغسلها مع الغسيل، والتخلص من الطعام المتبقي في الثلاجة وأي أدوات عناية شخصية مستخدَمة جزئيًّا. لقد فكر في كل شيء حقًّا، باستثناء حقيقة أن كل شبر وذرة في منزله تنضحان به، ولم يكن لديَّ أي فكرة عن كيفية تجاوز ذلك، وقلت هذا لأنابيل.

قالت:

- خطوة بخطوة، يا لافداي.

وتمنيت لو أنني تعلمت التحدث معها عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، بدلًا من إضاعة كل هذا الوقت.

أعدت قراءة رسالة والدتي، وجعلني ذلك أفتقدها، كما افتقدتها في بادئ الأمر وأنا طفلة خائفة في العاشرة من عمرها غاب عنها كل أحبابها. وعندما لم أكن منشغلة بالتفكير في آرتشي حتى ينفطر قلبي، كنت أفكر في فداحة الوحدة التي عانينا منها أنا ووالدتي، فينفطر قلبي بسبب ذلك.

استيقظ ناثان والشخصان المتخلفان من حفل الأمس عندما بدأت في إعداد لحم الخنزير المقدد والبيض. وبمجرد أن أكل الجميع، عرض ناثان أن يفتح زجاجة شمبانيا، واعتقدت أنها استراتيجية محفوفة بالمخاطر، لكنها نجحت، لأن الغثيان بدا على ضيفينا، وقاما باستدعاء سيارة أجرة.

لم يبقَ سوانا نحن الاثنين.

في الوقت الراهن.

قال ناثان:

- لقد حان الوقت تقريبًا. هل ستكونين بخير؟

قلت:

- نعم، أنا بخير.

وكنت أعني ذلك. شعرت بأنني أكثر هدوءًا من... حسنًا، مما كنت عليه في أي وقت مضى. آلمني فقد آرتشي، وأربكني التغيير في ظروفي، لكن حقيقة أنني

سمحت لنفسي بأن أكون على طبيعتي، وأن أسمح لناثان وأنابيل بمساعدتي، كانت بمنزلة العثور أخيرًا على طريقة مريحة للوجود، وقدماي ثابتتان على الأرض، وأنا أتطلع إلى الأمام، ولا حاجة إلى أي شيء سوى أخذ نفس عميق وتحديد الخطوة التالية.

بالأمس، عند إنزال نعش آرتشي تحت الأرض، اتخذت قرارًا. فكرت كيف أرادت والدتي أن تأتي للبحث عني، وكيف عثرت عليَّ، وكيف خانتها شجاعتها، تمامًا كما خانتني شجاعتي مرات عديدة حينما كان يمكنني التواصل مع ناثان، أو الإبلاغ عن روب، أو إجبار ميلودي على الاستماع إلى تحذيراتي. كان في إمكاني أن أخبر آرتشي بكل شيء، في أي من تلك المناسبات عندما أظهر لي مدى استعداده للاستماع. لكنني لم أفعل.

وأخيرًا، فهمت. لم يكن هناك شيء أريده أكثر من رؤيتها، ولا شيء يخيفني أكثر من فكرة رؤيتها. لم يكن التواصل معها يعني الدردشة وتناول فنجان قهوة على عجل، بل يعني بداية المستقبل الذي لطالما كان لا بد أن أحظى به.

كنت أعلم أن علاقتي مع والدتي تشبه تمامًا حال مكتبة محترقة. لم يكن هناك شيء سهل بالنسبة إلينا، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن الأمور على وشك أن تصبح أكثر سهولة. وعندما أعادتنا سيارة الجنازة إلى المنزل، طلبت من أنابيل أن تتصل بوالدتي وتدعوها إلى الحضور لرؤيتي، فقالت إنها ستأتي اليوم.

سألني ناثان:

- هل تريدينني أن أبتعد عن الطريق؟

قلت:

- ربما في البداية.

قال:

- سأكون في الطابق العلوي. ناديني فحسب عندما تحتاجين إليَّ.

قبَّلني برفق. كانت شفتي قد شفيت للتو، وصار جلدها لامعًا ورقيقًا.

أخذ نسخته من كتاب «جاك الباسم» من حقيبته، وصعد الدرج متوجهًا إلى غرفة نومنا.

خرجت تحت شمس أواخر الخريف كي أنتظر والدتي. تخيلتها وهي تترك الكتب في المكتبة، وتضعها على الدرج مثل باقات الزهور الموضوعة عند موقع حادث سيارة. أرادت بشدة أن تتحدث معي، لكن غلبها الخوف البالغ، وكنت أعرف ماهية تلك المشاعر.

كان التفكير فيها دافئًا مثل كعكة زنجبيل، وحلوًا مثل العثور على صدفة مثالية على الشاطئ.

اختيار

كما ألقتها لافداي كاردو في حانة جورج والتنين، يورك، يناير ٢٠١٧

لم يعش حياتي أحد سواي.
كنت سعيدة، ثم شقيت، وذرفت من الدموع كثيرًا.
ثم حزنت وغضبت ووقعت في مشكلات وحيَّرني الخروج منها.

ليس هناك كثير من الناس الذين يفقدون كلا والديهم في ليلة واحدة
ببساطة فحسب، كانطفاء الضوء
من دون استراتيجيات للتكيف، ومن دون نهاية تلوح للأمر.
لم تكن لديَّ وسيلة للخروج من ذلك.

عندما لا تريد غير والديك، فلن يفي سواهما بالغرض
وعندما تبعد الآخرين عنك، فسوف يتركونك أيضًا
تصرفت كأنني أعرف كل شيء، لكن لم تكن لديَّ أدنى فكرة
ولم أعرف كيفية العودة من ذلك الطريق.

ثم تدرك أنك حبست نفسك داخل فوقعة
وانغلقت على نفسك تمامًا، كقطة في قاع بئر
فلا أحد قريب بما يكفي لسماع الحكاية التي عليك أن ترويها
كيف بحق الجحيم ستتغلب على الأمر؟

اتضح أنه إذا أخذت خطوة، فسيخطو شخص آخر نحوك خطوة مثلها
ويبدو أنه إذا أخطأت الخطو، فستفسح الطريق لدخول أحمق مغرور ما
ليس الماضي هو ما يقرر المستقبل، بل تتمتع أنت بالسلطة لتقرير ذلك
وهكذا قد أتغلب على الأمر.

نوجه إليكم الدعوة بمزيد من المودة إلى حضور إعادة افتتاح
مكتبة الكلمات المفقودة في يورك
كتب نادرة وجميلة
لمحبي الكتب في كل مكان
توجد غرفة للقراءة في الطابق العلوي

المالك: لافداي كاردو
متعهدة الطعام: سارة جين ووكر
الترفيه: ناثان أفبوري
جولة برفقة مرشد: ميلودي

النهاية

المكتبة

جرس فوق الباب، له رنين معدني.

لا يجب أن تكون هناك ساعة، فلا معنى للوقت هنا.

ولا يوجد كتاب بلا قيمة.

ليدخل الضوء منكسرًا عبر النوافذ القديمة، ليذكِّرنا بأنه لا يوجد شيء حقيقي.

يوجد هنا كل ما لا تعرفه بعد.

كل شيء معوج قليلًا، باستثناء السطور فوق الصفحات.

يوجد هنا طعام.

يكتظ هذا المكان بما هو غير متوقع.

لا ينبغي أن تكون هناك موسيقى، لكن لا ينبغي أن يكون هناك صمت.

يجب ألا تخجل الأصابع، بل تلمس كعوب الكتب وتقلب الصفحات.

عند الزاوية باب لا يملك مفتاحه أحد.

هناك ضحكات، وصيحات صغيرة «أوه!»، عند العثور على شيء منسي.

المكتبة ليست سحرًا، لكن يمكنها أن تسرق قلبك.

لا يشبه هواؤها أي هواء آخر، حيث امتزجت به الذكريات.

يوجد هنا شيء من أجلك، كل ما عليك هو اختياره.

تلك الرائحة التي تعرفها: الباتشولي، والعسل، والملح، والبنفسج.

وأوه، الناس، يجب أن تُغفر لهم خطاياهم لأنهم هنا.
المكتبة ليست سحرًا، لكن يمكنها أن تشفي قلبك ببطء.

شكر وتقدير

ساعدني عديد من الأشخاص في فهم تفاصيل قصة لافداي:

- شرحت لي ماري هيل، ولورا لين، وريبيكا ماسون، وماريون روبسون تفاصيل العمل الاجتماعي والرعاية البديلة طويلة الأمد.
- أوضح لي جاك فيلوز وتوم فيرنيل الطرق التي يمكن أن تحترق بها مكتبة.
- أجابت كيرستن لوكينز وجيمس ويلكنسون عن أسئلتي العديدة حول الأداء الشعري.
- أوضح لي الضابط باري سبيكر مدى تعقيد القانون فيما يتعلق بقضايا العنف المنزلي.
- أخذني ستيوارت مانبي من مكتبة «بارتر بوكس» في ألنويك إلى ما وراء الكواليس وكشف لي أسرار بيع الكتب المستعمَلة.

أنا ممتنة لكم جميعًا، وأتحمل المسؤولية الشخصية عن أي أخطاء وتفسيرات خاطئة، مع الاعتذار.

أود أن أتوجه بتحية خاصة إلى «سكراتش تاين»، وهي مجموعة تدريب شعرية تمولها جمعية «آبلز آند سنيكس» وهي منظمة غير ربحية تروج للعروض الشعرية. أظهر الشعراء هناك الصبر والتشجيع لي وأنا أتحسس طريقي لفهم ماهية الأداء الشعري، وكيف يؤثر سحره في كل من الشاعر والجمهور. ستظلون جميعًا مصدر إلهام لي.

كان قرَّاء المسودة الأولى من هذه الرواية هم آلان بوتلاند، وريبيكا ماسون، وإيميلي ميدلاند، وتوم نيلسون، وجيمس ويلكنسون، وسوزان يونج، وكانت ملاحظاتهم حاسمة في مساعدتي في معرفة كيفية سرد قصة لافداي. قرأت شيلي هاريس الصفحات الافتتاحية منذ البداية، وشجعتني طوال فترة الكتابة.

قدمت كلير داير من «فريش آيز» للاستشارات تعليقات ثاقبة وقيمة بخصوص ما نجح في الرواية، وما تعثر، وما يمكن تحسينه.

سُميت شخصية آرتشي على اسم آرتش برودي، الذي علَّمني اللغة الإنجليزية، إلى جانب ماري آدامز ومارجريت روجرسون وبيف ميليمان. كانت المدرسة التي ارتدتها عادية، لكن مستوى تدريس اللغة الإنجليزية بها كان، على ما أعتقد، استثنائيًّا. كانت بيف، على وجه الخصوص، أول من رأى شيئًا مميزًا في كتاباتي، وسأظل ممتنة لها دائمًا.

وكيل أعمالي، أولي مونسون من وكالة «إيه إم. هيث»، هو بطلي وصديقي. شكرًا لاستمرارك في الإيمان بي.

إيلي درايدن هي محررة جزئيًّا، وشريكة جزئيًّا في العملية الإبداعية، وأحب العمل معها، فهي تصنع العجائب بمشاركاتها وبصيرتها. ومن دواعي سروري العمل مع فريق «بونيير زافر»، فهو مليء بالأشخاص الملتزمين والأذكياء الذين لديهم عديد من الأفكار. شكرًا لكم جميعًا.

تتحمل عائلات الكُتَّاب الكثير. شكرًا لوجودكم في أثناء غيابي (بصورة حرفية أحيانًا، ومجازية في معظم الأحيان): آلان، ونيد، وجوي، ووالدتي، ووالدي، والعمة سوزان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المؤلفة

تعيش ستيفاني مع عائلتها بالقرب من البحر في شمال شرق إنجلترا. وتمارس الكتابة في استوديو عند طرف حديقتها، وحينما لا تكون منشغلة بالكتابة، تدرِّب الناس على التفكير بشكل أكثر إبداعًا. وعلى سبيل المتعة، تهتم بالقراءة وحَبْك الصوف والخياطة والخَبْز والغَزْل، كما تؤدي الشعر على نحو عرضي.

المترجمة

إيناس التركي مترجمة مصرية. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس. ترجمت لدار الكرمة كتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيشي في انتظار أن يتغير» لروبين نورود، والروايات: «خلف هذه الأبواب» لروث وير، و«جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري آن شيفر وآني باروز، و«المكتبة المتنقلة» لكريستوفر مورلي.

ترجمات الكرمة

١ . صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢ . سالباتييرًّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤ . النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥ . جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦ . الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩ . عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠ . الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١ . طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢ . رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣ . قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف – ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون – روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربنتين – ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس – ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار – إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٥. شخص نعرفه – شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب – روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٣٧. احتضان – كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك – رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٩. بندقية صيد – ياسوشي إينويه. ترجمتها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا – آليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤١. سأبقى هنا – ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤٢. نادي القتال – تشاك بولانيك. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٣. ديرمافوريا – كريج كليفنجر. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٤. المولود من ذي قبل – خوان خوسيه ساير. ترجمها عن الإسبانية: محمد الفولي.
٤٥. ثلاثية – يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٤٦. ملحمة أنيت – أنّه فيبر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٤٧. الفجيعة – جني إربنبك. ترجمها عن الألمانية: نبيل الحفار.
٤٨. الواقعون – كارلوس مانويل ألباريس. ترجمها عن الإسبانية: أحمد محسن.
٤٩. مسيو إبراهيم وزهور القرآن – إريك-إيمانويل شميت. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٥٠. جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس - ماري آن شيفر وآني باروز. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥١. سدهارتا: قصيدة هندية - هرمان هسه. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٢. محادثة ليلية - ساشا ناسبيني. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٥٣. أحد الرجال - كيئتشيرو هيرانو. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٥٤. المكتبة المتنقلة - كريستوفر مورلي. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥٥. القفزة - سيمونه لابرت. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٦. الميراث والوصية - فيجديس يوت. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وسها السباعي.
٥٧. ثورة القمر - أندريا كاميلليري. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٥٨. لا تكذب أبدًا - فريدا مكفادن. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥٩. أبريل الساحر - إليزابيث فون أرنيم. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٠. أوهام العقل - برنلف. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٦١. بدافع القتل - أنتوني هورويتز. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٢. صمت الحملان - توماس هاريس. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٦٣. الشطرنج - شتيفان تسفايج. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٦٤. أمسية عند كلير - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هَفال يوسف.
٦٥. ريبيكا - دافني دو مورييه. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٦. مكتبة الكلمات المفقودة - ستيفاني باتلاند. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لافداي شخصية رائعة، وقد أسرت قلبي منذ الصفحة الأولى... ومكتبتها هي مكتبة أحلام القراء» — جولي كوهين، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «عزيزي الشيء»

«إنه كتاب ملتهب بالحب والألم: رواية غريبة وفريدة وجميلة، ستسعد باكتشافها في أي مكتبة. كما أن لافداي كاردو شخصية تثب من بين الصفحات إلى داخل قلوبنا» — ليندا جرين، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «بينما كانت عيناي مغمضتين»

لافداي محبة حقيقية للأدب، بل تفضِّل الكتب على البشر، وإذا تمعنت بعناية، فقد تلمح الأسطر الأولى من رواياتها المفضلة موشومة على جلدها. لكنْ هناك بعض الأشياء التي لن تكشفها لافداي أبدًا. قبل خمسة عشر عامًا، فقدت لافداي كل ما كانت تملكه وتحبه في ليلة واحدة مصيرية، وقادها هذا الحدث الرهيب إلى أن تحول المكتبة التي تعمل فيها إلى ملجئها الوحيد.

لكن كل شيء على وشك التغيير: يصل إلى المكتبة التي تعمل بها شاعر، وحبيب سابق، وثلاثة صناديق غامضة ممتلئة بالكتب. يبدو أن شخصًا ما يعرف ماضيها المبهم، ويحاول أن يرسل إليها رسالة، ولم يعد بوسعها الاختباء بعد الآن.

يتعين على لافداي أن تقرر من يمكنها أن تمنحه ثقتها. هل ستستطيع تجاوز ماضيها؟ وهل يمكنها أن تجد الشجاعة لتصحيح خطأ مفجع؟ وهل ستجد الكلمات لتحكي قصتها الخاصة؟

رواية رائعة عن الأسرة والحب والخسارة وتقبُّل الماضي من خلال سحر الأدب.

الكرمة
ISBN 978-977-9603-31-5
9 789779 603315 >